www.kotobarabia.com

هَوامِش الفتح العربي لِمصر

*حكايات الدخول
*رحلة الانصهار

www.kotobarabia.com

سناء المصري

هوامش الفتح العربي لمصر

* حكايات الدخول
* رحلة الانصهار

سناء المصري

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

فهرس

فهرس ..... - ٣ -
أولا: حكايات الدخول ..... - ٥ -

الفصل الأول

مارية القبطية - غربة حتى الموت..... - ١٥ -

الفصل الثاني

وقائع الفتح وسير الفاتحين ..... - ٦٧ -
العرب يتناحرون على الثروة ..... - ٩٣ -
النساء يشاركن في القتال العربي/ العربي ..... - ١٢٩ -
حال قبط مصر ..... - ١٣٦ -
بورتريهات القادة في مخطوطة يوحنا النقيوسي..... - ١٦٥ -
صوت قبطي آخر..... - ١٧٧ -
الوقائع المشتركة بين مؤخري القبط- والمؤرخين العرب ..... - ٢٠٠ -

الفصل الثالث

معارك في كل مكان ..... - ٢١٠ -
هوامش الفتح العربي لمصر ..... - ٢٩٢ -
أحداث الفتح العربي لمصر بوثيقة يوحنا النقيوسي والواردة..... - ٢٩٢ -
مقدمة بعد الرحيل..... - ٣١٤ -
مائة سنة مقاومة ..... - ٣١٩ -
ثورات القبط (ما جاء في كتاب الكندي) ٤٣٦

ملحق خرائط رحلة الانصهار.....٤٤٤
فهرس المراجع القبطية ٤٦١
فهرس المراجع الحديثة ٤٦٣
مراجع الجزء الثاني (رحلة الانصهار) ٤٦٧

مقدمة حكايات الدخول

لم تكن مصر بلدًا غريبًا على العرب قبل الفـتح، وكـان تجار قريش يأتون إليها حاملين بضائع الشرق مـن اللبـان والبخور والتوابل والفضة والحريـر، فيبيعـون بضـائعهم، ويشترون منها الثياب الغاليـة، أو مـا يعـرف بالقبـاطي والمشغولات والزجاج، بالإضافة إلى أنواع الطعام المختلفـة وخصوصًا القمح والذرة. ويذكر البغدادي أن "هاشم بن عبـد مناف" جد النبي الأكبر قد هلك في غـزة – علـى أبـواب مصر – كما يذكر أن "المغيرة بن شعبة" قد دخل مصر كثيرًا قبل إسلامه، وكان آخرها تلك الرحلة التي سـبقت إسـلامه مباشرة، وكانت رحلة دامية قتل فيها المغيرة أصـحابه مـن بني مالك طمعًا فيما يملكون، بعد أن منحهم مقوقس مصـر هدايا كثيرة غالية الثمن، وطمع فيها المغيرة واحتـال حتـى قتلهم، وساب ما معهم، ثم لجأ إلى النبي معلنًا إسلامه...!

كما دخلها "عمرو بن العاص" ووصل إلـى الإسـكندرية محملا بالعطر والآدم (الجلود). ويذكر بعـض المـؤرخين أن معرفته الكبيرة بطرق مصر وأخبـار مـدنها ومكـامن ثروتها يعود إلى تلك الرحلات التجارية أيام الجاهلية.

وفي العموم، كان تجار قريش يعرفـون مصـر معرفـة كبيرة قبل الإسلام، خصوصًا بعد أن تعاظم دور مكـة فـي التجارة الدولية في القرن السادس الميلادي، واستفادت كثيرًا من النزاع الطاحن الذي كان يدور بـين الدولـة البيزنطيـة غربًا، والدولة الفارسية شرقًا (لمزيد من التفاصيل، انظـر: إيلاف قريش).

وعبر التجارة بين الشرق والغرب حمل العرب معـارف الجانبين، كما حملوا ثرواتهما، وصارت مكة – الوادي غير ذي الزرع – عاصمة ثراء الجزيرة العربية من كثرة ما يرد عليها من كنوز الشرق والغرب. وكما يذكر الـبلاذري فـي (كتاب فتوح البلدان) أن دنانير هرقل كانت ترد علـى أهـل مكة في الجاهلية، وترد عليهم دراهم الفرس البغلية فكـانوا لا يتبايعون إلا على أنها تبر. وصار كل "قُرشي إما تـاجرًا أو وسيطًا [1]".

ولأهمية التجارة البرية في هذه الفترة نشأت على طريـق القوافل، من مصر إلى الجزيرة والعكـس، عـدة محطـات

---

[1] فيكتور سحاب: إيلاف قريش؛ رحلة الشتاء والصيف، دار الساقي، لندن،١٩٩٣ م.

وأسواق تجارية ازدهر بعضها وأصبح له شـهرة تجاريـة واسعة، مثل مدينة "نصتان" الواقعة بين غزة وأيلـة شـرق العريش، على الحدود بين الدولة البيزنطية المهيمنـة علـى المنطقة وشبه الجزيرة العربية. ويبـدو أن سـوق نصـتان التجاري الضخم كان يخضـع لسـيطرة أو احتكـار تـاجر مصري، كما يقول مصطفى العبادي في دراسته عن مدينـة نصتان.

وفي العموم، كان (البيزنطيون يلزمون التجار الوافـدين أن تمر بضاعتهم عبر مراكز مخصوصـة يشـرف عليهـا موظفون ماليون [٢]) لضمان أداء الرسوم الجمركية، وكانت تلك الأسواق مواطن تماس بين التجار العرب وغيرهم مـن الشعوب، فتنزل القوافل رحالها، وتبرك الجمال في الظـل، ويعرضون بضاعتهم، ويتبادل النـاس الأخبـار، ويـدفعون ضرائب المرور للدولة البيزنطية، ويلبثون الليل فـي فنـدق أو خان بسيط البناء، ثم يعاودون الخوض في آفاق الصحراء المجدبة، وأحيانا كان الطريق البري الذي تسلكه قريش يمتد

---

[٢] مصطفى العبادي: موقع مدينة نصتان في ضوء الوثائق البردية قبل الإسلام.

من عدن جنوبا حتى غزة شـمالا فيمـا يعـرف بـالطريق التهامية، أما الطريق البري من مكة إلى فلسطين ومنها إلـى مصر فكان يعرف بالطريق التبوكية ويمر قريبًا من المدينـة المنورة، أو يثرب في ذلك الحين، ويستغرق قطعه قريبًا من حوالي شهر في الذهاب وآخر في الإياب.

وحينما تعود القوافل إلى مكة كان الجميع يحتشدون فيمـا يشبه الاحتفال: (فتتقدم الجمال متهادية.. وعلى ظهر كل منها نحو مائتي كيلو جرام من البضاعة، وكانت تلك هي الحمولة المعتادة في الرحلات البعيدة، ونادرا ما كان الرجال يصلون أصحاء، بل متعبين ومنهكين وقد لوحت وجـوههم الشـمس وشقق العطش شفاههم) [٣] من آثار السـير فـي الصـحراء والقفار المهلكة، فيتلقف الناس بضاعة الشام ومصر، وتزدهر الحياة التجارية، وتنعقد مجالس السمر والأخبار في منتـديات مكة وأسواقها الثقافية، وتدور الحكايات عن حضارة مصـر وروعة مدنها وخصوصا مدينة الإسـكندرية التـي أفـاض خيالهم في وصف عظمتها.

---

[٣] فيكتور سحاب: إيلاف قريش.

وبخلاف الطرق البرية من وإلى جنوب الشام، كان هناك طريق بحري يربط الجزيرة بمصر مباشرة حيـث ترسـو المراكب البسيطة الصنع في ميناء القلزم (السـويس اليـوم) على شاطئ البحر الأحمر. وكان التجار يصدرون منه الذرة المصرية ومختلف أنواع الحبوب إلى الحجاز واليمن.

وكان التجار يتخذون من مدينة "قفط" الصعيدية مركزًا لهم منذ أزمان بعيدة، حتى أن المؤرخ الجغرافي "سترابون" الذي زار مصر في أوائل العصر الروماني في القرن الأول قبـل الميلاد، يقول عنها: إنها مدينة نصف عربية لكثرة مـا رأى فيها من الأعراب والتجار الذين كانوا يأتون إليها عبر وديان الصحراء الشرقية والبحر الأحمر، كما كانـت الإسـكندرية مركزًا لكثير من التجار العرب الذين يتبادلون البضائع مـع التجار اليهود والرومان وغيرهم.

* * * * *

وخلال هذا التبادل التجاري، عرف العرب ظاهر مصر، ولمسوا بعضًا من حضارتها، وظلت في خيالهم رمز الوفرة والازدهار، وظل مجيئهم إليها لا ينقطع في رحلات أحاديـة الجانب من شبه الجزيرة العربية إلى الشام، ثم إلى مصـر،

والعودة دون أن يشاركهم أبناء هذه البلاد في رحلات مماثلة إلى بلاد الجزيرة... وإن صادفنا بين الحين والآخر وجـود بعض التجار الرومان هناك.

ونادرًا ما كان المؤرخون يذكرون إقامة مصري في مكة، وإذا وجد فهي استثناءات قليلة جدًا، كما حدث مـع النجـار القبطي، الذي ذكر "الأزرقي" عنه أنه شارك في بناء الكعبـة حينما غمرها طوفان السيول، فأخـذت قـريش الأخشـاب اللازمة للبناء من حطام سفينة رومانية كانت غرقـت فـي ميناء الشعبية قرب جدة.

ويؤكد "الكندي" ذات الواقعة بقوله: إن (البيت هـدم فـي الجاهلية فولت قريش بناءه رجلا من القبط يقال لـه "بقـوم" فأدركه الإسلام وهو على ذلك البناء)[٤].

ولم يذكر لنا المؤرخون أية تفصيلات عما إذا كان هـذا النجار دائم الإقامة في مكة، أم أن أهل مكة قـد اسـتدعوهم للقيام بتلك المهمة.

والأغلب أنه قد تم استدعاءه لما عرف مـن المصـريين من مهارات في البناء والنجارة والتشييد. وفي إشارة عـابرة

---

[٤] الكندي: فضائل مصر، ص ٢٨.

نجد ذكرًا لقبطي آخر يدعى "أبو رافع"، وكان عبدًا للعباس عم النبي، ثم أهداه العباس إلى النبي الذي أوقفه على زراعة أرض العالية في يثرب، ويقال إن أرض يثرب كانت الزراعة تقوم فيها عمومًا بأيدي العبيد المشترين من الشام والعراق... ثم نجد هذا القبطي يقوم بذات المهمة[٥].

ولا يمكننا بناء على هذه الاستثناءات النادرة أن نرصد رحلات مصرية إلى شبه الجزيرة العربية، والحالتان السابقتان من الأمثلة النادرة في إطار المصادر المتاحة أمامنا حاليًا.

حتى ظهرت في هوامش السيرة النبوية قبطية مصرية، بل قبطيتان ورجل، قدر لهم أن يدخلوا بيت النبي صدفة، ومن ثم حصلوا على تصريح دخول التاريخ العربي من زاوية أوسع قليلا، ولكن دون الإفاضة في ذكر تفاصيل حياتهم، وتتبع نشأتهم بسبب اندراجهم تحت طائفة العبيد

---

[٥] يقول اليعقوبي في تاريخه: إن أبا رافع مولى النبي هو قبطي أهداه المقوقس، والأصح رواية الكندي، لأن المقوقس أهدى قبطًا آخرين للنبي؛ ليس بينهم أبو رافع – انظر: تاريخ اليعقوبي – الجزء الثاني، ص ٧٠.

والجواري غيـر المسـتحقين لمكـان الصـدارة، أو غيـر المستحقين للاهتمام الكافي من المؤرخين العرب.

وتأثير تجربة القبطيتين والرجل في بـلاد العـرب كـان قاصرًا على الدوائر المحيطة ببيت النبي فقط، ولكنـه كـان تأثيرًا أعمق من تماس التجارة السريع والمبالغـات الناتجـة عنه، وبالإضافة إلى أنه يعتبر مقدمة التماس الأكبـر القـادم مع سنابك الخيل، ووقع أقدام الجنود أثنـاء الفـتح العربـي لمصر.

وإذا قارنا تفاصيل التلاقي المصري/ العربي، والعربـي/ المصري، سنلاحظ الاختلاف الجذري بين اللقـاءين، حيـث ذهب الطرف القبطي في المرة الأولى إلى بلاد العرب رغمًا عنه، وأجبر على الدخول في نسق قيم ومعتقـدات الوسـط الجديد، وضرورة التخلي عن معتقداته الأولى. وفي المـرة الثانية حشد العرب حشودهم مع الجيش الإسلامي، ودخلـوا مصر، ثم لم يخرجوا منها ثانية مع احتفاظهم بجسور الصلة المفتوحة مع بلاد العرب، فلم تتوقف الهجـرات الجماعيـة لقبائلهم طوال القرون الأولى من التاريخ الهجري.

ووطد العرب سيطرتهم على البلاد التي صارت فيما بعد عربية... ومع الفتح وبدايات الاستيطان نجـد أنفسـنا أمـام درجة أعلى من التماس بين العرب الوافدين على صـهوات الخيول شـاهرين السـيوف والرمـاح، وبـين المصـريين العزل...؟

فكيف كانت المواجهات الأولى...؟ وكيف كان تصور كل طرف عن الآخر..؟ وما الذي حدث في حقيقة في اللحظـات الأولى للفتح قبل أن تستقر الأمور للعرب.

أمور شائكة مضى عليها أكثر من أربعـة عشـر قرنًـا، وأهال التاريخ على تفاصيلها رماده الصعب.. وآثارها القليلة لا زالت تُروى وتتداول من خلال صوت رسـمي ووحيـد للمنتصر الغالب الذي استقرت له الأمور وانكمـش أمامـه الطرف الآخر رويدًا.. رويدًا، وانكمشت معه ذكرياته حتـى كادت أن تمحى من كثرة التجاهل والنسيان.

والآن، هل نكتفي بمجرد ترديد ما سـبق قولـه ملايـين المرات، ونسعد بالدوران في نفس الفلك المعتم...؟

أم نحاول أن ننبش معًا ذكريات الطرف المنسي، ونُخرج بقايا أوراقه قبل الفتح وبعده..؟

ونظرًا لاتساع المدى الزمني السابق على حدوث الانصهار بين العرب والمصريين، وكثرة أحداث هذا الزمن، سنكتفي بدراسة أحداث القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني حتى سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ... لأنها الفترة التي شكلت مقدمة الانصهار الإجباري، وجسدت طرق القضاء على مقاومة الطرف المغلوب.

وسوف نحاول تتبع تفاصيل تلك الأحداث، ليس من خلال المصادر العربية فقط؛ ولكن مما تيسر من بقايا الصوت القبطي المعاصر للأحداث، أو الوارث لها بعد ذلك.

وبمضاهاة الصوتين العربي والقبطي ببعضهما؛ ربما نصل إلى صورة تقريبية لحقيقة تلك الفترة المزدحمة بالتفاصيل والصراعات.

سنمشي على رمال متحركة إذن.. ونجمع شذرات متفرقة على الجانبين، ونبحث عن إشارات تلمع بين سطور السياق العام الذي يتواطأ عليها ليخرسها ويطفئها.

وما ينتج عن ذلك سيكون مجرد محاولة لاستنطاق الصوت المكتوم تحت الركام الرسمي منذ آلاف السنين...

الفصل الأول

مارية القبطية..

غربة حتى الموت

مارية القبطية: جارية النبي المصرية المنتزعة من بيئتها الطبيعية بقرية صغيرة من قرى مصر، والمهداة إليـه في صحراء العرب البعيدة قبل الفتح العربي لمصر بأكثر من عشرة أعوام، تلك المرأة المشهورة المجهولة...؟ هل كانـت تعي أنها تحولت إلى جارية لرجل لم تره مـن قبـل حتـى ولو قالوا لها في الطريق إنه نبي...؟ كيف انتزعت من بـين القرينات والأهل لتصبح جارية في بلاط المقوقس يفعل بهـا ما يشاء...؟ كيف تحولت من حرة إلى عبدة؟ ومتـى حـدث ذلك؟ هل سمعت من قبل عـن مكـة والمدينـة والعـرب والصحراء؟ وكيف تصورتهم وهي الآتية من بلاد المـزارع الخضراء المترامية الأطراف، والنيل، ووفـرة المحاصـيل والقرى الراسخة منذ آلاف السنين، تجاورها المدن وعواصم الأقاليم ذات الأبنية الشاهقة والقصور الفخمـة والحمامـات والمسارح والجيمانيزيمات؟

وإذا عرفنا أن ماريا لم تكن وحدها في هذه الرحلة إلـى المجهول، وأنه كانت تشاركها ذات الظـروف والمخـاوف والمخاطر والمصير أختها سيرين... لتمنينا أن نعرف نـوع الحوار الذي دار بينهمـا فـي تلـك اللحظـات الحاسـمة، وأن نرقب نظرات عينيهما وخفقات قلبيهما، بالإضافة إلـى رصد انفعالات هذا القبطي المرافق لهما، والذي تقول عنـه بعض الكتب إنه أخوهما، وبعضهما الآخر يرى أنـه كـان نسيبًا أو قريبًا لهما، وأنه كان خصـي ويـدعى "مـابور"، والمصادر التاريخية جميعًا لا تكاد تشفي نهمنا لمعرفة حقيقة ما حدث لتلك القافلة الصغيرة: (مارية – سيرين – مـابور)، يقودهم عربي غريب عنهم في دروب الصحراء القاحلة إلى مصير يجهلونه.. تاركين خلفهم قريتهم الصغيرة "حفْن" مـن كورة "أنصنا".

لا.. ليست حفـن، وإنمـا (Hebnou) هبنـو القبطيـة، ويسميها الرومان (Hyponaa)، أما الاسم المصري القـديم الذي اندثر مع الفراعنة تاركًـا آثـاره فهـو (Hatbmou)، ونلاحظ الجذر المشترك بين الاسـم فـي اللغـات الـثلاث الهيروغليفية واللاتينية والقبطية، وحينما جاءت العربية بعـد

ذلك أخذت أيضًا ذات الأصل وغيرت بعض الصوتيات بقلب الهاء حاء والباء فاء فصارت "حفـن" وهـي قريـة قديمـة كاسمها، ويقال إنها كانت قاعدة القسم السادس عشر من أقسام مصر الفرعونية؛ وهو القسم المعروف باسم (Oryx) الواقع شرقي النيل، وبها الكثير من الآثار الفرعونية.

وحينما ازدهرت الحضارة القبطية بسماتها الخاصة منـذ القرن الثالث الميلادي، كانت قرية حفن (Hebnou) – هبنو القبطية – إحدى خلايا تلك الحضـارة النابضـة بالمقاومـة والحياة، فانتشرت بها، وأحاطتها أديرة الرهبـان وقلايـاتهم وكنائسهم، وغلب عليها طابع وروح الفـن القبطـي؛ حيـث البيوت ذات الأبواب الخشبية والواجهات المنمقـة بحجـارة منقوشة بألوان العنب وشتى الرسوم الزخرفيـة، وللأبـواب مزاليج من الخشب معروفة إلى اليوم باسـم (السـقاطات)، أما الحوائط فعالية وبها طاقات للتهوية.

ويقسم البيت إلى فناء واسع وحجـرة اسـتقبال واسـعة، وغرف للتخزين وحظائر خلفية وفرن، وفـي الفنـاء تقـف الزيور الفخارية في الأركان ممتلئة بمياه النيل العذبة، كمـا

تمتلئ غرف التخزين بشتى أنواع الجرار الفخارية وأوانـي المنزل وأدوات الطبخ دقيقة الصنع.

وفي الكثير من البيوت يحتل النـول الخشـبي والمغـزل وخيوط الكتان ركنًا هامًا تصنع فيه المـرأة القبطيـة ثيـاب عائلتها ومفارش بيتها وستائره وأغطية الوسائد، وفي بعض الأحيان يذهب إنتاجها إلى السوق لتوفير بعض المال الـلازم للحياة، بالإضافة إلى مشاركتها في أعمال الحقل والزراعـة. وكانت بعض الفتيات يعملن في معاصر النبيذ وفي مصـانع القرية الصغيرة وصوامع الغلال، كما كن يشاركن في مواسم جمع الكروم التي تغطي القرية ببهجتها أثناء عمليات جمعـه وتحميله على الجمال، ونقله إلى معاصر النبيذ.

ولكنه لم يكن فرحًا خالصًا تمتزج فيه مشـاعر فلاحـي القرية من الرجال والنساء بنتاج جهـدهم وعملهـم طـوال الموسم؛ بل كانت تقطعه قسوة جامعي الضرائب من حكـام المقاطعات (الباجارك) ونوابهم المنتشرين في كل الأرجـاء، وأحيانًا كان حراس الحقول وشيوخ البلد يمنعـون الفلاحـين من رفع المحصول من المزارع إلا بعد حضور المسـئولين عن الأراضي. وقد تنوعت الملكية بين أراضٍ يملكها التـاج

الإمبراطوري ويؤجرها للفلاحين، وأراضٍ يملكها مالك كبير يستخدم الفلاحين للعمل عنده، وقد شهد إقليم المنيا – الواقـع فيه قرية حفن – وجود عدة أسر كبيرة امتلكت آلاف الفدادين مثل أسرة "الكونت أبيون" و"الكونت أمونيوس". ورغم الثراء الفاحش لهؤلاء الملاك وامتلاكهم لمخازن وبنوك ووحـدات حراسة خاصة، وتغلغلهم في جهـاز الحكـم الإداري، إلا أن الشواهد التاريخية تؤكد عـدم تمـتعهم بحقـوق الإقطـاعي الأوروبي المالك لمصير العاملين في أرضه.

والفلاحون العاملون لدى "الكونـت أبيـون" أو "الكونـت أمونيوس" أو غيرهما، كانت لهم حرية الحركـة والانتقـال بشرط سداد المستحقات الواجبة عليها، أو التعهد بسـدادها. وقد تمتعت بعض قرى تلك الناحية بنظـام الجبايـة الذاتيـة (فصار اتصالها بمكتب الوالي مباشرة)، أما القرى الخاضعة لكبار الملاك فكانت تتبع موظفي المالك. وسواء أكان النظام الخاضع له فلاحو القرية يتبع الإمبراطور مباشرة أم الكونت، فقد كان ثقل حجم الضرائب وطرق جبايتها وجيش الموظفين القائم عليها يخلق فئـة واسـعة مـن هـؤلاء المسـتفيدين

عن المخـازن والشـرطة ومسـئولي الضـرائب والكتبـة والمديرين وموظفي البريد، وغيرهم.

وكان الفلاح المصري يؤجر مساحة صغيرة من الأرض ويعمل على زراعتها لقاء قدر معلوم من الضـرائب مثـل: ضرائب القمح (الأنونا الأهلية) التي تجمع ليأخذ بعضها حكام الأقاليم، ويرسل بعضها إلى الإسكندرية ومنها إلى عاصـمة الدولة البيزنطية فيما يسمى بالشحنة السعيدة، وكان الفـلاح يدفع عن المحاصيل الأخرى ضرائب نقدية، بالإضافة إلـى الضرائب العامة التي تشترك القرية كلها في دفعهـا لعمـل نفقات الإصلاح، وتمويل خزائن المقاطعات وإعـداد الفـرق العسكرية وسد نفقات زيارة الأباطرة، وغيرها مـن المهـام ثقيلة الوطأة. ولتأمين جباية كل أنواع الضـرائب (العينيـة والمالية) (كان لكل قرية مجلس محلي يعينه مجلس شـيوخ المقاطعة ويكون مسئولا عن تنفيذ أوامر الوالي[٦]). ويتكون من عمدة وشيخ بلد وشرطة، بالإضافة إلـى مسـئول ميـاه فيضان النيل، ومسؤول الخزانة، وحراس الحقول، ثم طائفـة

---

[٦] زبيدة عطا: إقليم المنيا في العصر البيزنطـي فـي ضـوء أوراق البردي.

الجباة والكتاب وعمال البريد، وغيرهم ممن يربطـون بـين القرى ومراكز الأقاليم.

وتحت وطأة وتعسف حكام الأقاليم؛ لجأ الإمبراطور إلـى عمل منصب جديد هو منصب (الحامي). وغالبًا مـا كـان اختيار القائم بأعمال هذا المنصب يأتي مـن نفـس طبقـة الإداريين أو إتباعهم، وكان الفلاحون كثيرًا ما يشكون مـن هؤلاء الحماة... وربما تعود ذكرى المثل العـامي القائـل: (حاميها حراميها) إلى ذكرى هؤلاء الحماة الأليمة.

وفي العموم، ثقلت الأعباء الضريبية على مجلس القريـة حتى كان المصريون يتهربون من القيام بها، ولجأت الإدارة البيزنطية إلى فرض التزامات الوظائف على أعيان القـرى فيما يشبه السخرة.

وكثرت شكاوي الفلاحين من حكام المقاطعات (الباجارك) الذين يغيرون على القرى بجنودهم، فيعتدون علـى النسـاء والراهبات، ويسدون القنوات ويسلبون كل ما يقع في أيـديهم بعد فرض الضرائب الاستثنائية على الفلاحين.

وفي الكثير من الأحيان كانوا يقبضـون علـى زوجـات وأولاد الفلاحين الذين يتأخرون في دفع الضرائب، وهنـاك

برديات تعود للقرن السادس، يلتمس فيها الناس من الحكـام الإفراج عن الزوجات والبنات في مقابل تعهـدهم بإحضـار أزواجهن الفارين.

وفي ظل هذا النظام المركب، عانى الفلاح الحر – شكليًا أو قانونيًا – من كثرة المظالم والتعديات وإرهاق الضـرائب الزائدة عن قدرته إلى الحد الذي أدى به إلى الهروب الفردي والجماعي من القرى إلى الأديرة والأماكن البعيدة، وترك كل شيء للجباة المتعسفين يفعلون به ما يشاءون، فكانت المقاومة بالهرب أخطر ما يواجه جهاز الدولة البيزنطية.

* * *

وللتعذيب والفرار قصة أخرى في هذه الفترة من تـاريخ مصر تتجسد في الاضطهاد الشديد الـذي أوقعـه "قيـرس" البطرك حاكم مصر الروماني – أو المقوقس كمـا تسـميه الكتب العربية – بالأقباط المصريين دون هوادة، حتـى فـر الأنبا بنيامين بابا الكنيسة المصرية ومعه سائر الأساقفة إلـى أديرة الصحراء هربًا من الاضطهاد. وقبض جنـود قيـرس على أخي الأنبا بنيامين وعذبوه بالحرق (حتى سـقط لحـم

كلاه) [٧] ومات في أيديهم، وقد وضع قيرس بدلا من أساقفة القبط الهاربين أساقفة آخـرين يتبعونـه ويـدينون بمذهبـه الخلقيدوني في مصر كلها، من الإسـكندرية حتـى أنصـنا، أو أنطونيوبوليس عاصمة الإقليم الذي تقطـن فيـه ماريـة وعائلتها. وقد اشتد اضطهاد قيرس الخلقيدوني لمركز أنصنا للقضاء على مركز ومكانة الكنيسة القبطية به؛ والتي كانـت تمتلك أراضٍ زراعية كبيرة في تلك المقاطعـة، كمـا كـان يتركز بها أكثر من عشرين ديرًا وكنيسة قبطية تعتبر مراكز للمقاومة الشديدة، وخصوصًا دير الراهب "بوهـور" الـذي استشهد تحت التعذيب الروماني وظل ديره مركزًا للمقاومـة فيما بعد.

ويعود إنشاء مدينة أنطونيوبوليس – (أنصنا) فيما بعـد – إلى القرن الثاني الميلادي، وبالتحديد عـام ١٣٠ ميلاديـة، حينما زار مصر الإمبراطور الروماني (هادريـان)، وقـام برحلة نيلية في صعيد مصر، واختار ذلك المكان الذي غرق فيه غلامه المحبـوب (أنطونيـوس) وبنـى عليـه مدينـة (أنطونيوبوليس) على طراز العمـارة الإغريقـي، فضـمت

---

[٧] ساويرس بن المقفع: تاريخ الآباء البطاركة.

المدينة مسارح وحمامات وجيمـانيزيم وشـوارع يونانيـة الطراز، وقصور ضخمة لازالت بعض آثارها موجودة حتى الآن (وقد بلغ من حرص الإمبراطور على النقاء الإغريقـي لسكان هذه المدينة أن اختار العناصر الأولى لسكانها – عن طريق القرعة – من مدينة (بطليمة) أكثر المدن الإغريقيـة في مصر تحفظًا وغيرة على التراث الإغريقي، كما اختـار عددًا آخر من إقليم الفيوم؛ حيث كان لا يزال هنـاك طبقـة إغريقية مغلقة على نفسها ولم تختلط بالمصـريين لا ثقافـة ولا عنصرًا، وعرفت بطبقة الـ ٦٤٧٥ مـواطن، وأعطـى الامبراطور سكان مدينته الجديدة حق تكوين مجلس شـورى وحقوقًا أخرى....). [٨]

وبمرور الزمن فقدت المدينة تزمتها الإغريقي العنصري، وسرى فيها تيار التمصير، جارفًا بعد السماح بالزواج مـن المصريات، ومما ساعد على سرعة التمصير موقع المدينـة كمحطة تجارية هامة، ومركز لصـناعة النسـيج والفخـار وعصر النبيذ؛ بالإضافة إلى تلك الكوكبة من القرى المصرية الغنية بمزارع الكروم والقمح والنخيل التي كانت تحيط بهـا

---

[٨] زبيدة عطا: إقليم المنيا في العصر البيزنطي، المصدر السابق.

مثل قرية حفن؛ موطن مارية وسيرين وعائلتيهما. وظلت أنصنا والقرى المحيطة بها (حسنة البساتين والمنتزهات كثيرة التمر والفواكه) [٩]، كما يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان.

وثمة روابط محسوسة تربط تلك المنطقة وقراها بماض بعيد للحضارة الفرعونية وتترك آثارها في بعض العادات وطرق الزراعة وأنواع الأدوات المستخدمة في الحياة.

وفي هذا المناخ المشبع بعناصر الثقافة القبطية في اللغة والدين والسلوك، عاشت الفتاتان (مارية وسيرين) وحملتا كل عناصر الثقافة المحيطة – على الأقل في وعيهما الداخلي – مع ملاحظة أنهما شبتا في ربوع القرية العتيقة، وعاشتا تفاصيل الاضطهاد فيها، أما رفاهية "أنطونيوبوليس" التي كانت تبعد عن موطنهما بمسافة قصيرة، فكانت حكرًا يخص السادة الرومان من الحكام والفرسان والنبلاء وكبار الموظفين، أو هؤلاء المتمصرين الأغنياء الساكنين في بطانتهم، دون غيرهم من فئات الشعب المصري القاطن في القرى المحيطة بها.

---

[٩] ياقوت الحموي: معجم البلدان.

ولنا أن نتخيل كثيرًا من مفارقات الترف والرفاهية بين سكان (أنطونيوبوليس) – عاصمة الإقليم وعروس الصعيد – المستمتعين بالحمامات والمسارح، والقارئين للشعر والمسرح والفلسفة اليونانية والحفلات ذات الطابع المتأغرق، وبين حياة القرى الغارقة في العمل الزراعي، وما يترتب عليه من أعمال عصر النبيذ، وطحن الحبوب، وعصر الزيوت، وغيرها من الأعمال الشاقة، بالإضافة إلى عبء القيام بالأعمال الإجبارية العامة من حفر الطرق والقنوات والمصارف ومد الجسور، وأداء الضرائب العينية والنقدية، وهوان الفرار المذعور أمام خيول الفرسان الرومان ورجال الحاميات العسكرية... وظلمة السجون الكائنة في انتظار من لا يدفع، وغيرها من صور البؤس التي كان يعاني منها سكان القرى القبطية المحيطة بعاصمة الأقاليم الثرية المرفهة الأنيقة، والتي حفظت لنا أوراق البردي نماذج لبعض دعوات حفلات العشاء المقامة في الجيمنيزيم، أو نصوص المسرحيات وغيرها من أنماط الثقافة اليونانية لطبقة الرومان والمتمصرين المحيطين بهم.

وبعيدًا عن مظاهر الرفاهية، عاشـت الفتاتـان "ماريـة وسيرين" في قرية حفن الغارقة في الأعبـاء، ضـمن آلاف العائلات القبطية المضطهدة... تألفان الجو المحـيط بهمـا، وتشقيان وتفرحان مع أقرانهما من القبط حتى امتـدت أيـد شرسة واقتلعتهما من جذورهما، وقذفت بهما مع (مابور) إلى قصر المقوقس بالإسكندرية في رحلة إجبارية يغلـب عليهـا طابع القسر والاستعباد.

وحادثة انتزاع (مارية – سيرين – مابور) غابت تفاصيلها تمامًا عن كتب التاريخ (العربي منها والقبطي)، ولكنها تشبه الكثير من حكايات انتزاع زوجات وبنات الفلاحين المصريين من أراضيهم وبيوتهم بسبب عجز الرجال عن أداء الضرائب وتراكم الديون، أو بسبب الاضطهاد الديني لهم بصفتهم أقباط مؤمنين بكنيسة الإسكندرية، أو غيرها من أسـباب المظـالم الكثيرة المحيطة بالفلاحين المصريين تحـت قيـود الحكـم البيزنطي.

وفي تلك الأثناء على بعد آلاف الأمتار من حدود مصـر الشرقية في بلاد العرب البعيدة، كان النبي محمد يبث دعوته الإسلامية في محيطه العربي، ويتخذ من المدينـة (يثـرب)

مركزًا لدولته. وقرر النبي بعد صلح الحديبيـة (عـام سـتة هجرية) أن يبلغ دعوته لملوك وأمراء العالم المحيط بالجزيرة العربية بعد أن (اتضح أنه السيد الفعلي في شـمال الحجـاز وتهامة)[١٠]، وأنه قادر على عزل قريش سياسيًا واقتصاديًا.

فاختار نفرًا من أصحابه وأرسلهم إلى إمبراطور الـروم، وكسرى فارس، وملك الحبشة، وملـك البحـرين، وعمـان وحاكم مصر، وكتب لكل منهم رسالة – كل بلغته – ويقـال إن كاتبه كان من بني النجار، ويدعى "الخزرجي" (يكتب إلى الملوك ويجيب بحضرة النبي ﷺ بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية، وأنه تعلم هذه اللغات بالمدنيـة مـن أهـل هـذه الألسن)[١١].

وحمل خطاب النبي إلى المقوقس عظيم مصر (أوقيـرس الروماني) شخص يدعى حاطب بن أبي بلتعة، وهـو تـاجر طعام من قبيلة الأسد حليفة قريش، وكان يملك عـددًا مـن العبيد، إذ كان هذا يعتبر أحد مقاييس الثراء لدى العـرب –

---

[١٠] أحمد الشبول: علاقات الأمة الإسلامية في العصر النبوي مع بلاد الشام وبيزنطة.

[١١] المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٤٦.

كما كان من الرماة الموصوفين، ذكره الحاكم في مستدركه، فقال: (كان حسن الجسم خفيف اللحم أجنـى إلـى القصـر ما هو شئن الأصابع)[١٢]، أي ليس غليظ الأصابع[١٣].

وقد سلك حاطب طريق التجارة المعروف مـن المدينـة حتى دخل مصر، ثم وصل إلى الإسكندرية قاصـدًا بـلاط المقوقس حاكم مصر الروماني، وكان المقوقس (قيرس) فـي

---

(١٢) ابن عبد الحكم.

(١٣) سوف نجد أخبارًا بعد ذلك عن خيانة حاطب بن أبي بلتعة للنبـي وحزبه، وحينما كانوا يعدون العدة لفتح مكة ويحيطون الأمر بسرية شديدة؛ بغية مفاجأة قريش، فبعث حاطب بتلك الأخبار إلى قـريش، وحينما اكتشف أمر خيانته، وأمسك أصحاب النبي بـالمرأة التـي تخبئ خطاب حاطب في شعرها، فبرر خيانته قائلا: (كـان بمكـة قرابتي وولدي وكنت غريبًا فيكم معشر قريش) فعفا عنه النبي لأنه شهد وقعة بدر... لمزيد من التفاصيل، انظر: سير أعلام النـبلاء: شمس الدين الذهبي.

وهذا الحادث يلقي ظلال الخيانة على حاطـب، ويقلـل الثقـة فيـه كصاحب أمين للنبي... وعاش حاطب حتى عام ٣٠ هـ، وتـرك حين مات أربعة آلاف دينار ودراهم وغير ذلك. انظر: محمد بـن سعد: الطبقات الكبير.

مجلسه المشرف على البحر، كما يقول ابن عبد الحكم، فركب حاطب البحر حتى حاذى مجلس المقوقس، وأشار إليه بكتاب النبي بين إصبعيه، فلما رآه أمر بالكتاب فقبض وأمـر بـه فأوصل إليه، ولكننا نفهم من رواية ابن سعد أن حاطب قـد مكث بباب المقوقس مدة من الزمن حتى سمح له بلقائـه... ورواية ابن سعد أقرب إلى الصحة المنطقية جريًا على عادة الملوك في اتخاذ القصور والحراس والأبواب المغلقة، فيأتي تاجر من الجزيرة العربية ويطلب مقابلة الملك ويظل ببابـه حتى يؤذن له بالدخول.

أما رواية ابن عبد الحكم عن المقوقس الذي كان مجلسـه يشرف على البحر فيلوح له رجل غريب برسالة من جهـة البحر فيؤمر بها، فقول يناسب المبالغـات الأخـرى التـي سيفرط ابن عبد الحكم في ذكرها بعد ذلك... وكـان نـص الرسالة:

(من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط.. سـلام على من اتبع الهدى.. أما بعد:

فإني أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم، وأسلم يؤتيك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط. يا أهل الكتـاب،

تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولـوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)[١٤]. ويفيض ابن عبد الحكم فـي سرد تفاصيل الحوار الذي دار بين حاطب والمقوقس حتـى أنه يذكر حوارًا شبه سري دار بينهما ليلا وليس معهما سوى الترجمان، سأل فيه المقوقس عن حقيقة أفكار محمد وصفاته، وبمجرد سماع المقوقس لصفات النبي تحول موقفه من الشك إلى التصديق، وأخذ يكمل بنفسه ما نسيه حاطب – وكأنه رآه رؤى العين – فقال: (قد بقيت أشياء لم أراك ذكرتهـا فـي عينيه حمرة قل ما تفارقه، وبين كتفيه خاتم النبوة، ويركـب الحمار ويلبس الشملة ويجتزئ بالتمرات والكسر لا يبالي من لاقى من عم ولا ابن عم)[١٥].

ولا نجد ذكرًا لهذا الحوار المغرق فـي التفاصـيل لـدى محمد بن سعد كاتب الواقدي في كتـاب (كتـاب الطبقـات الكبير). وفي الأغلب أن هذه الحكايات وأمثالهـا هـي مـن موضوعات الرواة والمؤرخين الذين ينسبون إلى المقـوقس

---

[١٤] ابن عبد الحكم.

[١٥] المصدر السابق.

(قيرس) قوله: (القبط لا تطاوعني في إتباعـه ولا أحـب أن يعلم بمحاورتي إياك، وسيظهر على البلاد وينزل أصـحابه من بعده بساحتنا حتى يظهروا على ما ههنا)[١٦].

وحسب تلك الرواية يكون المقوقس قد آمن بالنبي وتنبـأ بانتصار العرب على أشلاء دولته البيزنطية.

وفي الحقيقة: إن كل هـذه الاعترافـات النافيـة للـذات والمؤمنة بالآخر إلى حد ذكر صفات النبي الخاصة جـدًا – والمقوقس (قيرس) لم ير النبي قط – والتنبؤ لـه بمسـتقبل واسع النفوذ على حساب دولة الـروم – أي علـى حسـاب النفس – هي غريبة كل الغرابة، ولا تتفق مع مجمل مواقف الحاكم الروماني وتاريخه السياسي، وهو المعـروف بمـدى تعصبه ضد كل من يخالفه في مذهبه الديني، خصوصًا وأن نفوذ قيرس (المقوقس) السياسي كان مستمدًا من نفوذه الديني بصفته بطريركًا للمذهب الخلقيدوني المعادي لكل المـذاهب الأخرى، واضطهاد كل من يخالفه الرأي مـن المصـريين الواقعين تحت سطوته وحكمه.

---

[١٦] المصدر السابق.

وفي كثير من الأحيان يغلب على روايات ابن عبد الحكم طابع القص الكاريكاتيري، كما في قوله: (إن المقوقس لما أتاه كتاب رسول الله ﷺ ضمه إلى صدره، وقال هذا زمان يخرج فيه النبي الذي نجد نعته وصفته في كتاب الله، وإنا لنجد صفته أنه لا يجمع بين أختين في ملك يمين ولا نكاح، وأنه يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة، وأن جلساءه المساكين، وأن خاتم النبوة بين كتفيه، ثم دعا رجلا عاقلا ثم لم يدع بمصر أحسن ولا أجمل من مارية وأختها وهي من أهل حفن من كورة أنصنا فبعث بهما إلى رسول الله ﷺ)[١٧].

والمقوقس (قيرس) في تلك الرواية كملوك الحكايات الأسطورية الذين يعرضون مملكتهم على أول عابر سبيل يمر عليهم، أو كعراف يقرأ الطالع، ويهذي ببواطن المستقبل المعاكس لوجوده، فيصبح بذلك رجلا ضد نفسه.

ويبدو النصف الآخر من الحكاية متأثرًا بالقصص الشعبية التي تجعل الملوك يبعثون برجالهم ليفرزوا نساء المملكة ويختاروا أجمل الفتيات لتصبح محظية الأمير أو زوجته (ثم لم يدع بمصر أحسن ولا أجمل من مارية) وكأن مصر

---

[١٧] ابن عبد الحكم: المصدر السابق.

كانت قرية صغيرة يمكن فرز نسائها بسهولة... مع ملاحظة أن محمد بن سعد قد ذكر أن حاطب أقام خمسة أيام فقط لدى المقوقس.

وعذر ابن عبد الحكم وغيره من المؤرخين العـرب فـي ذكر مثل هذه القصص أن مدوناتهم التاريخية جـاءت بعـد مرور أكثر من قرنين.. بعد أن اسـتقرت الأمـور للعـرب وسقطت دولة الروم واتضحت مصائر البلاد، وكـان مـن السهل أن يحدث نوع من تلبيس المستقبل للماضـي وكـأن التاريخ يعيد تشكيل نفسه مع كل رواية جديدة.

وعلى أية حال، تبدو رواية محمد بن سعد، كاتب الواقدي أقرب إلى الصحة المنطقية، حيث تختفي منهـا كـل هـذه المبالغات وتأتي الوقائع بسيطة سلسة حيث يقول: (أوصـل إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرأه وقال خيـرًا، وأخـذ الكتـاب فجعله في حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى جاريته، وكتب إلى النبي ﷺ: قد علمت أن نبيًا قد بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وقد أهدت لك كسوة وبغلة تركبها ولم يـزد على هذا ولم يسلم، فقبل رسول الله ﷺ هديته وأخذ الجاريتين

مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وأختها سـيرين وبغلـة بيضاء لم يكن في العرب يومئذ غيرها وهي دلـدل، وقـال رسول الله ﷺ ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه، قال حاطب: كان لي مكرما في الضيافة وقلة اللبث ببابه ما أقمت عنـده إلا خمسة أيام)[١٨].

فالواقدي على عكس ابن عبـد الحكـم يـذكر المقابلـة باقتضاب، حتـى أن النبـي بعـد عـودة حاطـب حـاملا رد المقوقس قال: ضن الخبيث بملكه، وتنبأ له بالزوال.

فالنبوءة هنا على لسان النبي وليست على لسان المقوقس (قيرس)، كما جاء في رواية ابن عبد الحكم، كما أن الواقدي لا يفيض في توسيع مكونات الهدية؛ بـل يقصـرها علـى الجاريتين والكسوة والبغلة البيضاء.

أما الطبري، فيوسع الهدية حتى تشمل ألف مثقـال مـن الذهب، وعشرين ثوبًا لينًا، بالإضافة إلى الجاريتين والبغلـة والحمار والخصي. وجميعها مكونات غريبة بالنسبة لهديـة

---

[١٨] محمد بن سعد؛ كاتب الواقدي: الطبقات الكبير، الجـزء الرابـع، القسم الأول.

مرسلة إلى نبي يتحدث باسم رسالة جديـدة، ويطلـب مـن الملوك الإيمان بها..!!!

ولذلك تبدو رواية ابن سعد على قصرها أكثر الروايـات مناسبة مع وضع المقـوقس (قيـرس)، وتعصـبه لمذهبـه الخلقيدوني؛ حتى أنه يذكر (قد علمت أن نبيًا قد بقي وكنـت أظن أنه يخرج بالشام) في صيغة تنفي تصـديق المقـوقس لخروج النبي المنتظر من أرض العرب، وإجابته قد دفعـت النبي إلى الدعاء على ملكه بالزوال. وبعد تسليم حاطب الرد المقتضب ومكونات الهدية الصغيرة خرج الجمع من مصـر مكونًا من مارية وسيرين ومابور والبغلة يقـودهم حاطـب ابن أبي بلتعة؛ تاجر الطعام، إلى المدينة مركز النبي...

وسارت القافلة الصغيرة في ذات طريق التجارة المعروف إلى المدينة[١٩]، وكلما كانوا يتوغلون فـي اتجـاه صـحراء

---

[١٩] لأهل مصر وفلسطين إذا جاوزوا طريقان إلى المدينـة: **أحـدهما** على شغب وبدأ؛ وهما قريتان بالبادية... حتى ينتهي إلى المدينـة على المروة، **وطريق** يمضي على ساحل البحر حتى يخرج بالجحفة فيجتمع بهما طريق أهل العراق وفلسطين ومصر، ومن المرجح أن =

الجزيرة العربية ويبتعدون عن حدود مصر كلما كان القلـق يزداد، والوحشة تدب في النفوس، وصور البيـت والقريـة والمدن التي مروا عليها قبل الخـروج تمتثـل فـي الـذهن وتضطرب في اهتزازات سريعة مع اضطراب الروح مـن أثر المخاوف المحيطة: حفن – المزارع – الكروم – الميـاه الجارية – أنصنا – أنطونيوبوليس – القصور – الحاميـات العسكرية – الأسر – قصر الحـاكم الرومـاني – الرجـال الغرباء ذوي اللغة المختلفة، والوجوه والملابـس المختلفـة والجمال والصحراء...

اللون الأصفر يحل محل الأخضر الآن....

الجفاف بدلا من المياه الجارية....

جدب الصحراء والمخاطر المحيطة مكان استقرار القرية وثبات بيوتها....

كل شيء غريب ومختلف، حتى هذا العربي الذي يقـود قافلتهم الصغيرة...

=

تكون قافلة حاطب – مارية – سيرين – مابور، قد قطعت طريـق الصحراء الأول.

وتنفرد رواية الطبري بإضافة ملمح الاتصال اللغوي بين حاطب – تاجر الطعام العربي – ومارية وسـيرين، حيـث يذكر أن حاطب عرض على مارية الإسلام ورغبهـا فيـه فأسلمت هي وأختها... أي أنهما دخلتا المدينة مسلمتين بينما تأخر إسلام مابور عنهما، فبأي لغة عرض عليهـا حاطـب الإسلام...؟

ونحن نعلم أن الثلاثي المصـري (ماريـة – سـيرين – مابور) يتحدث اللغـة القبطيـة ذات اللهجـة الصـعيدية... وحاطب لا يعرف اللغة القبطيـة؛ كمـا تـذكر المصـادر التاريخية.

والمؤكد أنهم دخلوا المدينة وقد نال مـنهم التعـب حـدًا كبيرًا، بعد أكثر من شهر من الخوض في قـيظ الصـحراء، وقد كان تجار مكة يصلون إليها وقد نـال مـنهم التعـب، وتشققت شفاههم.. فما بالنا بفتاتين تخوضان مثل هذه الرحلة للمرة الأولى؟!

ودخلت القافلة أسوار المدينة.. نخل بين حرتين، أو أرض سبخة بين جبلين شاهقين.. فمن أين يسقي النخيل وليس هناك أثر لأية مياه جارية.. إنها مياه الآبـاء إذن.. وكـان يقـوم

بالعمل فيها عبيد من الحبش.. وكلما كانت القافلة تقترب من مواطن المسلمين.. كانت الصورة تتضح شيئًا فشيئًا.. البيوت متواضعة وفقيرة مبنية من جريد النخل، وعليه مسوح شـعر سوداء.. سقوفها غير مرتفعة تكاد تمسها الأيدي.. ولكن أين النساء؟ ربما هن اللواتي يسرن تحت هذه الأغطية السوداء.. ينطبق عليهن وصف الكاتب المعاصر "سعيد حوي" في ذكر حادثة فرض الحجاب على النساء، بأن المدينة صارت مثـل مواطن الغربان... وأشد ما كان مشهد المدينة يختلـف عـن قريتهم الصغيرة القديمة (حفن) الواقعة فـي حضـن النيـل بصعيد مصر....!!

فأخذت القافلة تتقدم أكثر نحو بناء مركـزي (المسـجد) وبجواره تسع حجرات مبنية بنفس النمط السابق... وقـادهم حاطب بن أبي بلتعة إلى مجلس الرجـال يتوسـطهم رجـل ذو مهابة (مشرب بحمرة، طويل المسربة، عظـيم الـرأس واللحية، عظيم الكراديس، شثن الكفين والقدمين، لا طويـل ولا قصير). وهي صفات النبي كما وردت في تاريخ المدينة المنورة، وكان النبي أبيض وبياضه مشرب بحمـرة ضـخم الهامة أغر أبلج ضخم القدمية والكتفين. سبط الشعر ينسـدل

إلى كتفيه... أكحل العينين، وسيمًا في عباءته الحمراء.. ويبدو مهيبًا بين أصدقائه: (فلما نظر إلى مارية وأختها أعجبتاه وكره أن يجمع بينهما، وكانت إحداهما تشبه الأخرى فقال اللهم اختر لنبيك، فاختار الله له مارية، وذلك بأن قال لهما: قولا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فبدرت مارية فتشهدت وآمنت قبل أختها ومكثت أختها ساعة ثم تشهدت وآمنت).[٢٠].

وسرعة إيجاب مارية بالمقارنة مع أختها – باستخدام لغة الإشارة أو حروف صوتية مكسرة – يفصح عن حاجتها السريعة للأمان وسط هؤلاء الأغراب، كما يفصح عن بروز ملكات شخصية كالذكاء وسرعة التعلم والشجاعة، فاختارها النبي لنفسه، ثم أهدى الأخت بطيئة المبادرة – والبطء هنا يمكن أن يعود إلى زيادة الخوف، ويمكن أن يعود إلى الطبيعة الشخصية – أهداها إلى حسان بن ثابت، أو لمحمد ابن مسلمة الأنصاري، أو لدحية بن خليفة الكلبي، أو لزكريا بن جهم؛ على خلاف في الرأي. والأقرب إلى الإجماع أنه أهداها إلى حسان بن ثابت؛ شاعر النبي كتعويض له عن

---

[٢٠] محمد بن سعد: الطبقات الكبير.

ضربة سيف تلقاها من صفوان بن المعطل، كما أعطاه أيضًا بيتًا من بني حديلة.

وبهذا المصير انتحت سيرين مكانًا مظلمًا في خلفية الصورة، ولن تصادف سيرتها في كتب السيرة إلا في مواقف نادرة "كفلاشات" ضوئية سرعان ما تختفي دون أن توضح أية ملامح من ظروف حياة هذه المصرية الوافدة إلى بلاد العرب قسرًا وإجبارًا. أما مارية فقد أنزلها النبي في بيت لحارثة بن النعمان عند أم سليم بنت ملحان، ويبدو أن هذا البيت كان قريبًا من بيوت زوجات النبي، المبنية بجوار المسجد من جريد النخل المغطى بمسوح الشعر السوداء على عادة الأعراب، فيما عدا بيت أم سلمة التي بنت غرفتها باللبن أثناء خروج النبي في إحدى الغزوات، ويقول ابن سعد: إن عدد هذه الغرف كان تسعًا، وأنها كانت ضيقة لمجرد الوفاء بالحاجة، وغير مرتفعة حتى أن الحسن ابن علي بن أبي طالب حفيد النبي، يقول: (كنت أدخل بيوت أزواج النبي عليه السلام في خلافة عثمان فأتناول سقفها

بيدي) وكان عدد زوجات النبي المقيمات في هـذه الغـرف تسعًا، هن[٢١]:

(عائشة بنت أبي بكر عقد عليها قبـل الهجـرة بـثلاث سنوات ودخل بها في السنة الأولى من الهجرة وهـي بنـت تسع).

حفصة بنت عمر، تزوجها النبي سـنة ثـلاث هجريـة، وسنها يومئذ عشرون سنة بعد أن اشتكى أبوها للنبـي أنـه عرضها على أبي بكر وعثمان فلم يقبـل أحـدهما للـزواج منها... فقبلها النبي.

---

[٢١] ترتيب زوجات النبي: ١- خديجة ٢- سودة بنت زمعة ٣- عائشة بنت أبي بكر ٤- حفصة بنت عمر بن الخطاب ٥- زينـب بنـت خزيمة ٦- أم سلمة ٧- زينب بنت جحـش ٨- جويريـة بنـت الحارث ٩- أم حبيبة؛ زميلة بنت أبي سفيان ١٠- صفية بنت حي ١١- ميمونة بنت الحارث العامرية. (عن سمط العوالي في أنبـاء الأوائل والتوالي: ابن عبد الملك العصامي المكي). وقد جـاء فـي "تاريخ اليعقوبي" لأحمد بن أبي يعقوب الكاتب العباسي المعـروف (طبعة بيروت ١٩٧٠) أن النبي تزوج إحدى وعشرين امرأة، وقيل ثلاثًا وعشرين دخل ببعضهن وطلق بعضًا ولم يدخل ببعض.

وأم حبيبة بنت أبي سفيان، تزوجها النبي سنة سبع هجرية بعد عودتها من بلاد الحبشة.

وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، تزوجها النبي سـنة أربع من الهجرة بعد وفاة زوجها في غزوة أحد.

وسودة بنت زمعة بن قيس، تزوجها النبي قبـل الهجـرة بثلاث سنوات في ذات العام الذي عقد فيه على عائشة.

وزينب بنت جحش بن رئاب، تزوجها النبي سنة خمـس هجرية بعد أن كانت زوجة مولاه زيد بن حارثة، فوقع نظر النبي عليها وأعجبته.. فطلقها زيد وتزوجها النبي.

وميمونة بنت الحارث بن حزن، تزوجها النبي سنة ثماني من الهجرة أثناء عمرة القضاء.

وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، تزوجها النبي سنة خمس من الهجرة بعد أن كاتبته عن نفسها في غـزوة بنـي المصطلق. وفي ذات العام اتخذ من ريحانة جارية له.

وصفية بنت حي بن أخطب، تزوجها النبي سنة سبع مـن الهجرة بعد أن ألقى رداءه عليها أثناء تقسـيم سـبي غـزوة خبير. وفي ذات العام جاءت مارية من مصر فاتخذها جارية له. وفي ذات العام أيضًا، ولكن بعد مرور عدة شهور علـى

مجيء مارية كانت سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفـة فـي شهر رمضان... وأهمية تلك السرية بمكانة قائدها زيد بـن حارثة من النبي فهو مولاه المقرب منه، وزوج زينب بنـت جحش السابق الذي دفعه حسن خلقه إلى تطليقهـا لإعجـاب النبي بها.

ويحكي الطبري في تاريخه أن زيد قتل أم قرفة في هـذه الغزوة، وهي فاطمة بنت ربيعة بن بـدر، وأن قتلهـا كـان عنيفًا بأن ربط برجليها حبلا بين بعيرين حتى شـقها شـقًا، وكانت عجوزًا كبيرة وأسر ابنتها[٢٢]. فهل سمعت عن هـذا الحادث... وماذا كان تأثيره عليها...؟

ولأن مارية كانت الجديدة الوافدة من بلاد أخرى محملـة بثقافة أخرى وحضارة أخرى، ولأن النبي كان معجبًـا بهـا يكاد يتفرغ لها، فقد تفرغت لمراقبتها وحصارها كـل نسـاء النبي رغم أنهن زوجات حرائر وهي جارية ملك يمين.

والجميلة مارية جاءت بدون حجـاب، وكانـت تتـزين بطريقة المصريات المتوارثة عن أمهاتهن الفرعونيات، حيث تستعمل المرأة المصرية الكحل للرمـوش واللـون الأزرق

---

[٢٢] الطبري: الجزء الثاني، ص ٦٤٢، ٦٤٣.

حول العينين والأحمر للوجه. وتضع القرط الدائري الواسـع المعروف الآن باسم "الحلق المخرطة" في أذنيها، أو أقراطًـا على شكل عنقود العنب، وتزين معصمها بأسـاور سـميكة تنتهي برأس حية من كل ناحية، ويزين الجيد والعنـق عقـد من الخرز الدقيق الملون، وأحيانًا تلبس (الخلخـال) الفضـي في قدميها. أما الشعر فكانت المرأة المصرية تصففه بطـرق مختلفة أبرزها تسريحة الشعر المنقوشة في جداريات الفـن القبطي، ويكون بتجعيد خصلات الشعر على هيئة بلـح مـع رفعه إلى أعلى وتزيينه بشرائط ملونة. وأحيانًا يكون الشعر قصيرًا مرخيًا على جانبي الوجه، أو طويلا ينسـاب علـى الكتفين في جدائل ملفوفة.

والملابس من الكتان الأبيض المشغول بالصوف الملـون، وخصوصًا باللون الأرجواني الذي كان أعجوبة هذا الزمان. ويطرز الثوب حول الرقبة والأكمـام بزخـارف مصـرية مأخوذة من مفردات الطبيعة المصرية مثل الأعناب وزهور اللوتس، أو بزخارف هندسية دقيقة من خطـوط ومربعـات ودوائر متداخلة ومتكررة. وتصف زبيدة عطا ملابس النساء في دراستها عن إقليم المنيا موطن مارية، فتقول:

(كانت غالبية الثياب منسوجة بطريقة القباطي، وهي أقدم المنسوجات المزخرفة، وهو أول زخرفـة نسـيجية مكونـة من لونين أو أكثر وغالبية الثوب كانت من اللـون الأبـيض أو الكحلي أو الأرجواني، أما الزخارف فبألوان متعددة)[٢٣].

وعن موديلات الملابس، فتقول: (كان منها الثياب القصـيرة كثياب الإسبرطيات ومنها الطويلة ذات الطيات)[٢٤].

وعلى غير عادة عائشة وحفصة في تزيين النساء للنبـي قبل دخوله عليهن، لم تشتركا في تزين مارية غير المحجبـة الواضحة الجمال الوضيئة، كما يقول الطبري، واشتدت غيرة زوجات النبي منها، حتى أن عائشة تقول في حـديثها عـن مارية: (ما غرت على امرأة إلا دون ما غرت على ماريـة وذلك أنها كانت جميلة من النساء جعدة، وأعجب بها رسول الله ﷺ، وكان أنزلها أول ما قدم بهـا فـي بيـت الحارثـة ابن النعمان، فكانت جارتنا، فكان رسول الله ﷺ عامة النهار

---

[٢٣] زبيدة عطا: إقليم المنيا في العصر البيزنطي.

[٢٤] زبيدة عطا: المصدر السابق.

والليل عندها.. حتى فرغنا لها؛ فجزعت فحولت إلى العاليـة فكان يختلف إليها هناك وكان ذلك أشد علينا)[٢٥].

ويبدو أن نار الغيرة كانت دائمة الاتقاد في بيـت النبـي، وقد روى شمس الدين الذهبي أن نسـاء الرسـول ﷺ كـن حزبين: **فحزب** فيه حفصة وعائشة وصفية وسودة، **والحزب الآخر** فيه أم سلمة وسائر أزواجـه. وصـورة مشـاجرات الضرائر وكيدهن لبعضهن فـي الظـاهر وفـي البـاطن، بل وكيدهن للنبي نفسه كثيرًا ما كانت تحدث بزعامة عائشة وحزبها الذي كتلته من الزوجات القويات أمثال: حفصة بنت عمر وغيرها. وأحيانًا كان يصل الشجار إلى حـد التشـابك بالأيدي كما حدث حينما جذبت عائشـة وحفصـة أم سـلمة من رأسها.. بخلاف المعارك الكلامية الكثيرة بين الحزبين...

وكثيرًا ما اشتعلت نار الغيرة بين عضوات حزب عائشة نفسه فكانت (عائشة تـدس لحفصـة إذا مـا تـأخر النبـي عندها)[٢٦].

---

[٢٥] عمر رضا كحاله: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام.

[٢٦] محمد بن سعد: الطبقات الكبير.

كان ذلك قديمًا ومستمرًا بينهن، حتى جاءت مارية فجذبت الأنظار، وغارت منها عائشة أكثـر مـن غيرتهـا علـى الأخريات، خصوصًا وأن النبي يقضي معها معظـم الليـل والنهار، ويكاد يتفرغ لها، ووضعها كجارية لا يعطيها حـق قسمة الأيام مثل سائر الزوجات[٢٧]... فإذا بها تأخذ معظـم

---

[٢٧] يذكر شمس الدين الذهبي أن عائشة وحفصة كانتا يدًا واحدة، ومع ذلك كانت عائشة تغير من حفصة إذا ما تأخر النبي عندها، ويروي البخاري عن عائشة أن النبي يحب العسـل والحلـواء، وكـان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر مما كان يحتبس؛ فغرت فسألت عن ذلك فقيل لي أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل؛ فسقت النبي ﷺ منه شربة، فقلت أما والله لنحتالن له).

ودبرت عائشة خطة لإبعاد النبي عن حفصة والعسل بأن اتفقـت مـع سودة بنت زمعه وبقيت الزوجات على أن يوحين للنبي إذا اقتـرب من إحداهن بأن هناك رائحة كريهة للعسل الذي شـربه.. فقـاطع النبي العسل.... ثم قاطع نساءه شهرًا حتى نزلت الآية: (يـا أيهـا النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجـك والله غفـور رحيم). انظر: نهاية الأرب، الجزء السادس عشر.

ولم تتوقف مكائد الزوجات وخصوصًا ضد الزوجة الحديثـة فكانـت عائشة تقول لها عند تجميلها: (إن أردت أن تحظي عنده فتعـوذي =

الليل والنهار ومن شدة ولع النبي بها كـان يـدخلها بيـوت زوجاته الأخريات، ويعطيها أيامهن أحيانًا، فوقفت له حفصة بنت عمر بن الخطاب ذات يوم، وهي الوارثة قوة اللسان عن أبيها، فعاتبته حتى استرضاها بوعد مقاطعة مارية. والحكاية كما يرويها القاسم بن محمد:

(خلا رسول الله ﷺ بجاريته مارية في بيت حفصة، فخرج النبي ﷺ وهي قاعدة على بابه – يقصد حفصـة – فقالـت:

=

بالله إذا دخلت عليه) فتعوذت أسماء بنت النعمان الكندي في وجـه النبي فألحقها بأهلها دون أن يدخل عليها، فزعموا أنها ماتت كمدًا. انظر: تاريخ اليعقوبي، المجلد الثاني. وقد اشـتكت أم سـلمة مـن عائشة وكلمت فاطمة... فقالت فاطمة لأبيها: (إن نساءك ينشـدنك العدل في بنت أبي بكر). انظر: سير أعلام النبلاء – كما اشـتكتها زينب بنت جحش للنبي (فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهـي قاعدة، فسبتها). وكان النبي (ينظر إلى عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها). شمس الدين الذهبي، وهكذا تمتليء كتب السيرة بقصص المشاجرات بين حزب زوجات النبي، وبين أعضاء الحزب الواحد، في غيبة النبي وفي حضرته، ولم يكن لتلك الغيرة ومكائدها نهايـة طالما بقيت الزوجات التسع.

يا رسول الله أفي بيتي وفي يومي، فقال النبي ﷺ هي علـي حرام فأمسكي عني، فقالت لا أقبل دون أن تحلف لي فقـال والله لا أمسها أبدًا). ونزلت في تلك الحادثة آيـة الإيـلاء: (**قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ**) وآية: (**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَـرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ**)[٢٨].

وهكذا وجدت مارية – القبطية اللسان والعادات – نفسـها محاطة بعدد من الزوجات، بينما يختلف الوضع فـي بيئتهـا الطبيعية في مصر عن ذلك كليًا.. حيث لا يتـزوج الرجـل إلا من امرأة واحدة تشاركه حياته – ويتلازم الزوجان حتـى موت أحدهما.

وتمسك الفكر القبطي بمبدأ الزوجة الواحدة للأبد، واعتبر الجمع بين زوجتين زنًا ظاهرًا مستمرًا، كما حرم التسـري، وكما جاء في قوانين المجمع الصفوي: (من له امرأة ويجامع مملوكته يعاقب)[٢٩].

ومبدأ الواحدية الراسخ في البيئة المصرية منـذ عصـور التاريخ الفرعوني القديم يختلف عن أساس المعاملة في الفكر

---

[٢٨] ابن العسال: المجموع الصفوي.

[٢٩] ابن العسال: المجموع الصفوي.

العربي الذي يمنح الرجل حق الاستمتاع غير المحدود بالنساء باعتبارهن مجرد وسائل للذة الحسية.

وفوجئت مارية القبطية التي تحرم شريعة دينها ارتباط الرجل بأكثر من امرأة، وتحرم التسري وتضعه في مرتبة الزنا الفاحش، بأنها أصبحت واحدة من حريم واسع لرجل واحد، وأن حلقة الحصار تضيق حولها، حتى أن النبي نفسه قد ضاق بهذا الحصار، وقرر فصلها بعيدًا عنهن فحولها إلى العالية بعيدًا عن عيون زوجاته التسع.

والعالية التي تقع جنوب شرقي المدينة هي نصيب النبي من مغانم غزوة بني النضير عام سبعة هجرية، وتشتهر (بنخيلها وآبارها العذبة وهي كثيرة المياه وتزرع أراضيها القرع واللفت والجزر)[٣٠] وكانت الزراعة تقوم على أكتاف العبيد المشترين من الشام في أغلب الأحيان.

وأخذ النبي العالية لها خالصة (فأعطى من أعطى وحبس ما حبس وكان يزرع تحت النخل زرعًا كثيرًا، وكان رسول الله ﷺ يدخل له منها قوت أهله سنة من الشعير والتمر

---

[٣٠] الفيروز آبادي: المغانم المطابة في معالم طابة.

لأزواجه وبني عبد المطلب)[٣١]. وما يتبقى من عائدها كـان يشتري به السلاح والعتاد، والعالية كانت مساحة كبيرة مـن الأرض الخضراء (وهي سبعة حوائط: المثيـب والصـافية والدلال وحسني وبرقة والأعواف ومشربة أم إبراهيم، نسبة إلى مارية. وكانت أم إبراهيم تكون هناك وكان رسول الله ﷺ يأتيها هناك)[٣٢].

وبصعود مارية إلى العالية ابتعدت خطوة عن جو المكائد والمؤامرات الدائرة بين زوجات النبي في غرفهن المحيطـة بالمسجد، واقتربت خطوة من بيئتها الطبيعية بعد أن توفرت عناصر الخضرة والزراعة في المكان الجديد الـذي يسـميه محمد بن سعد بـ (خرافة النخل)، من كثرة زرعه بالنسـبة إلى الصحراء المحيطة.

ويذكر الطبري في تاريخه: فرض الحجاب على ماريـة بعد صعودها إلى العالية، ورغم أنها كانت لا تزال في وضع الجارية، إلا أن النبي قد فرض عليها الحجاب وهـو شـارة وعلامة المرأة الحرة بسـبب شـدة جمالهـا وشـدة غيـرة

---

[٣١] كتاب المغازي الواقدي.

[٣٢] الواقدي: المصدر السابق.

الأخريات منها، وفي حديث عن محمد بن عمر قال: حدثني ابن أبي سبرة عن إسحاق بن عبـد الله عـن أبـي جعفـر أن رسول الله ﷺ حجب مارية وكانت قد ثقلت علـى نسـاء النبي ﷺ وغرن عليها ولا مثل عائشة)[٣٣].

ودخولها تحت ستر الحريم كان علامة مفارقة أخرى في حياتها، وهي التي تعودت مثل سائر نسـاء محيطهـا علـى مخالطة رجال مجتمعها دون حجاب، فالفلاحـة المصـرية تعمل في الحقل كتفًا بكتف مع الرجل، كما تعمل في معاصر النبيذ وأعمال النسيج وشتى الحرف، وفجأة تغير كـل ذلـك حينما انتقلت إلى البيئة العربية.. وفرض عليهـا العزلـة... وأصبحت مقيدة الحركة مثل الأخريات اللاتي ينتظرن هبوط الظلام حتى تخرج الواحدة منهن (من مساكن حيها إلى مكان قصي لتقضي حاجتها ثم تعود)[٣٤].

وبعد ما كانت (تروح وتغدو كما تريد، تحدث من تشـاء وتختلط بالرجال دون الحجاب) مثل سائر النساء المصريات. أصبحت الآن قعيدة بيت العالية لا تستطيع حتـى أن تجلـب

---

[٣٣] محمد بن سعد كاتب الواقدي: الطبقات الكبير.

[٣٤] سعيد حوي: الرسول ﷺ ، جزءان، مكتبة وهبة.

الماء لنفسها، فكان مابور يأتيها بالماء والحطب، لكن كثـرة تردده عليها وضيق الأفق المحيط، أثار اللغط العربي الكثير الشكوك، ويلاحظ القرشي في كتاب البداية والنهاية أن تردد مابور على مارية كان عاديًا؛ لأنه (كان من عاداتهم بـبلاد مصر)[٣٥].

ولم ينته هذا اللغط إلا بعد إثبات أن مابور خصي....

وربما حاولت مارية إضافة لمسات مصرية إلى بيتها في العالية، ولكن أني له أن يصبح كبيوت مصـر ذات السـتائر المنسوجة بخيوط الصوف والكتان على طريقـة القبـاطي، والمزخرفة برسوم الفواكه أو رسوم الراقصات، والمناشـف أو الفوط المزخرفة برسوم الحيوانات، ومسـارح البرونـز المصنوعة على شكل أسد أو حمامة أو ثـور أو طـاووس، وقنينات العطر وأدوات زينة المرأة من الأقـراط والخـواتم والمكاحل والمراوح وعقود الخرز الدقيق الملـون وأمشـاط العاج وشباك الشعر المزينة بالورد والضفائر المجدولة مـن اللونين الأبيض والأزرق. وحتى لعب الأطفال من الشخاليل

---

[٣٥] ابن كثير القرشي الدمشقي: البداية والنهاية، الجـزء الرابـع، ص ٢٧٣.

والتماثيل صغيرة الحجم – وكان القـبط يحبـون التماثيـل الصغيرة جدًا المصنوعة من الطين في أشكال كاريكاتيريـة وتعرف باسم أنطيـو – هادريـان أو المسـاخيط.. أدوات حضارية كثيرة، وإن كانت صغيرة، تركتها مارية خلفها في قريتها الصغيرة حفن، وكان من الصعب تعويضها في البيئة الجديدة.

ويقال إن النبي كان لديه مشط ومرآة ومدهنـة وسـواك وكحل، وأن المقوقس أهدى له فيما أهدى قدح زجـاج كـان يشرب فيه، (وقال عاصم هـو قـدح جيـد عـريض مـن نضار)[٣٦]، كما أهدى له (ربعة) يضع فيها (المرآة ومشـطًا من العاج والمكحل والمقص والسواك)[٣٧]. وعلى الرغم من صغر هذه الأدوات إلا أنها كانت مثار إعجاب البيئة المحيطة بالنبي ودليلا على تميزه، حيث يبعث وجودها علـى راحـة الإنسان ورقي نمط معيشته عمومًا، ويدفع غيبها إلى خشونة الحياة وجهامتها.

---

[٣٦] شمس الدين الذهبي: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعـلام، الجزء الأول.

[٣٧] المصدر نفسه: الجزء الأول، ص ٢٨٩.

وغياب كل تفاصيل الحياة اليومية وأدواتها التي تعـودت عليها مارية في موطنها الأول، كان يعني غيـاب وفقـدان الألفة مع المكان الجديد وغربتها الكاملة عن كل مـا يحـيط بها... مع ملاحظة أن جمال مارية وإعجاب النبي بها وغيرة النساء منها بسبب اختلافها الحضاري، والذي كان لا يـزال يترك آثاره في ملابسها وزينتها وطريقتها في التعامل مع كل ما يحيط بها... فكان النبي كثير التردد عليها طالما كان مقيمًا في المدينة، وفي أثناء الغزوات كان يتركها وحيدة في العالية حتى يعود.

ويرى (جاك تاجر) أن تأثير مارية على النبي كان تأثيرًا حسنًا جدًا؛ فأحب الأقباط من خلالها وأوصى بهم خيرًا، وأنه اطلع على جزء كبير من تفاصيل وضعهم الاجتماعي، ومدى الغبن الواقع عليهم من خلال معاشرته لمارية... وقـد زادت مكانتها لديه حينما رزقت بالولد في (ذي الحجة من سنة ثمان هجرية) بعد حرمانه من الإنجاب لسـنوات طويلـة تعـدت العشرين عامًا، وفقده لابنيه القاسم وعبـد الله مـن السـيدة خديجة في طفولتهما الأولى.

وكان ميلاد إبراهيم بعد فتح مكة، فاستخلف النبي صديقه أبا بكر على المدينة المفتوحة، وعاد إلى المدينة. كما بـدأت وفود القبائل تهل عليه وتبايعه في المدينة معلنـة خضـوع الجزيرة العربية كلها لحكم النبي وتوطيـد دعـائم الدولـة الإسلامية.

وحينما جاء أبو رافع، أحد موالي النبي الذين أوقفهم على زراعة العالية، يبشره بالولد فرح فرحًا شديدًا وأعتقـه مـن أسر العبودية، بل أعتق مارية نفسها قائلا: أعتقها ولدها.

وكان سيرين أخت مارية قد أنجبت هي الأخـرى ولـدًا لحسان بن ثابت يدعى عبد الرحمن. ويبدو أن طول سنوات حرمان النبي من الأبناء الذكور، رغم كثرة زواجه، وبلوغه سن الستين – قد جعل الفرحة بالمولود تتضاعف، فاحتفل يوم سبوعه احتفالا كبيرًا بأن (عق عنه بشـاة، وحلـق رأسـه فتصدق بزنة شعره فضة على المساكين، وأمر بشعره فـدفن في الأرض)[٣٨].

وكانت زوجة أبي رافع: قابلة مارية في الـولادة، وقـد سميت العالية أو الموضع الذي سكنته ماريـة فـي العاليـة

---

[٣٨] محمد بن سعد: الطبقات الكبير.

بمشربة أم إبراهيم، لأن مارية (تعلقت حين ضربها المخاض بخشبة من خشب تلك المشربة). ويقول ابن الشبه في كتـاب تاريخ المدينة المنورة: إن تلك الخشبة معروفة حتى اليـوم، يقصد حتى أيام زمانه في القرن الثالث الهجري، مما يبـين مدى حفاوة الجميع بميلاد إبراهيم، خصوصًا وأن ميلاده جاء بعد اتساع سطوة الدولة الإسـلامية وزيـادة نفـوذ النبـي وخضوع القبائل له واتساع الثروة الآتية من غنائم الحرب... وقد (تنافست نساء الأنصار أيـتهن ترضـعه، وأحبـبن أن يفرغن مارية لرسول الله ﷺ لما يعلمن من هواه فيها)[٣٩].

فاختار النبي مرضعة لابنه – على عادة أثرياء العرب – وأعطاه لها يعيش معها بعيدًا عن أمة مارية:

(فدفعه رسول الله ﷺ إلى أم بردة المنذر بن زيد لبيد بـن خداس بن عامر وزوجها البراء بن أوس، فكانـت ترضـعه وكان يكون عند أبويه في بني النجار، ويأتي رسـول الله ﷺ أم بردة فيقيل عندها)[٤٠].

---

[٣٩] محمد بن سعد: المصدر السابق.

[٤٠] المصدر نفسه.

والمرأة العربية التي تدفع وليدها إلى مرضعة تعتبر ذلك من علامات قدرتها وعلو شأنها وثراء أسرتها، أما الفلاحـة المصرية فقد تعودت أن تنشئ رضيعها بين أحضانها، وتوفر له كل عوامل الاستقرار والحب.. ومارية الفلاحـة القبطيـة الغربية عن جميع من حولها حينما تنجب طفلا فهي تتمنـى أن يعوض غربتها ووحدتها... ومع ذلك فقد انتزعـوه مـن أحضانها وأعطوه لغريبة تحل محل أمه... ترى كيف كانت مشاعر مارية في ذلك الحين.. وكيـف تعاملـت مـع هـذا الوضع...؟ هذا مالا تجيبنا عنه المصادر التاريخية التي لـم تلتفت إلى مشاعر الجارية الغريبة كشأن العرب المحيطـين بها.

أما النبي فكان يرى ذلك عاديًا وطبيعيًا، وكان فرحًا بابنه الذكر، ويكثر الذهاب إلى بيت المرضعة ويقيل عندها – أي يقضي فترة القيلولة عندها – ويضع إبـراهيم فـي حجـرة ويلاطفه، وأحيانًا يحمله على يديه ويخـرج بـه، ويـروي الزهري عن عروة عن عائشة أنها قالت:

(دخل على رسول الله ﷺ ومعه إبنه إبراهيم يحمله، فقـال انظري إلى شبهه بي...، قالت عائشة أرى شبهها – تقصـد

مارية – قال أما ترين بياضه ولحمه؟ قالت من قصر عليـه اللقاح أبيض وسمن)[٤١].

وكان النبي قد أوقف قطعة من الغنم لماريـة وإبـراهيم يستفيدان من لبنها (فكان جسمه وجسم أمه مارية حسـنان)، كما يقول ابن سعد[٤٢].

ومن المعروف أن النبي كان يملـك عـددًا مـن اللقـاح وعددها عشرون ترعى في مكـان كثيـر الـزرع يسـمى بالغابة... وقد خصص النبي لكل زوجة من زوجاتـه لقحـة (ناقة حلوب)، وكانت لقحة عائشة تدعى السـمراء، ولقحـة أم سلمة تدعى العريس...

فلم تكن لقحة مارية وابنها بشيء فريد – إذن – حتى يثير غضب الزوجات اللاتي يثرن ضد غريمتهن بلا سبب واضح أو منطقي...، فما بالنا إذا كانت هذه الغريمة هي أم الولد في بيئة تقدس الأبناء الذكور...؟

لكن فرح النبي بإبراهيم لم يدم، حيث مرض الطفل فـي عامة الثاني.. وحضرته الوفاة وهو لم يكمل رضاعه بعد...

---

[٤١] تاريخ اليعقوبي، ص ٨٤.

[٤٢] ابن سعد: الطبقات الكبير، الجزء الرابع.

فهل أصابه مرض حمى الملاريا، خصوصًا وأن مياه السيول كانت تتراكم في المدينة في هذا الوقت (وتكـون مسـتنقعات تؤدي إلى انتشار البعـوض الناقـل لحمـى الملاريـا)[٤٣]، أم كانت وفاته بسبب مرض آخر...؟

ويقال إن النبي حينما بلغه نبأ مرض إبراهيم (أخـذ بيـد عبد الرحمن بن عوف وانطلق إلى النخل فيـه الـذي ابنـه إبراهيم فوجده يجود بنفسه، فأخذه فوضعه فـي حجـره ثـم بكى). وقد هرعت "سيرين" هي الأخرى إلى أختهـا ماريـة حينما سمعت بنبأ مرضه، فتروي عن ذلك وتقول:

(حضرت موت إبراهيم فرأيت رسول الله ﷺ كلما صحت أنا وأختي ما ينهانا، فلما مات نهانا عن الصياح)[٤٤].

فهل كانت مارية وسيرين تصيحان على إبراهيم بالقبطية أم بالعربية...؟

أم اختلطت الأصوات لدى الأم الثكلى الآتية من أعمـاق الصعيد المصري، وفيه تعبر الثكلى عن حزنها بالعديد الحار

---

[٤٣] الجزيرة العربية في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين: جامعة الملك سعود، الجزء الثاني.

[٤٤] ابن سعد: الطبقات الكبير.

وتلطم الخدين، وتحل الشعر، وتتمايل مع اهتـزازات إيقـاع العديد.

وسرعان ما انتهت مراسم دفن إبراهيم بالبقيع، وعـادت مارية ذاوية إلى العالية... وحيدة وحدة مركبـة... وحزينـة إلى ما لا نهاية بعد فقد وحيدها.

بينما عادت سيرين إلى حياتها السابقة في بيـت حسـان ابن ثابت مع ابنها عبد الرحمن بن حسان بن ثابت... وقـد امتدت حياة عبد الرحمن بن سيرين بعض الوقت فـي بـلاد العرب، وأنجب ابنيه سعيدًا وإسماعيل، الذين قُتلا بأيد عربية في وقعة الحرة عام (٦٣ هـ) أثناء النزاع العربي/ العربـي على الثروة والنفوذ، وفيها هاجمت جيوش يزيد بن معاويـة المدينة لإجبار أهلها على إعطاء البيعة ليزيد... فقتل في هذا اليوم ألف وسبعمائة من العـرب، ومـن ضـمنهما سـعيد وإسماعيل ابنا عبد الرحمن بن ثابت، وانقطع بـذلك نسـل سيرين القبطية من العرب[٤٥].

---

[٤٥] ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، ص ٣٤٧، وقد أُبيحت المدينة ثلاثة أيام للقتل والنهب.

وبعد وفاة إبراهيم طلق النبـي "الشـنباء بنـت عمـرو الغفارية"، وكان قد تزوجها قبلها بعدة أيام ولم يدخل بها لأنها حاضت (حين دخلت عليه، ومات إبراهيم قبـل أن تطهـر، فقالت لو كان نبيًا ما مات أحب الناس إليه... فسرحها رسول الله ﷺ)[٤٦].

وفارق النبي الحياة في الثالثة والستين من عمره، وتـرك مارية شابة صغيرة السن، ولم يذكر لنا المؤرخون عمرهـا على وجه التحديد، ولكن بالحساب المنطقي لحيـاة جاريـة صغيرة جميلة أهديت إليه في ريعان صباها، بينما كان النبي في الثامنة والخمسين أو نحوه، وعاشت في يثرب منذ أواخر العام السابع للهجرة، ثم فارقها النبي في العام الحادي عشـر بعد مرور حوالي خمسة أعوام أو أقل علـى الحيـاة معـه، وتركها للوحدة المطلقة والغربة الشاملة، حيث يطبق عليهـا قانون عدم الزواج مرة أخرى كشأن سائر زوجـات النبـي، وإن لم ترق إلى مرتبة الزوجة.. وأمرها القيمون على الأمر بأن تعتد بعد وفاة النبي، فاستبرأت ثلاث حيضات متتالية...

---

[٤٦] الطبري: الجزء الثالث، ص ١٦٦، شمس الدين الـذهبي: تـاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، الجزء الأول، ص ٣٣٢.

ثم عاشت وحيدة فحضرت زمن خلافة أبي بكر الذي ينفـق عليها من بيت المال، دون أن نعرف مقدار عطائهـا علـى وجه التحديد، ثم أدركتها الوفاة زمن الخليفة عمر بن الخطاب في المحرم عام ستة عشر من الهجرة، ويقال إن عمر:

(كان يحشر الناس بنفسه لشهود جنازتها)، فماتـت فـي ريعان شبابها وهي لم تتجاوز العقد الثاني من عمرها علـى أكثر تقدير، والأرجح أنها كانت تقترب من عائشة في العمر.

بينما عمرت بقية نسـاء النبـي، وعشـن حتـى بلغـن الشيخوخة، وشهدن أحداث تطور الدولة العربيـة واتسـاعها شرقًا وغربًا، فتوفيت أم حبيبة عام أربع وأربعين هجريـة، أي بعد وفاة مارية بحوالي ثمانية وعشرين عامًا وبعد وفـاة النبي بحوالي ثلاثة وثلاثين عامًا. وتوفيت حفصة بنت عمر عام واحد وأربعين بعد وفاة النبي بحوالي خمسة وعشـرين عامًا.

وتوفيت عائشة عام سبع وخمسين هجرية، وكـان سـنها حين حضرتها الوفاة خمس وستين سنة، وشاركت في أحداث كثيرة، وشهدت الفتوحات ونالت العطاء لأكثـر مـن سـتة وأربعين عامًا... وكانت هي أقرب الزوجات إلى عمر مارية

على وجه التقريب، فعاشت أكثر منها بحوالي واحد وأربعين عامًا، بينما كانت أم سلمة آخر زوجات النبي اللاتي أدركتهن الوفاة، حيث توفت عام واحد وستين هجرية[٤٧].

وموت مارية المبكر جدًا يرجع لأسـباب كثيـرة: ربمـا المرض... ربما الوحدة... ولكـن السـبب الأكثـر تأكيـدًا هو الإحساس بالغربة الشاملة... وقد دفنـت بـالبقيع بعيـدة عن بلادها آلاف الأمتار، دون أن تسمع عن فتح المسـلمين لمصر، وطنها الأول.

وإن قدمت هي وأختها شرارة الروح المصرية التي حلت ببلاد العرب بعض الوقت، فبينـت مـدى الاخـتلاف بـين الحضارتين في السلوك والعادات والتكوين الثقافي.

ولو اهتم المؤرخـون قلـيلا بمتابعـة تفاصـيل هـاتين المصريتين نصف اهتمامهم بمتابعة سير الزوجات العربيات الحرائر، لكانت الصورة أكثر وضوحًا، وتفاصـيل الغربـة والوحدة أكثر اتساعًا ودقة. مما يجعل الموت المبكر نتيجـة طبيعية وحتمية في ظل تلك المفارقات العميقة.

---

[٤٧] روى الطبراني أن أول من مات من أزواج النبي ﷺ زينب بنـت جحش وآخرهن موتًا أم سلمة.

الفصل الثاني

وقائع الفتح ..وسير الفاتحين

(ذكر أهل العلم والمعرفة والراوية أنه دخل مصـر فـي فتحها ممن صحب رسول الله ﷺ مائة رجل ونيف)[٤٨].

كانوا يمثلون قمة الصفوة العربية، ومن خلفهم آلاف الجند الممثلين للقبائل المختلفة: العدنانية منها؛ أو ما يسمى بعـرب الشمال، والقحطانية الأصول؛ أو ما يسمى بعرب الجنود.

وتتباين هذه القبائل من حيث الثـراء والمكانـة، فعـرب الشمال كانوا يتيهون على عـرب الجنـوب بالمبالغـة فـي الأحساب والأنساب وحيازة شرف الإحاطة بالكعبة. واحتكار

---

[٤٨] محمد بن يوسف الكندي: فضائل مصر، تحقيق: إبراهيم العـدوي، علي محمد عمر، ص ٢٨ ومنهم: الزبير العـوام، والمقـداد بـن الأسود، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء عقبة بن عمر، وأبو ذر الغفاري، ومحمية بن جزء الزبيدي، ونبيه ابن صـواب المهـري، ورافع بن مالك، وربيعة بن شرحبيل بن حسنة، وسـعد بـن أبـي وقاص، وغيرهم.

تجارة شبه الجزيرة العربية والثراء، ثم ظهور الدين الجديـد بينهن، وكما يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان: إن "أهل مكة كانوا آمنين يغـزون النـاس ولا يغـزون، ويسـبون ولا يسبون، ولم تُسب قرشية قط فتوطأ قهرًا".

وظلت قريش تتيه على ما عداها مـن القبائـل، وتحتـل موضع السيادة بينهم قبل وبعد الإسلام.

وكان الجيش العربي القادم لفتح مصر يتكون من وحدات قبلية تسمى ألوية. ويرفع كل منهم رايتـه المختلفـة اللـون والشكل عن رايات القبائل الأخرى، ومن القبائل مـا يكـون على ميمنة الجيش، ومنها ما يكون على ميسرته، ثم يتوحـد الجميع تحت راية القلب حول القائد العام للجيش.

وجاء من عرب الشمال في هذا الجيش ما يمثل حـوالي ثلاثين قبيلة تضم ثلاثين بطنًا من أبرزها: قـريش، وفهـر، وعامر، وغفار، وثقيف؛ الذين احتل كبارهم مواقـع أمـراء الجيش وقواده، وخرج منهم بعد ذلك أصحاب الشرط القضاة ورؤساء الدواوين والقادة الذين حكموا مصر في العقود التالية للفتح.

ولم تبعث بعض القبائل الشمالية صاحبة السيادة والنفـوذ سوى بأعداد قليلة من الرجال لا يكاد عددهم يكفي لتشـكيل لواء مستقل للقبيلة كما هي العادة، من هـذه القبائـل قليلـة التمثيل: قريش نفسها، والأنصار، وخزاعة، ومزينة، وأشجع، وثقيف، ودوس عبس، وجرش من كنانة، ورفض كل وفد من هؤلاء الشماليين الأثرياء الانضمام تحت راية قبيلة أخـرى، حتى لا تنقص مكانتهم ويصبحوا تابعين لغيرهم، فرأى عمرو ابن العاص القائد العام – بذكائه السياسي – للتغلب على هذه العقبة الداخلية في بناء الجيش أن يبادر إلى (جمعهـم معًـا وجعل لهم رايته هو بصفته القائد العام)[٤٩].

وكان عمرو يفضل استخدام راية سوداء اللون على غرار أول راية أعطاها له النبي في غزوة ذات السلاسـل، ومـن يومها ظلت راية عمرو سوداء، فرفعها في وقعـة قيسـارية وفي اليرموك وحروب الشام وفي معركة صفين.

أما ملابس عمرو – القائد العام – فيصفها الواقدي يـوم وقعة قيسارية بقوله:

---

[٤٩] عبد الله خورشيد البري: القبائل العربية في مصـر فـي القـرون الثلاثة الأولى للهجرة.

(عليه من فوق درعه جبة صوف وعلى رأسه عمامة من صنع اليمن مصبوغة صفراء، وقد أدارها على رأسه كـورًا وأرخى لها عذبة، وفي وسطه منطقة ميور، وقد تقلد بسـيفه وأعتقل برمحه، وأنه ظل على تلك الهيئة حتى وهو متوجـه إلى أمير الروم في مباحثات ثنائية، وحينمـا رآه الترجمـان ضحك، فقال له عمرو مما تضحك يا أخا النصرانية، قال من دناءة زيك وحملك لهذا السلاح، ما الذي تصنع به وما تريـد حربًا؟ قال عمرو إن العرب حمل السلاح شـعارهم، وهـو وطاؤها ودثارها، وإنما حملت السلاح معي اسـتظهارًا لـي على عدوي ولعلي أن ألقى عندكم حربًا فيكون السلاح حصنًا لي).

وكانت صفة عمرو بن العاص: (قصيرًا عظـيم الهامـة ناتئ الجبهة واسع الفم عظيم اللحية، عريض ما بين المنكبين عظيم الكفين والقدمين)[٥٠].

أما عن بقية الجـيش، فسـنجد الجنـود ذوي الأصـول القحطانية، والذين شكلوا قاعدة الجيش من الجنود المقاتلـة، وبلغوا حوالي ثلاثة أضعاف عرب الشـمال ذوي الأصـول

---

[٥٠] ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب والأندلس، ص ٥٣.

العدنانية، فجاء منهم ما يمثل حوالي واحد وستين قبيلة يتفرع منها إحدى عشر ومائة بطنًا، من أبرزها: الأزد، وتجيب، ولخم، وجذام، والمعافر.

والجدير بالذكر أن بعض هؤلاء الجنوبيين كانوا من العرب المرتدة، الذين انشقوا على الدولة الإسلامية بعد وفاة النبي رافضين دفع الجزية، وحاربهم عليها أبو بكر وأحرق من زعمائهم حتى أخضعهم مرة أخرى، وكان أبو بكر يرفض انضمام أهل الردة إلى جيوش الفتح، ثم رأى بعد ذلك أن يسمح لهم بالانضمام إلى جيوش الفتح ووضعهم في أتون المعارك الخارجية، فتح عمر بن الخطاب هذا الباب واسعًا حتى يشغلهم عن الفتن والقلاقل الداخلية، ويعطيهم فرصة الحصول على بعض المنافع وتغير وضعية الفقر المدقع التي كانت تحاصرهم، وخصوصًا قبيلتي عك وغافق – أصحاب الكثرة العددية في جيش عمرو بن العاص. كما انضم إلى جيش الفتح عدد من الصعاليك – قطاع الطرق – الذين أسلموا، وعلى رأسهم أبو ذر الغفاري؛ أحد صحابة النبي.

وقد انضم إلى الجيش العربي في طريقه من الشام وفلسطين إلى مصر عدد من البدو، وبعض الفرس، وبعض

الروم المهزومين، وعرب الأنباط الذين قاموا بـدور الأدلاء والتراجمة والمراسلين.

وهناك في أقصى الطرف المنسي مـن الصـورة.. فـي مؤخرة الجيش، كانت الجمال تتهادى، وفوقها هوادج النسـاء من زوجات القادة والأمراء ورؤوس القوم، ومن خشـي أن يترك امرأته هناك مع القبيلة، أو في مدن الصحراء الناشفة.

جاءت العرب بالظعن – كما يقولـون – كعلامـة مـن علامات عزمهم على القتال حتى الموت دفاعًا عن الزوجات والحريم، أو الانتصار على العدو.

وكانت عادة اصطحاب النساء في الحرب عـادة عربيـة قديمة لتحميس الرجال وقضاء حاجاتهم العاجلة، وظلت تلـك العادة سارية في غزوات النبي وبعد الإسلام[٥١].

---

[٥١] روت عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا خرج في سفر أقـرع بـين نسائه فآيتهن خرج سهمها خرج بها، وكان يحب ألا أفارقه في سفر ولا حضر.. فما أراد غزوة المر يسيع، أقرع بيننا فخرج سـهمي وسهم أم سلمة فخرجنا معه، لمزيد من التفاصيل، انظـر: السـيرة النبوية لابن هشام، الجزء الثالث.

وفي جيش فتح مصر جاءت رايطة بنت منبه بن حجاج القرشية[٥٢]؛ زوجة عمرو بن العاص، التي لا نجـد ذكرهـا سوى أثناء حصار الإسكندرية، حينما اشـتد القتـال، وقـال بعض المسلمين يحذرون عمرو: (إن العدو قد غشوك ونحن نخاف على رايطة، فقال إذًا يجدون رياطًا كثيرة)[٥٣].

فعمرو يقرر أنه في حالة انتصار الرومان على العـرب فإنهم سيجدون رايطات كثيرات مثل زوجته، مما يدل علـى وجود عدد من زوجات القادة العرب اللاتي جـئن بصـحبة الجيش – مثل بسيسة بنت أبي يشرح زوجة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وزوجة معاوية بن حديج، بالإضافة إلى خولة بنت الأزور الكندية، ومزروعة بنت عملوق الحميرية؛ اللتين يقول عنهما الواقدي أنهما قد (أبلتا بلاء حسنًا في فتوح الشام ومصر).

---

[٥٢] رايطة أسلمت بعد زوجها يوم الفتح، وهي واحـدة مـن الخمـس عشرة امرأة اللاتي خرجن لإثارة نار قريش ضد المسلمين، وظلت تجاهر بعداوتها للإسلام حتى يوم الفتح، وهي واحدة من وفد نساء قريش اللاتي أتين بالأبطح وبايعنه بشروط معينة.

[٥٣] ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب والأندلس.

وسار الجيش في طريق غزة/ رفح/ العـريش/ الفرمـا، ومنها إلى الصالحية/ بلبيس وبها حاميـة رومانيـة بقيـادة (Arteon) الذي سماه العرب الأرطبون، وبعد قتـال شـهر استولى عمرو على المدينة، ومنها انطلق إلـى رأس الـدلتا (فوصل إلى قرية تسمى تندونباس ويسميها العرب أم دنـين واستولى عليها، وحاصر العرب حصن بابليون، ولما طـال أمر الحصار أحس عمرو أنه في حاجة إلى مدد فأرسل إلـى عمر بن الخطاب، وجاء المدد بقيادة (أربعة من كبار القـادة هم الزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد الأنصاري، والمقداد بن الأسود).

وكانت صفة الزبير بن العوام "فيما يزعمون، أبيض حسن القامة، ليس بالطويل، قليل شعر اللحية، أهلب كثيـر شـعر الجسد".

أما عبادة بن الصامت، فكان قصيرًا لا يتعد طوله "العشرة أشبار" شديد السواد. وكانت صفة مسلمة بن مخلـد، سـمينًا كثير اللحم ثقيل البدن، وقد قال عنه عمرو بن العـاص فـي إحدى المعارك: (ما بال الرجل الذي يشبه النساء يتعرض في مداخل الرجال).

واشتد ساعد عمرو بهذا المدد، فشدد الحصـار وخـرج الروم للقائه عنـد هليـوبلس، وانتصـر العـرب علـيهم، ثم استطاعوا الاستيلاء على حصن بابليون، ومن ثم انطلقـوا إلى الإسكندرية، عاصمة الدولة الرومانية – عبر قرى ومدن مصر السفلى، وفتح عمرو في طريقه "طرنوط"، ثم نقيوس، ثم سلطيس، ثم الكريون، وجاء دور الإسكندرية.

واستمرت أعمال الفتح حوالي ثلاثة أعوام من ١٨ هـ/ ٦٣٩ م/ وحتى تسليم الإسكندرية في ١٦ شوال ٢٠ هـ/ ١٧ سبتمبر ٦٤١ م.

وبدت صور اللقاء للوهلة الأولى مختلة التوازن، متنافرة الأطراف بين الجيش العربي المغطي بغبار الصحراء وآثار القتال المتواصل، والفرسان النحيفين شعث المظهر والجيـاد النافرة، ويقال إن صفة الجنود اليمنيـين المشـكلين لقاعـدة الجيش العربي أنهم كانوا نحيفين، نـاتئي العظـام، وتَغْلِـب عليهم سمات تواضع المظهر وفقر الثياب.

بينما كان الجانب الآخر من الرومان يسرف في الزينـة والتأنق والترهل. أيضًا يأكل الخلاف قادتهم، ويقاتل بعضهم

بعضًا، ويختفون خلف الحصون، وقد فضل بعضهم الفـرار ليلا تاركين جنودهم للموت.

وكانت مصر مقسمة إلى ثلاثة أقاليم إدارية، تستقل كـل منها بحاميتها العسكرية وقائدها المستقل، ممـا يفسـر روح التطاحن الشديد بين القادة، وصمود بعضهم لقتـال، وفـرار البعض الآخر.

وفي طريق الجيش العربي المنطلق من قرية إلى أخرى، ومن مدينة إلى التي تليها كانت جموع الشـعب المصـري العزل من السلاح ترقب بحذر وهلع أخبار المعارك الـدائرة بين العرب والروم، ويكاد الخوف من الجانبين أن يعتصرهم وذكرى حروب الروم والفرس لم تجف دماؤها بعـد، وقـد فضلت بعض قرى أسفل مصر الانضمام إلى جيش الـروم، تقاتل معهم جيوش الغزو العربي.

* * *

هكذا بدت الصورة الخارجية لعناصر الصـراع لحظـة الفتح العربي لمصر، وتحتها آلاف التفاصـيل والتشـابكات والتنافرات التي سنحاول الاهتمام بتجميعها وترتيبها؛ علهـا تلقي الضوء على بعض المسكوت عنه في كتـب التـاريخ،

وما تفرع عنها من دراسات ونتائج أخـذت صـفة القداسـة والإطلاق على مرور الزمن. وتحكـي بعـض المصـادر التاريخية أن حديثًا جرى بين عمـرو بـن العـاص وأحـد الرومان في الإسكندرية، حينما دعا هذا الروماني قادة العرب إلى ما يشبه المناظرة: (قال عظيم منهم اخرجوا إلي رجـلا أكلمه ويكلمني، فقلت لا يخرج إليه غيري، فخرجـت معـي ترجماني، ومعه ترجمانه حتى وضـع لنـا منبـران فقـال ما أنتم...؟ قلت نحن العرب ومن أهل الشوك والقرظ ونحن أهل بيت الله، كنا أضيق الناس أرضًا وشره عيشًـا، نأكـل الميتة والدم ويغير بعضنا على بعض، كنا يِشَر عيش عـاش به الناس، حتى خرج فينا رجل ليس بأعظمنا يومئـذ شـرفًا ولا أكثرنا مالا، قال أنا رسول الله إليكم يأمرنا بما لا نعرف وينهانا عما كنا عليه، فشنعنا له وكذبناه ورددنا عليه حتـى خرج اليوم قوم من غيرنا فقالوا نحن نصدقك ونقاتـل مـن قاتلك، فخرج إليهم وخرجنا إليه وقاتلناه فظهر علينا، وقاتـل من يليه من العرب فظهر عليهم، فلو تعلم ما ورائـي مـن العرب ما أنتم فيه من العيش لم يبق أحد إلا جاءكم)[٥٤].

---

[٥٤] شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء.

وتكمن المفارق في هذا الحديث الطويل في إبـراز حـال أناس يعانون ضيق الموارد أمام أناس يتيهون ببذخ العـيش، فلو علم هؤلاء العرب بما تتمتع به مصر من الخيرات لمـا بقي أحد منهم إلا وجاء يعب من خيراتها. وليس معنى ذلـك الإقرار بأن كل العرب كانوا فقراء مدقعين قبـل الفتوحـات العربية؛ بل على العكس فقد كان مـنهم التجـار الأغنيـاء؛ وجهاء قريش وأعيانها المسـرفو الثـروة، مـالكو العبيـد والقطعان والإبل والعطر والجلود والحرير، أصحاب قوافـل التجارة إلى الشمال والجنوب، وهمزة الوصل بـين بضـائع الشرق من التوابل والبخور وبضائع الغرب من النسـيج... أصحاب الروح المرنة، والثقافة المطلعـة علـى تطـورات عصرهم... وقد أسلم هؤلاء الوجهاء بآخرة قبل فـتح مكـة بقليل أو بعدها، وهم من عفا عنهم النبي وسماهم بالطلقـاء، وبعد عدواتهم المفرطة للإسلام – دين المستضعفين – فـي البداية، أصبحوا هم سادة الدولة الجديدة، كما كـانوا سـادة القبائل القديمة، وراكمـوا فـي الوضـع الجديـد أضـعاف ما راكموا قديمًا.

وعمرو نفسه قائد الجيش العربي لفتح مصر والذي أسـلم متأخرًا بعد صلح الحديبية، كان ابنًا لرجل من أهـم أثريـاء قريش، ويحكى أنه اشترى قبل إسلامه حلـة بمائـة بعيـر، (وأقبل يخطر فيها حتى أتى بني مخزوم، فناده عمـارة بـن الوليد بن المغيرة المخزومي وقال أتبيع الحلة يا عمرو؟ وقد كان بين الرجلين منافسات عديدة علـى السـيادة والفتـوة، فغضب عمرو وأنشد شعرًا يهجو فيه عمارة، فغضب عمارة وقال يا عمرو ما هذا التهور؟ إنك لست بعتبة بـن ربيعـة، ولا بأبي سفيان بن حرب، ولا الوليد بن المغيرة، ولا سهيل بن عمرو، ولا أبي بن خلف، وكان كل هؤلاء مـن أغنيـاء قريش وسادتها)[٥٥].

فرد عليه عمرو بفصاحته المعهودة بأنه إن لم يكن أحـد هؤلاء فقد جمع خير ما فيهم – لمزيد من التفاصـيل حـول مدى ثروة قريش، وإسراف سادتها في التمتع – انظر كتاب الأغاني للأصفهاني.

---

[٥٥] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، الجزء الثامن عشر، أخبار عمارة بن الوليد ونسبه، ص ١٢٣.

وثراء قريش كان يقابله فقر شديد تعـاني منـه القبائـل العربية الأخرى، وخصوصًا القبائل ذات الأصول الجنوبيـة، والتي نزح بعضها إلى بادية الشمال بحثًا عن الرزق، وهـي من يسميها عمرو بأهل الشوك والقرظ، وإليها تعود غالبيـة جيشه.

وقد أدرك عمرو منذ بداية فتح مصر فداحة الفرق بـين ملابس رجاله وملابس جيش الرومان، فحاول تغيير الصورة وإخراجها من جديد بأن فرض على المصريين إلـى جانـب ما يؤدونه من الجزية والخراج وواجب الضيافة والمحاصيل العينية أن يقدموا (لكل رجل مـن أصـحابه دينـارًا وجبـة وبرنسًا وعمامة وخفين)[٥٦] ويؤيد الـبلاذري ذات الروايـة بقوله:

(وأحصى المسلمون فألزم جميع أهل مصر لكل منهم جبة صوف وبرنسًا أو عمامة وسراويل وخفين في كـل عـام. أو عدل الجبة الصوف ثوبًا قبطيًا)[٥٧].

---

[٥٦] المقريزي: المواعظ والاعتبار، الجزء الأول، ص ٢٩٣.

[٥٧] البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٥٣.

بعد أن تهندم العرب بثياب أهل مصر الغالية الثمن، جاء نفر من القبط – وغالبًا هم من الزعماء – يستأذنون عمـرو في الرجوع إلى قُراهم وأهليهم فسألهم عمرو: (كيف رأيـتم أمرنا؟)، وبحكمة المغلوب على أمره قالوا لم نر إلا حسـنًا، فقال لهم إذن لا حاجة لنا الآن بصنيعكم أعطونا عشرين ألف دينار)[٥٨].

وأضيف عبء هندمة الفارس العربي إلى عـبء مكـان ينزل به، وتوفير كل ما يحتاج إليه مـن مأكـل ومشـرب وإقامة، وهو ذات الحق الذي كان الرومان يفرضونه لأنفسهم من قبل، وكان الفلاح القبطي يشكو منه مر الشكوى.

* * *

وتنبؤنا تلك الفوارق الكبيرة بين القادة والجنود في الأصل القبلي وفي نوع الملابس، وفي غيرهما، أن صورة المساواة الكاملة التي وردت عدة مرات في كتب التاريخ العربي على لسان بعض الرومان، كما في قولهم: (أميرهم كواحد مـنهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد مـن العبـد)[٥٩].

---

[٥٨] المقريزي: المواعظ والاعتبار، الجزء الأول، ص ٢٩٣.

[٥٩] البلاذري: فتوح البلدان، القسم الأول، نهضة مصر، ص ٢٥٣.

أو فيما وضعوه على لسان المقوقس أن العرب: (ليس لهـم رغبة في الدنيا ولا لذة إلا قدر بلْغَة العـيش مـن الطعـام واللباس)[٦٠]. هي صورة تحتاج إلى إعـادة نظـر، لأنهـا تتناقض مع كثير من حوادث النزاع داخل الجـيش العربـي الناتجة عن صراع العنجهيات القبلية، ورغبة كل قبلية فـي الاستئثار لنفسها بدرجة أعلى مـن الأخـرى، وخصوصًـا بالنسبة لقبيلة قريش وقادتها الأقل عددًا والأكثـر اسـتحواذًا على المغانم، وقد أدى هذا الوضع إلى ثورة الجنـود عـدة مرات عليهم.

ويذكر المؤرخون أنه قد حدث سوء تفاهم في أثناء الهجوم على حصن بابليون بين الزبير بن العوام القرشي: ابن عمـة النبي، وقائد جيش المدد الذي جاء لإنقاذ جيش عمـرو بعـد فترة طويلة من الحصار، وبين شرحبيل بن حجية المرادي، من قبيلة مراد التي كانت تحتفظ بطابع (بدوي نموذجي على الرغم من أنها كانت تجاور حضارة جنوبي الجزيرة، ويبدو

---

[٦٠] ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها.

أن بلادهم الجرداء المجدبة كانت مسئولة عن سمعتهم السيئة وكونهم قطاع طرق)[٦١].

وكانوا من أهل الردة المهزومين الـذين انضـموا إلـى جيوش الفتوحات مؤخرًا، وحينما حدث النزاع بـين الزبيـر وشرحبيل بن حجية المرادي، والذي كان قد نصب سلمًا آخر على حصن بابليون بخلاف سلم الزبير بن العوام، وكان من السباقين إلى اقتحام الحصن، فتنازعا علـى شـرف بدايـة الاقتحام ومن يكون صاحبه...؟

ورأى الزبير أنه القائد وأنه أول المقتحمين، وظل يفـاخر بذلك حتى أنه كان يعلق في قصره بالمدينة بعد ذلك، وأنـه ليس من حق هـذا اليمـاني أن ينازعـه شـرف خسـارة الاقتحام... وتصاعد الخلاف بينهما حتى: (عـرض عمـرو على الزبير أن يستقيد من شرحبيل الذي أهانه، ولكن الزبير استكبر قائلا: أمن نغفة مـن نغـف الـيمن أسـتقيد يـابن النابغة؟)[٦٢]

---

[٦١] عبد الله خورشيد البري: القبائل العربية في مصر، ص ٢١٤.

[٦٢] ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها.

والنغفة هي الدود الذي يكون في أنوف الإبل والغنم، مما يعكس نظرة شديدة التعالي والعنصرية تُغلف نظـرة القائـد القرشي إلى جندي من الجنود يمنية الأصل، حتى أنـه رأى أن فكرة القصاص تضعه في مرتبة قريبة منه، وهـو ابـن الشرفاء، فرفض فكرة القصاص مكتفيًا بوضعه مع أشـباهه من دود اليمن المكون لغالبية جيش الفتح لمصر.

وحدث نزاع آخر بين عمرو بن العاص وبين أحد الجنود البلويين فأظهر الجندي سخطه في وجه عمرو بن العـاص، وصاح فيه عمرو: (أخرس فإنما أنت كلـب)، ورد الرجـل قائلًا: (إذن أنت أمير الكلاب)[٦٣].

وبين التشبيه بالدود والتشبيه بالكلاب مارس القـادة مـن عرب الشمال وخصوصًا من قريش نفـوذهم علـى جنـود الجنوب الفقراء النحيلين ناتئي العظام، والحـالمين بتـأمين القوت النادر الشحيح في بلادهم البعيدة. وظلت قريش تتمتع بمركز قوي ممتاز في السياسة والحكم، حتى أنهـا احتلـت منصب الوالي بنسبة أعلى من كل القبائل الأخرى.

---

[٦٣] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ص ٢٦.

وأثناء تقسيم مدينة الفسطاط وتخصيص خطة لكل قبيلـة "تنافس الناس في المواضع، فولّى عمرو بن العـاص علـى الخطط معاوية بن حديج وشريك بن سمي وعمرو بن قحزم وجبريل بن ناشرة المعافري، فكانوا هم الذين نزلوا القبائـل وفصلوا بينهم"[٦٤].

وربما كان استخدام عمرو بن العاص لرجال جنوبيين مثل "معاوية بن حديج"، و"جبريل المعافري" هو نوع من الـذكاء السياسي لضمان سرعة امتصاص الغضب العـام وتهدئـة الموقف، ومع ذلك فقد راعت تلك القيادات الجنوبية منزلـة القائد العام ورجاله، فاختطت لبني سهم وقريش قريبًـا مـن نقطة الارتكاز بجوار الجامع.

وفي مناطق الارتباع اختار عمـرو المنـاطق الـوافرة الخيرات القريبة من الفسـطاط لنـزول القبائـل الشـمالية، والمناطق الأقل وفرة والأكثر بعـدًا للقبائـل ذات الأصـول الجنوبية.

وقريش التي اختطت حول خطة عمرو ومسجده بالفسطاط أخذت مرتبعها في (كورة منف ووسيم القريبة من الفسـطاط

---

[٦٤] ياقوت الحموي: معجم البلدان، الجزء الرابع ص ٢٢٩.

حيث كان آل عمرو بن العـاص وآل عبـد الله بـن سـعد يرتبعون)[٦٥].

أما بالنسبة لديوان العطاء فقد تم ترتيبه في العموم وفـق القرابة من النبي، الأمر الـذي وضـع قـريش علـى رأس المنتفعين بهذا الوضع، وتلتها العدنانية، ثم جاءت القبائل ذات الأصول القحطانية في مؤخرة ترتيـب الـديوان والعطايـا. وقد حدثت عدة خلافات أثناء توزيع الغنائم، حينمـا تمسـك رجل من قبيلة مهرة اليمنية بأن ينـال نصـيبه بعـد فـتح الإسكندرية تمسكًا أوشك أن فتح باب النـزاع واسـعًا مـن قريش، لولا أن عمرو بن العاص تدارك هذا الموقف أيضًـا بدهائه السياسي، وفكر أن يلجأ إلى طريقة لتقسـيم الثـروة تختلف في ظاهرها عن المتعارف عليه بين العـرب، فـأقر نظام الروم المعمول به قبل الفـتح فـي جمـع الضـرائب والخراج. ورفض مبدأ تقسيم الأرض بين الفاتحين، وتمسـك برأيه أمام تعنت "الزبير بن العوام" الذي كان يريـد تقسـيم كل الغنائم فيئًا، كما قسم رسول الله غنـائم غـزوة خيبـر،

---

[٦٥] عبد الله خورشيد البري: القبائل العربية في مصر.

الأمر الذي يحفظ لقادة قريش خُمس أرض مصـر وخُمـس مالها وخُمس سبيها.

ورفض عمرو تلك الفكرة لأنها ستفتح باب الشقاق واسعًا، وتمسك بقانون الرومان الذي يعتبر الأرض كلها وحدة واحدة يدفع عنها المزارعون الخراج، ومختلف أنـواع الضـرائب الأخرى، وكان هناك ديـوان كامـل يـنظم أمـر الأرض وضرائبها.

وحينما عرضوا الأمر على الخليفة عمر بن الخطاب جاء قراره موافقًا لرأي ابن العاص، واشتروا رضى الزبير حينما (صولح على شيء رضي به)[٦٦].

وأراد بعض القادة تقسيم سلطيس ومصيل وبلهيت، وهي ثلاث قرى انضمت إلى جانب الروم، وقاتلت العـرب قتـالا شديدًا، لكن الخليفة والوالي رفضا تلـك النظـرة الضـيقة، ونظرًا للفائدة الأبعد في إقرار القبط على جباية الروم، وفـي ترك الأرض حتى "يغزو منها حبل الحبلة".

وفي بيوت الإسكندرية وقصورها رأي عمرو أن تكـون "أخائذ"، بمعنى أن كل من أخذ منزلا صـار لـه ولعائلتـه،

---

[٦٦] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ص ٢٩٥.

فازداد تنازع الجنود على هذه المساكن التي بلغـت حـوالي أربعة آلاف دار محكمة البناء مفروشة بالرخام الملون، وفي كل دار منها كان يوجد حمام تختص به، (فكان الرجل يـأتي المنزل الذي كان فيه صاحبه قبل ذلك فيبتدره فيسكنه)[٦٧].

وأراد عمرو أن تكون هناك علامة لمنع الخلافـات بـأن يركز الرجل رمحه في الدار وبذلك تصير له دون غيـره... لكن هذا الاقتراح لم يضع حدًا للنزاعـات الشـديدة (فكـان الرجل يدخل الدار فيركز رمحه في منزل منها، ثـم يـأتي الآخر فيركز رمحه في بعض بيوت الدار فكانت الدار تكون لقبيلتين وثلاث)[٦٨].

* * * * *

انتهى الزهد العربي إذن مع أول خطوات الفتح – هذا إذا سلمنا بوجوده من الأصل – ولم تعد الأقوال الموضوعة على لسان المقوقس وغيره من الرومان عن زهـد العربـي فـي الدنيا، واكتفائه ببلغة العيش من الطعام واللباس ذات معنـى،

---

[٦٧] ابن عبد الحكم: فتوح مصر.

[٦٨] ابن عبد الحكم: المصدر السابق.

في ظل الأحاديث التي ستروى بعد ذلك عن غرق القادة في مظاهر الأبهة والعظمة.

ويحكى أن عمرو بن العاص كان يحتفظ لنفسه بمظـاهر أبهة الإمارة بأن (يلبس الغالي من الثياب والحرير والموشى بالذهب ويتخذ من الحرس والحجاب عددًا)[٦٩].

ويقول بجير بن ذاخر المعافري: (جئت أنا ووالدي إلـى صلاة الجمعة بهجير، وذلك آخر الشتاء بعده بأيـام يسـيرة، فأطلعنا الركوع إذ أقبل رجال بأيدهم السياط يزخرون الناس فرعبت – تملكني الخوف – وقلت يا أبت من هؤلاء، فقـال يابني هؤلاء أصحاب الشرط، فأقام المؤذنون للصلاة وصعد المنبر عمرو)[٧٠].

ويصف ذاخر المعافري هيئة عمرو التي رآه عليها فـي ذلك اليوم، فيقول: (رأيت رجلا ربعة قصير القامـة وافـر

---

[٦٩] ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة.

[٧٠] ابن ظهيرة: المصدر السابق.

الهامة أدعج أبلج عليه ثياب موشاة كأن بها العقيان[٧١]. تتألق عليه حلة حمراء وعمامة وجبة)[٧٢].

والوالي الذي يحيط نفسه بموكب من الحجاب والحـرس ورجال الشرطة – حدًا يفزع الناس حتى داخـل المسـجد، ويرتدي الحرير المشغول بالعقيان – وهو ذهب متكاثف فـي مناجمه خالص مما تختلط به الرمال والحجـارة، لا يمكـن الحديث عن زهده أو مساواته بجنوده أو غير ذلك من صور المساواة الزائفة.

وتدل الرواية السابقة على المفارقة الشاسعة بـين أبهـة القائد العربي القرشي ومن يحيط بـه مـن القـادة ورجـال الحاشية.. وبين تواضع مكانة بقية جند الجيش العربـي ذوي الأصول اليمنية الفقيرة.

---

[٧١] العقيان: ذهب متكاثف في مناجمه خالص مما تختلط به من الرمال والحجارة.

[٧٢] المصدر السابق.

(تلك الأمة تحب الذهب والفضة والنساء والخيل ولذات الحياة)

من مخطوطة قبطية قديمة لخصت طبيعة الحكم العربي لمصر

العرب يتناحرون على الثروة

وثارت الكثير من الفتن والقلاقل فيما بين العرب، ونظـر أصحاب العطايا الأقل إلى من يستحوذون على منابع الثروة، ويذكر البلاذري نبذة عن مدى التفاوت في تقسـيم العطـاء، فيقول: (لكل رجل ما بين ألفين إلى ألف إلى تسع مائة إلـى خمس مائة إلى ثلاث مائة ولم يـنقص أحـدًا عـن ثـلاث مائة)[٧٣].

وبالطبع يكون التفاوت كبيرًا جدًا بـين مقـدار الألفـين ومقدار الثلاث مائة، هذا بالإضافة إلـى مصـادر الثـروة الأخرى التي أتيحت للقادة والحاشية المحيطة دون غيرهم من الرجال.

وقد استخدم عمرو بن العاص هذه النفوذ في جمع ثـروة طائلة؛ حتى بعث الخليفة ابن الخطاب سأله عـن مصـدرها بقوله: (بلغني أنك فشت فاشية من خيل وإبل، فاكتـب إلـي من أين لك هذا المال؟) [٧٤]

---

[٧٣] البلاذي: فتوح البلدان

[٧٤] القلقشندي: صبح الأعشى، الجزء السادس، ص ٣٨٦.

ورد عليه عمرو بن العاص: (أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه فاشية مال فشا لي وأنه يعرفني قبل ذلك، ولا مـال لي، وإني أعلم أمير المؤمنين أني ببلد السعر فيـه رخـيص وأني أعالج من الزراعة ما يعالجه الناس، وفي رزق أميـر المؤمنين سعة)[٧٥].

وعمرو يعترف في الخطاب السابق بالثروة التـي حلّـت عليه بعد حكم مصر، فمن أين جاءت.... هل كـان يـزرع قطعة أرض، أم كان الأقباط يزرعون له أرض مهد كلها...؟

ولم يصدق ابن الخطاب حجج عمرو، وبعث إليه محمـد ابن مسلمة يقاسمه أمواله، ومعه رسالة عنيفة، يقول له فيها: (إنكم معاشر العمال قعدتم على عيون الأموال فجبيتم الحرام وأكلتم الحرام وأورثتم الحرام)[٧٦]. وقاسمه ابن مسلمة كـل ممتلكاته، فقال عمرو ساخطا: (قبح الله يومًا صرتُ فيه لعمر ابن الخطاب واليًا، فلقد رأيت العاص بن وائل السهمي – أبا عمرو – يلبس الديباج المزركش بالذهب، والخطاب بن نفيل – أبا الخليفة – ليحمل الحطب على حمار بمكة، فرد عليـه

---

[٧٥] القلقشندي: المصدر السابق ص ٤٧٧.

[٧٦] ابن الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ١٤٦.

محمد: أبوك وأبوه في النار، ولولا اليـوم الـذي أصـبحت تذم – يعني لولا اليوم الذي عينك فيه ابن الخطاب واليًا على مصر – لألفيت نفسك معتقلا عنزًا يسؤك غرزها ويسـؤك بكؤها)[٧٧].

ولم يكن ابن الخطاب يطالب عمرو بتقليل حجم الضرائب وعدم جمع الأموال من قبط مصر؛ بل كان يطالبـه بزيـادة الخراج، والحرص على تحصـيل الجزيـة، وجمـع كـل ما يستطيع من خيرات مصر، وهو صاحب الكلمة الشـهيرة "أخرب الله مصر في عمران المدينة" على ألا يحتكر الـوالي لنفسه هذه الثروات؛ بل يبعث بها إلى المدينة موطن الصفوة القرشية الإسلامية، والتي كان ابن الخطاب يحول بينها وبين نزول الأمصـار، حتـى لا تفسـد ويفسـد معهـا الدولـة الإسلامية... وكان ابن الخطاب يحرص على جمع ثـروات الأمصار في بيت المال الرئيسي، وتوزيعها علـيهم حسـب منزلة كل منهم.

فسياسة الخليفة كانت تهتم بالصفوة الإسلامية، وسياسـة الولاة تنحو إلى الاهتمام بالنفس وبالحاشية المحيطة... ومـن

---

[٧٧] ابن عبد الحكم: المصدر السابق.

هنا كان خلاف ابن الخطاب مع جميع عماله ومنهم عمـرو ابن العاص. وقد استمرت ملاحظة عمر للتغيرات التي تطرأ على ابن العاص من جراء إقامته في بمصر، وحينما استدعاه إلى المدينة وجده (وقد صبغ رأسه ولحيته بسواد، فقال عمر: من أنت؟ فقال: أنا عمرو بن العاص، قال عمر: عهدي بـك شيخًا وأنت اليوم شاب، قد عزمت عليـك إلا مـا خرجـت فغسلت هذا)[٧٨].

وقد جمع عمرو ثروة طائلة من فترتي ولايته على مصر، ويقال إنه خلف من الذهب سبعين رقبة جمل مملوءة ذهبًـا، و(سبعين بهارًا دنانير، وإليها جلـد ثـور مملـوءة إردبـان بالمصري)[٧٩].

ويقال: (خلف عمرو من العين ثلثمائة ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار، ومن الورق ألف درهم وغلة مائتي ألف

---

[٧٨] ابن سعيد الأندلسي: المغرب في حلى المغرب، ص ٤٨.

[٧٩] ابن طهيرة: الفضائل الباهرة، مروج الذهب، الجزء الثالث ص ٢٣٠.

دينار بمصر، وضيعته المعروفة بالوهط قيمتها عشـر آلاف ألف درهم – حوالي مليون درهم)[٨٠].

ونجد في كتاب سير أعلام النبلاء أن عمرو بن العـاص امتلك بستانًا بالطائف يسمى تعريش الوهط ألف ألف عود كل عود بدرهم).

ورغم اقتطاع الخلفاء من مال عمرو – جيًا على سنة ابن الخطاب – فقد ورث ابنه عبد الله – وهو أحد أبنيه – قناطير مقنطرة من الذهب المصري، فكـان عبـد الله مـن ملـوك الصحابة، ونجد في كتاب "المغرب في حلـى المغـرب" أن عبد الله امتلك قرية عسقلان بكل ما فيها وما عليها، وهي من حبس عمرو لولده.

والمشهور عن عبد الله بن عمرو أنه زاهد، لـم يمنعـه زهده من ملكية القرى والديار والأموال، وفي روايـة عـن سليمان بن الربيع قال: (انطلقت في رهط من نُسـاك أهـل البصرة إلى مكة فقلنا لو نظرنا رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ فتحدثنا إليه، فدللنا على عبد الله بن عمرو بـن العـاص

---

[٨٠] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجـزء الثالـث، ص ٢٣، وفاة عمرو ابن العاص.

فأتينا منزله فإذا قريب منه ثلاثمائة راحلة) وسـأل النسـاك بدهشة (على كل هؤلاء حج عبد الله بن عمرو؟ قـالوا نعـم هو ومواليه وأحباؤه)[٨١]. ولم يكن آل العـاص فقـط مـن ظهرت عليهم علامات الثراء الفاحش، بـل شـاركهم هـذا الوضع الزبير بن العوام ابن عمة الرسـول، الـذي أصـبح يمتلك خطة في الفسطاط، وخطـة فـي الإسـكندرية، ودارًا بالكوفة، ودارًا بالبصـرة، وإحـدى عشـر دارًا بالمدينـة، وأرضين فيهما الغابة التي يبلغ ثمنها في ذلك الحين سـبعين ومائة ألف دينار، ومن كثرة اتساع ثروته أنه حينمـا مـات وقسمت ثروته على زوجاته الأربع أخذت كل واحدة مـنهن ألف ألف ومائة ألف (أي مليون ومائة ألف)، وحسب روايـة ابن سعد أن ثروة الزبير كانت تقدر بخمسة وثلاثين مليونًـا ومائتا ألف دينار. وكان يحلم بأن يكون خليفة للمسلمين، لكنه قُتل يوم الجمل دون هذا الحلم.

---

[٨١] ابن سعيد الأندلسي: المغرب في حلى المغرب، الجزء الأول مـن القسم الخاص بمصر، ص ٦٠.

أما خارجة بن حذافة الذي كان قاضيًا لعمـرو، أو كـان على شرطته وقُتل فيما بعد بدلا منه – فقـد تـرك أمـوالا لا تحصى وموالي وعبيد.

ويعلق ابن ظهيرة على هذا الوضع بقوله: (ولم تزل ملوك مصر من عمرو بن العاص وإلى وقتنا هذا يجمع كل واحـد منهم أموالا عظيمة لا تدخل تحت الحصر. وكـذا الأمـراء والوزراء والمباشرين على اختلاف طبقاتهم كل منهم يأخـذ أموالا لا تحصى في حياته)[٨٢].

ويبدو أن سياسة عمرو بن العاص لم تعجب كل العـرب النازحين إلى مصر، خصوصًا بعد أن ركز عمرو عصـبيته البشرية والمادية في بني سهم – أقاربه من جهة أبيه وممـن تحالف معهم.

وكان عمرو كثير الفخر بأبيه العاص بن وائل السـهمي القرشي، الذي يقول عنه الألوسي في كتاب (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب) أن العاص كان مـن حكـام قـريش المعدودين.

---

[٨٢] ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، ص ١٣٠.

وبقدر ما كان عمرو يفخر بأبيه، كـان المنتقـدون لـه يعيرونه بأمه التي كانت سبية من "بني جلان" من قبيلة "بلي" اليمنية وتدعى النابغة[٨٣]، وكانت قد أسـرت فـي إحـدى المعارك القبلية[٨٤]، وكثيرًا ما قال الناس: "لولا أمـه لكـان عمرو من سادة العرب المعدودين".

ورغم أن ثلثي جيش الفتح من أصـول يمنيـة، وكـانوا أخوال عمرو بن العاص؛ إلا أنه كان يفضـل آل أبيـه ذوي العصبية القرشية في توزيع الثروة، فأنزلهم بأجود الأراضي. وبعد وفاة عمرو بن الخطاب، وتولى الخليفـة عثمـان بـن عفان، كثرت شكوى العرب الآخرين – من غير أقاربـه – من ذلك، وجعلوا يعملون عليه، وانتظروا من عثمان أن يقيد صلاحياته، وكما يقول ابن كثير القرشي في كتاب (البدايـة

---

[٨٣] هي سلمة بنت حرملة، تُلقب بالنابغة من بني عنزة ثم أحـد بنـي جلان، أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ فاشتراها الفاكـه بـن المغيرة، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت له.

[٨٤] لمزيد من التفاصيل، انظـر: نهايـة الأرب فـي فنـون الأدب: النويري، الجزء العشرون، ص ٢٩٧.

والنهاية) إن كثيرًا منهم (كانوا محصورين من عمـرو بـن العاص حتى عزل – أي الخليفة عثمان بن عفـان – عمـرًا عن الحرب وتركه على الصلاة وجعل عبد الله بن سعد بـن أبي سرح على الخراج)[٨٥].

وفي قول آخر: كان عمرو على الحرب، وابن أبي السرح على الخراج، وأن عمرًا قال ساخطًا: (أأكون كماسك البقـرة وغيري يحلبها)[٨٦]. ووقع خلاف كبير بينه وبين أبي السرح (حتى كان بينهما كلام قبيح فأرسل عثمان وجمع لابن أبـي السرح الخراج والحرب والصلاة، وبعث إلى عمرو يقول له لا خير لك في المقام عند من يكرهك فاقدم إلي، فانتقل عمرو إلى المدينة وفي نفسه من عثمان أمر كبير)[٨٧].

وانفتح باب الفتنة الكبرى، وكان أحـد أسسـها الهامـة: الفوارق الصارخة بين ثراء الصفوة واحتكارها لمواطن المال والنفوذ، في مقابل الانخفاض النسـبي لشـأن العـرب ذوي

---

[٨٥] ابن كثير القرشي: البداية والنهاية، ص ١٦٦، في بداية الفتنة سنة أربع وثلاثين هجرية.

[٨٦] ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ١٧٨.

[٨٧] ابن كثير القرشي: البداية والنهاية.

الأصول اليمنية، وسياسة عثمان بن عفان وابن أبي السـرح وزادت النار اشتعالا، لأن أخا الخليفة من الرضاعة بالغ في التضييق على اتباع عمرو من جانب، والعرب اليمنيـة مـن جانب آخر. وقد ذكر المؤرخون قتل "عائذ بن ثعلبة البلـوي" اليمني في البرلس عام ٣٥ هـ بأيد عربية دون ذكر أسباب وتفاصيل الحادث. كما غالى في جمع الضرائب مـن القـبط وإغراق حاشيته وحاشية الخليفة في مجتمع المدينة بالأموال، (وكثر الخراج على عثمان وأتاه المال من كل وجـه حتـى اتخذ له الخزائن وأدر الأرزاق، وكان يأمر للرجل بمائة ألف بدرة وفي كل بدرة أربعة آلاف أوقية)[٨٨].

واشتدت حدة رياح التذمر في المركز، كما في الأمصار، وخصوصًا في مصر، ونجد في كتاب (نهج البلاغة) نقلا عن الواقدي والمدائني و الكلبي أن (عبد الله بن أبي السرح أمـر بجلد عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن الحمق – وهما مـن قبيلة بلى اليمنية – وحلق رؤوسـهما ولحاهمـا وحبسـهما وصلب قومًا آخرين من أهل مصر، وهـي نفـس عقوبـة المتأخر عن القتال والمخالف للأمير الذي يوقع عليه عقابًـا

---

[٨٨] جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين.

فوريًا يبدأ بإلحاق الأذى بالجسد ويترك علامة فيه تظل تلحق العار بصاحبها أينما حل)[٨٩].

وأمام زيادة الثروة، كانت صلاحيات الأمير في إنزال العقاب على مخالفيه، واستخدام مبدأ التعزيز بترك علامات وحشية على الجسد، والحرمان من مواطن الارتفاع تنزل على المعارضين وتوسع قاعدتهم.. وقد وجد بعض ثائري البيوت القرشية الأخرى – من غير آل عثمان وآل الحكم من أقاربه – في غضب القاعدة العريضة من الجند ذوي الأصول اليمنية ضالتهم لتفجير الموقف؛ وحتى في تلك الحالة نجد أبناء البيوت القرشية الغاضبة يلعبون دور الزعماء، بينما ظل اليمانيون هم المنفذين والمقاتلين.

وكان محمد بن أبي حذيفة – القرشي الأصل – من أشد المحرضين ضد أبي السرح في مصر، وبعث ابن أبي السرح

---

[٨٩] الشريف الرضى: نهج البلاغة، (وقد تطورت عقوبة الأمير لمخالفيه بعد ذلك فنجد أنه لما ولي بشر بن أبي مروان الأموي: (زاد فيه فصار يدفع الرجل عن الأرض ويسمرونه في يديه بمسارين في حائط فربما مات، وربما خرق المسمار يديه)، المقفى الكبير: المقريزي، الجزء الثاني، ص ٤٢٩.

يشكو محمدًا إلى الخليفة، فحاول عثمان أن يسترضيه بأن بعث إليه (ثلاثين ألف درهم، ومحملا عليه كسوة فوضعهما محمد في المسجد وقال يا معشر المسلمين ألا ترون إن عثمان يخادعني عن ديني ويرشوني عليه، فازداد أهل مصر تعظيمًا له وطعنًا على عثمان وبايعوه على رئاستهم)[٩٠].

وانضم محمد بن أبي بكر – ابن الخليفة الأول؛ أبو بكر الصديق – إلى صفوف المحرضين على عثمان وابن أبي السرح في مصر، حتى أن ابن أبي السرح اضطر إلى عزل ابن حذيفة وابن أبي بكر في مركب ليس به إلا القبط في غزوة ذات الصواري، بعد أن تحدثا كثيرًا في أمر توزيع الغنائم، وأفاضا في انتقاد الخليفة والوالي، ففرض عليهما ابن أبي السرح أن يركبا سفينة معزولة عن الجند العربي، وليس فيها سوى القبط؛ وبينهما عازل اللغة والتفاهم (ولم

---

[٩٠] شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري: نهاية الأرب، الجزء العشرون، ص ٢٤١.

يقاتلا. فقيل لهما في ذلك، فقالا: كيف نقاتل مـع ابـن أبـي السرح الذي استعمله عثمان، وقد فعل عثمان كذا وكذا؟) [٩١]

ولم يفلح هذا العزل في إخماد النار، وازداد التذمر بعـد عودة الجيش إلى مصر من غزوة ذات الصـواري؛ حتـى (خرج أهل مصر في أربع رفاق على أربعة أمراء، المقلـل يقول ستمائة والمكثر يقول ألف، على الرفاق عبد الـرحمن ابن عديس البلوي، وكنانة بن بشر التجيبي، وعروة بن شيبم الليثي، وأبو عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وسواد بـن رومان الأصبحي، وزرع بن يشكر اليافعي، وسودان الغافقي ابن حرب العكي، ولم يجترئوا أن يعلموا الناس بخـروجهم إلى الحرب، وإنما خرجوا كالحجاج)[٩٢].

وجميعهم من الجند اليمانية كمـا يتضـح مـن أسـمائهم المنسوبة إلى: بلى/ تجيب/ ليث/ خزاعـة/ أصـبح/ يـافع/ وأخيرًا غافق من عك. وفي مقدمتهم عبد الرحمن بن عديس الذي سبق ومثل به الوالي وحلق رأسه وسجنه مع آخـرين.

---

[٩١] لمزيد من التفاصيل، انظر؛ المقريزي: المقفـى الكبيـر، الجـزء الخامس، ص ٥٢٥.

[٩٢] الطبري: الجزء الرابع، ص ٣٤٨.

وعين ابن حذيفة نفسه واليًا. وما لبث وفود مصر أن دخلـت المدينة، وحاصرت عثمان بعد مفاوضات عديـدة وبعـد أن انضمت إليهم وفود البصرة والكوفة.

ويقال إن الحصار قد حدث بعد أن قابل أهل مصر فـي الطريق عودتهم من المدينة رسول الخليفة على راحلته ومعه خطاب إلى ابن أبي السرح يطلب منه فيه القبض على هؤلاء الثائرين وقتل زعمائهم مما أشعل غضبهم، وعادوا ليسـألوا الخليفة عن ذلك فنفى صلته بالخطاب، وحاصروه في بيته ثم كان مقتله على يد ثوار مصر. ونلاحظ أن المؤرخين العرب يطلقون على العرب الذين اتخذوا من مصر محـلا للإقامـة (أهل مصر)؛ دون أن يقصدوا بذلك أهلهـا الحقيقيـين مـن القبط[٩٣].

---

[٩٣] ينطبق ذات الكلام على حادثة الرجل الذي اشـتكى عمـرو بـن العاص للخليفة ابن الخطاب؛ لأنه ضـربه بعـد أن سـبق ابنـه، فاستدعى ابن الخطاب عمرو وابنه، وقال له اضرب ابن الأكرمين، وأطلق المؤرخون عليه اسم المصري جريًا على ذات عادتهم فـي تسمية العرب المقيمين بالمصريين، على الرغم من حداثة وفـودهم إلى أرض مصر، فالمقصود هو: الذين امتلكوا أرض مصر.

وانضم هؤلاء الثوار بعد ذلك إلى علي بن أبي طالب في معاركه التالية ضد شيعة عثمان، وكما يقول المؤرخون: إن مصر كانت (علوية الهوى).

وكان لحزب معاوية بن أبي سـفيان – الرافـع لقمـيص عثمان – رجال ذوي بأس وقوة وحيلة ودهاء، وعلى رأسهم عمرو بن العاص المقيم مؤقتًا بقصره في فلسطين – والـذي خرج من المدينة بعد أن احتدم الخلاف بينه وبـين الخليفـة عثمان بن عفان، وقال له ابن عفان: (قمت والله جبتك منـذ نزعتك عن العمل) [٩٤] كناية عن تواضع حاله بعـد قـرار عزله عن ولاية مصر، وكانت صلات ابن العاص برجـال حزبه في مصر لازالت قوية، وعلى رأسهم معاوية بن حديج الذي أقام في الصعيد أثناء تلك الفتنة، ومنها حارب حـزب ابن أبي طالب في مصر، ويقال إنه غزاهم من المغرب بعد أن لجأ إلى عقبة بن نافع – قريب عمرو بن العاص – الذي كان يحكم ولاية برقة ثم انقض على أعدائه في مصـر مـن جهة الغرب، ومن يقرأ تاريخ تلك الفترة يدرك حقيقة أن كل الفصائل المتناحرة كانت لا تريد استمرار خلافة عثمان بـن

---

[٩٤] الشريف الرضي: نهج البلاغة، الجزء الأول، ص ١٦٢.

عفان الذي تزايدت في عهده الثروة بما لا يعقل، وكان بمثابة مرحلة انتقالية بكل ما تحمل من تناقضات السياسة والحكـم والثروة والتكتلات القبلية... وحزب عثمان الذي يتخذ مـن مقتله تكئة للتخاص من الخصوم السياسيين، يريد الآن ما هو أكثر من مجرد الاستمتاع بالثروة؛ إنهم يريدون مباشرة الحكم بأنفسهم، كما سيحدث مع آل سفيان وآل الحكـم، ولمعرفـة عمرو بن العاص بمصر كان يرى أن "مصر تعدل الخلافـة كلها"، وأنه لا يرضى بغير حكمها بديلا.

أما علي بن أبي طالب، وطلحة، والزبير بن العوام، فكان لكل منهم مآربه الخاصة في السياسة والحكم – لمزيـد مـن التفاصيل، انظر طه حسين: الفتنة الكبرى.

وفي خلافة علي بن أبي طالب – قصيرة العمر – عـين قيس بن سعد، على ولاية مصر، وكان في مواجهته حـزب عثمان (معاوية بن حديج ومسلمة بن مخلد ويسر بن أرطـأة وغيرهم، قد اعتزلوا في رقية ولهـم ربـاع وأولاد وعيـال وعبيد)[٩٥].

---

[٩٥] ابن ظهيره: الفضائل الباهرة في ملوك مصر والقاهرة، ص ٢٤.

وكانت سياسة قيس بن سعد هي ملاينـة رجـال حـزب معاوية تجنبًا لشرورهم، فشك علي بن أبي طالب في واليـه، وعين مكانه محمد بن أبي بكر الذي نشب بينه وبـين أهـل خريتا – مقر بن حديج – نزاع (ثم خرج معاوية بن حـديج ودعا إلى الطلب بدم عثمان فأجابه ناس وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر بعد أن هدم دور شـيعة عثمـان ونهـب أموالهم وسجن ذويهم)[٩٦].

وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر، وبلغ الخليفة ذلك، فاستدعى الأشتر وقال له: (ليس لها غيرك فأخرج إليها) لكن عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان دبرا للأشتر قـتلا يليق به، حينما اتفقا مع أحد الرجال لدس السم فـي العسـل، وشرب الأشتر شربة – ومات على أبواب مصـر قبـل أن يدخلها، وكان معاوية وعمرو كثيرا التندر على تلك الحادثـة بقولهما: (إن لله جنودًا من عسل[٩٧]).

وبقي أمامهما محمد بن أبي بكر فأعدا له جيشًا، وهزمـاه في معركة كنانة، ثم لم يكتفيا بذلك؛ بل تبعه ابن حديج حتى

---

[٩٦] المقريزي: ص ٢٦٤.

[٩٧] المقريزي: المصدر السابق، ص ٢٠٠.

قبض عليه وقتله، ثم وضعه في جيفه حمار وأحرقها حتـى أكلت النار جثة محمد، مما يبين وحشية الوسائل التي اتبعهـا العرب في قتال بعضهم البعض من أجل الفـوز بالسـلطان والنفوذ والمال.

وكان عمرو بن العاص من أوائل المتآمرين ضد عثمـان ابن عفان، ومن أوائل المستفيدين مـن قتلـه، ومـن أشـد المطالبين بالثأر له.. وكما يقول هو عن نفسه: (أنا أبو عبـد الله، إذا حككت قرحة نكأتها)[٩٨].

مما يتفق مع رواية شمس الدين الذهبي حينمـا ذكـر أن (عمرو هتك ما كان معاوية يتستر من النفاق والادعاء أيـام وقعة صفين، فقال له: أحرقت قلبي بقصصك. أتـرى أننـا خالفنا عليًا لفضل ومن عليه، لا والله إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها. وأيم الله لتقطعن لي قطعة من دنياك أو لأنابذنك)[٩٩].

وفاز عمرو بمصر طُعمة له كما أراد، كما عين الخليفـة الجديد عبد الله بن عمرو على الكوفة مكافأة لبيت ابن العاص على ما قدموه لإقامة دعائم الخلافة الأموية، لكن المغيرة بن

---

[٩٨] الطبري: الجزء الرابع، ص ٣٥٧.

[٩٩] شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء.

شيعة أوحى إلى معاوية بن أبي سفيان ببوادر الخطر على الخلافة الأموية، حينما قال له: (عمرو بمصر وابنه بالكوفة أنت إذا بين فكي الأسد) فعزل عبد الله عن الكوفة، واكتفى بترك مصر طعمة لعمرو حتى وفاته.

أما بقية الرافعين لقميص عثمان، الذين أوغلوا في سفك دماء أعدائهم أو إخوانهم من العرب المسلمين – فقد استفادوا أيضًا مثل بسر بن أرطأة الذي:

(أوفده معاوية لأخذ البيعة له من المدينة ومكة بحد السيف، فسار حتى أتى المدينة وقتل ابني عبد الله بن عباس، وفر أهل المدينة ودخلوا حرة بني سليم، كما أغار على همدان وسبى نساءهم فكن أول مسلمات سبين في الإسلام)[١٠٠]. وأطلق معاوية يد بسر في الأموال والأملاك.

أما معاوية بن حديج فقد تولى قضاء مصر، وكان كثير الأملاك والأموال، ومن كثرة ممتلكاته قيل عنه إنه (سيد الناس كلهم من الفرما إلى الأندلس)[١٠١]. ويبدو أن ولاء ابن حديج المطلق لحزب معاوية قد تزعزع فيما بعد، حينما

---

[١٠٠] المقريزي: المقفى الكبير: الجزء الثاني.

[١٠١] العسقلاني: رفع الإصر عن ولاة مصر، ص ١١٢.

قتل حجر بن الأدبر وأصحابه، وهم مـن رجـال معاويـة ابن حديج ومن قبيلته اليمنية فغضب، وقال:

(يا أشقائي في الرحم وأصحابي وجيرتي، أنقاتل لقـريش في الملك حتى إذا استقام لهم دفعوا يقتلوننا، أمـا والله لـئن أدركتها ثانية لأقولن لمن أطاعني من أهل اليمن اعتزلوا بنا، ودعوا قريشًا بقتل بعضها بعضًا فأيهم غاب اتبعناه)[١٠٢].

وندم ابن حديج السابق على معاونته لحزب معاوية ضـد حزب علي – القريشيان – مبني على أساس عنصري يمتزج بالطموح إلى الثروة وإن غلفته الحنكة السياسية. فهو يساعد حزب ابن أبي سفيان حتى يـتمكن مـن السـلطة بشـرط أن يصبح له مكان بارز هو وشيعته فـي الدولـة الجديـدة، أما أن يقتل رجاله على مرأى منه فذلك ما يهدد ولاءه لحزب معاوية، وبما لاحظ ابن حديج أن الرجـال الآخـرين ذوي الأصول القرشية قد نالوا من السلطة الجديدة حظًـا أوفـر، خصوصًا وأن الخليفة قد عين مسلمة بن مخلد واليًـا علـى مصر سنة سبع وأربعين، وجمع له الصلاة والخراج وبـلاد

---

[١٠٢] الذهبي: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، الجزء الثاني، ص ٣١٧.

المغرب دون ابن حديج الذي مـات بمصـر سـنة اثنتـين وخمسين هجرية.

* * * * *

ولم يتوقف الصراع العربي/ العربي في مصر بانتصـار الأرستقراطية الأموية وحلفائها؛ بل احتدم مرة أخرى أثنـاء أزمة عبد الله بن الزبير، وظهور بعض الأنصـار لـه فـي مصر ينتمون إلى المعافر (قـالوا لا نخلـع بيعـة عبـد الله ابن الزبير فضرب مروان أعناقهم وكانوا ثمانين رجلاً)[١٠٣].

وتصادف يوم إعدامهم مع يوم موت عبد الله بن عمـرو ابن العاص، ومن شدة خوف الناس لم يستطع أحد الخـروج بجنازته، فدفن في داره لشغب الجند على مروان، ثم ضرب مروان عنق الأكدر بن حمام اللخمي – وقبيلة لخم من أصول يمنية – مما زاد ثورة الجنود ضد مروان. (وتنادى الكنـدي قتل الأكدر فلم يبق أحد حتى لبس سلاحه فحضر باب مروان منهم زيادة على ثلاثين ألفًا وخشي مروان وأغلق بابه)[١٠٤].

---

[١٠٣] ابن تغري بردي الأتابكي: النجوم الزاهرة فـي ملـوك مصـر والقاهرة.

[١٠٤] الكندي: الولاة والقضاة، ص ٤٥.

وتجددت الفتنة مرة أخرى في عهد حـوثرة بـن سـهيل الباهلي – من قبيلة قيس العدنانية الشمالية – فقـبض علـى زعماء الثورة ذوي الأصول اليمنية، وقتلهم جميعًا، وقال له حسان بن عتاهية؛ رئيس شرطته: (لـم يبـق لحضـرموت إلا هذا القرن فإن قطعته قطعتها – يعني خير بـن نعـيم – وكان على القضاء فعزله حوثرة)[١٠٥].

وهكذا لم تخمد النار المشتعلة بين الجند اليمنية من جهة، والأرستقراطية القرشية من جهة أخرى حتى خمدت الدوليـة الأموية، وانتهت على يد العباسيين؛ وهم آخر بيت من بيوت قريش، ستشهد معه الدولة الإسلامية في مصـر تطـورات أخرى.

* * * * *

وقد سجل أدب تلك الفترة الأولى لفـتح مصـر تعـالي الصفوة القريشية على جنود الجيش العربي، ومارسوا عليهم العنجهية والصلف في كل المناسبات.

ولعل أول قصـيدة رويـت فـي مصـر هـي قصـيدة أبي المصعب البلوي، التي هجا فيها العرب القـاطنين أرض

---

[١٠٥] الكندي: المصدر السابق.

مصر، لأنهم من أصول يمنية، وكانت تجد هوى كبيرًا في نفوس ذوي الأصول القرشية. لأن في نفس معاوية من الثوار الكثير "فكان إذا قدم عليه أحد من أهل مصر سأله أن ينشده هذه القصيدة[١٠٦]" التي يعيب فيها الشاعر عرب مصر بأنهم حضرميون ليس لهم شرف ولا جد، وأنهم متكبرون.

كما نجد في خطبة عتبة بن أبي سفيان هجاءً حادًا لعرب مصر – وكان من دهاة السياسيين وخطيبًا مفوهًا، عده الأصمعي أحد أهم إثنين من خطباء بني أمية، وذكر القلقشندي خطبته التالية في صناعة الإنشا:

(يا حاملي آلام أنوف ركبت بين أعين؛ إنما قلمت أظفاري عنكم ليلين مسي إياكم، وسألتكم صلاحكم لكم إذا كان فسادكم راجعًا عليكم، فأما إذا أبيتم إلا الطعن على الأمراء والعتب على السلف والخلفاء، فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم، فإن حسمت مستشرى دائكم وإلا فالسيف ورائكم. فكم من عظة لنا قد صمت عنها آذانكم، وزجرة منا قد محتها قلوبكم ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذا جدتم علينا بالمعصية،

---

[١٠٦] كتاب المكافأة: ابن الداية، ص ١٢٦.

ولا مؤايسًا لكم من المراجعة إلى الحسنى إن صرتم إلى التي هي أبر وأتقى)[١٠٧].

وتصوير عتبة السابق (يا حاملي آلام أنوف ركبت بـين أعين) يوحي برغبة عرب مصر الدائمة في الخـوض فـي مسائل السياسة والحكم، وكشف أفعال الولاة وانتقاد سياساتهم الجائرة، فهم لا يملون المراقبة، وإظهار المعارضة والسلطة الأموية تخص كل من لا يلزم الصمت بتقطيع السياط علـى ظهره، وإعمال السيف في رأسه.. الصمت أو الموت، كمـا يقولون.

لكن الجنود يستفزهم نهر الثروات النازح إلـى الحكـام وحاشيتهم، ويقارنون ما يحصلون عليه وما عبه الآخـرون فلا يستطيعون الصمت.

ويحكي ابن لهيعة أنه في زمن ولاية مسلمة بـن مخلـد؛ وبعد أن قسم العطاء وأعطى كل جهة ما كان مقـررًا لهـا: (فأعطى أهل الديوان عطياتهم وعطيات عيـالهم وأرزاقهـم ونوائب البلاد من الجسور وأرزاق وحمـلان القمـح إلـى الحجاز، ثم بعث إلى معاوية بستمائة ألف دينار فضل... فلما

---

[١٠٧] القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا.

نهضت الإبل لقيهم "برح بن كسحل المهري" – مـن قبيلـة يمنية – فقال ما هذا...؟ ما بال مالنا يخرج من بلادنـا ردوه فردوه، حتى وقف على المسـجد فقـال أخـذتم عطيـاتكم وأرزاقكم وعطاء عيالكم ونوائبكم، قالوا نعم، قال لا بـارك الله لهم فيه خذوه... فساروا به)[١٠٨].

والعربي اليمني لا ينظر بارتياح إلى المال المشحون إلى مكة والمدينة وعواصم القبائل العدنانية المفتخـرة بأصـولها عليه... فيقف على باب الجامع – نقطة ارتكاز العرب جميعًا مكان تجمهرهم؛ حيث كان لكل قبيلة فيه عمود ومكان يرتب حسب مكانة القبيلة أيضًا ونفوذها – محاولا تحريض العرب أصحاب العطايا الأقل، وينهي محاولته بالدعاء على العـرب المستفيدين من وضع الاستنزاف. وصيغة الملكية الطاغيـة على الحديث (ما بال مالنا يخرج من بلادنا) ملفتـة للنظـر؛ حيث كان العرب جميعًا في ذلك الحين – سواء من الشـمال أو من الجنوب – حديثي الوفود على مصر، ولم يكـن قـد مضى ثلاثون عامًا أو أكثر قليلا أثناء تلـك الواقعـة، وقـد اعتبروها بلادهم – لهم وحدهم بكل ما فيها من أرض وزرع

---

[١٠٨] ابن الداية: كتاب المكافأة، ص ١٢٦.

وماء وهواء وكنوز طبيعية وثروات ومبانٍ – كل شيء لهـم بمجرد إشهار السيف وخضوع الآخرين لهم. وحتى البشـر القاطنين أرض مصر منذ فجر التاريخ هم أيضًا جـزء مـن ملكية العرب العامة، وقد خُلقت لضمان اسـتمرار سـيلان الثروة عليهم، وانعكست تلك الرؤية العامة واليقين الراسـخ على الخطاب العربي الموجه إلى الأقباط بعد الفتح ابتداءً من تدفق أسرى القبط على مدن الجزيرة العربية، وإشارة الخليفة عمر بن الخطاب بتفضيله بقاء المصـريين فـي بلادهـم، واستخدامهم في زراعة الأرض لتعميم الانتفاع بهم.

وقد مارس الحكام العـرب صـفات السـيادة وتسـخير المصريين في شتى الأعمال الصعبة من أجل زيادة حصـة الضرائب، ومن هذا المنطلق سخر عمرو بن العـاص آلاف الفلاحين في إعادة حفر خليج تراجان أو قناة أمير المؤمنين، كما سخر عبد الله بن أبي سعد بن أبي السرح صناع مصـر لبناء الأسطول العربي، وفي العموم: كان المصريون يقومون بحفر القنوات وبناء الخطط والبيوت للسادة العرب... بينمـا يكتفي هؤلاء السادة بصفتهم الفرسـان أصـحاب السـيوف والخيول والجيوش باستهلاك الخيرات وإنفاق الثروات.

وكثيرًا ما عبر ملوك بني أمية عن العبودية الصريحة في رسائلهم إلى أمراء مصر بقولهم: (إن مصـر إنمـا دخلـت عنوة، وإنما هم عبيدنا – المصريين – نزيد عليهم كيف شئنا ونضع ما شئنا)[١٠٩].

وكثيرًا ما كانت العنجهية تذهب بهم إلى حد الرغبة فـي الاستخدام المباشر لثنائية السيادة والعبودية، وعدم الاكتفـاء بالوضع العام لقوانين عدم الاختلاط؛ كما حـدث مـع هـذا العربي الذي سخر ملاحًا قبطيًا لنقله عبر النهـر بمركبـه، وحينما طلب القبطي أجره، رفض العربـي متـذرعًا بحـق السيادة الذي يخول له استخدام المصريين دونمـا مقابـل... (لمزيد من التفاصيل، انظر؛ المقريزي وآخرين.)

وطقوس التبعية تتفاوت حدتها من زمان إلى آخر حسـب ذكاء الحاكم وقدرته على إدارة الأمور. فنجد المغالاة والتشدد أثناء ولاية حاكم، والانفراج النسبي في ولاية آخر.. على أن الميراث العام يتضح في أدبيات القرون التالية للفتح بشـكل مبالغ فيه، كما نجد في كتاب: (معـالم القربـة فـي أحكـام الحسبة)، الذي يقدم شروط دفع الجزية بأن (يقف الذمي بين

---

[١٠٩] الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ص ١٠٦.

يدي عامل الجزية ذليلا، فيلطمه المحتسب بيده على صفحة عنقه، أد الجزية يا كافر، ويخرج الذمي يده من جيبه مطبوقة على الجزية فيعطيها له بذلة وانكسار)[١١٠]. ومسـرحية أداء الجزية هذه تعكس الصورة في أشد عصور الظـلام قتامـة، وإن لم تنفذ بهذه الجهامة في أوقات أخرى كثيرة. حيث لـم يكن الحكام العرب الأوائل يهتمون بمثل هذه الطقوس الشكلية بقدر ما يهتمون بمبادئ ترسيخ السيادة العامة ومـا يترتـب عليها من أحكام مالية وعينية.

ووسط هذا الجو، كان طبيعيًا بروز سلسلة من التناقضات العنصرية بين العرب والمصريين من جهة، وبـين العـرب أنفسهم من جهة أخرى؛ طالما أنهم من فئات غير متجانسـة، وطالما أن نشأتهم الأولى زرعت فيهم الولاء القبلي الصرف، ولولا حنكة ودهاء القادة الأوائل، واستخدامهم كـل وسـائل الترغيب والترهيب لصارت الأمور في اتجاهات أخرى.

---

[١١٠] القرشي: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص ٩٩.

جدول ولاة مصر حتى سقوط الدولة الأموية

اسم الوالي	تاريخ ولايته	مدة الولاية	الأصل القبلي
عمرو بن العاص	من ٢٠ هـ/ ٢٥ هـ	خمس سنوات	بنوسهم من قريش
عبد الله بن سعد بن أبي السرح	من ٢٥ هـ/ ٣٥ هـ	عشر سنوات	قريش
محمد بن أبي حذيفة	٣٥ هـ	فترة قصيرة	قريش
قيس بن سعد بن عبادة	من ٣٥ هـ/ ٣٧ هـ	سنتين	من الخزرج
الأشتر	٣٧ هـ	لم يدخلها وتوفى على أبوابها	من نخع بن مذحج جنوبية الأصل
محمد بن أبي بكر	النصف من رمضان ٣٧ هـ	خمسة أشهر	قريش
عمرو بن العاص/ الثانية	٣٨ هـ/ ٤١ هـ	أربع سنوات	قريش
عتبة بن أبي سفيان	شوال ٤٣ هـ/ ٤٤ هـ	سنة وشهراً	قريش
عتبة بن عامر الجهني	٤٤ هـ/ ربيع أول ٤٧ هـ	سنتين وثلاثة أشهر	جهينة من الجنوب
مسلمة بن مخلد الأنصاري	٤٧ هـ/ ٦٢	خمس عشرة سنة	من الأوس والخزرج جهينة من الجنوب
سعيد بن يزيد الأزدي	٦٢ هـ	سنتين	من أهل فلسطين كهلان الجنوبية
عبد الرحمن بن جحدم	٦٤ هـ	تسعة أشهر	قريش
عبد العزيز بن مروان	٦٥ هـ/ ٨٦ هـ	عشرين سنة وعشر أشهر وثلاثة عشر يوماً	قريش
عبد الله بن عبد الملك	٨٦ هـ/ ٩٠ هـ	أربع سنوات	قريش
قرة بن شريك	٩٠ هـ/ ٩٦ هـ	ست سنوات	قيس/ عدنانية/ شمالية
عبد الملك بن رفاعة	٩٦ هـ/ ٩٩ هـ	ثلاث سنوات	قيس/ شمالية

اسم الوالي	تاريخ ولايته	مدة الولاية	الأصل القبلي
أيوب بن شرحبيل	٩٩ هـ/ ١٠١ هـ	سنتين	أصبح/ جنوبية الأصول
بشر بن صفوان	١٠١ هـ/ ١٠٢ هـ	سنة واحدة	كلب من عمران جنوبية الأصول
حنظلة بن صفوان	١٠٢ هـ/ ١٠٥ هـ	ثلاث سنوات	من عمران جنوبية الأصول
محمد بن عبد الملك	١١ شوال ١٠٥ هـ	شهر واحد	قريش
الحر بن يوسف	١٠٥ هـ/ ١٠٨ هـ	ثلاث سنوات	قريش
حفص بن الوليد	١٠٨ هـ	أسبوعين	من بني عوف من حضر موت
عبد الملك بن رفاعة	١٠٩ هـ	أسبوعين	من بني ظاعن الفهمي/ شمالية
الوليد بن رفاعة	١٠٩ هـ/ ١٧٧ هـ	تسع سنوات	الفهمي/ شمالية
عبد الرحمن بن خالد	١٧٧ هـ	سبعة أشهر وخمسة أيام	الفهمي/ من الشمال
حنظلة بن صفوان/ الثانية	١١٩/ ١٢٤ هـ	خمس سنوات	من قبيلة كلب من حميز/ جنوبية
حفص بن الوليد/ الثانية	١٢٤ هـ/ ١٢٧ هـ	ثلاث سنوات	من قيس/ شمالية
حسان بن عتاهية	١٢٧ هـ	١٦ يوماً	من تجيب/ جنوبية
حفص بن الوليد/ الثالثة	١٢٧ هـ/ ١٢٨ هـ	سنة واحدة	جنوبي
الحوثرة بن سهيل	١٢٨ هـ/ ١٣١ هـ	أربع سنوات	من قيس/ عدنانية شمالية
المغيرة بن عبيد الله	١٣١ هـ/ ١٣٢ هـ	مدة يسيرة	من الغزاري قيسية/ شمالية

اسم الوالي	تاريخ ولايته	مدة الولاية	الأصل القبلي
عبد الملك بن مروان	١٣٢ هـ	شهور قليلة	من لخم/ جنوبية الأصل تقطن الشمال

وهكذا نرى أنه منذ فتح مصر عام ٢٠ هـ إلى سنة ١٣٢هـ، عام انتقال الخلافة من بني أمية إلى العباسيين، تولى عليهما ثمانية وعشرون عاملا، تناوبوها إثنين وثلاثين مرة، لأن بعضهم كان يعزل ويعود مرة أخرى كعمرو بن العاص، حنظلة بن صفوان، وحفص بن الوليد فإنه تولى حكم مصر ثلاث مرات.

وكان من بين الثمانية والعشرين عاملا حوالي أحد عشر واليًا من قريش فقط، وثمانية ولاة من قبائل ذات أصول شمالية، وأربعة من أصول جنوبية؛ ولكنها قبائل تقطن الشام وفلسطين، وستة من أصول جنوبية صرفة؛ وهو عدد لا يتناسب مع انتماء القاعدة العريضة (الجيش) إلى هذه الأصول الجنوبية.

جدول أسماء القضاة

اسم القاضي	في عهد الوالي	الموطن القبلي
قيس بن أبي العاص بن سهم بن فهر	عمرو بن العاص	من بطون قريش
كعب بن يسار بن ضنه	رفض أن يقبل القضاء	من بطون قيس/ شمالية
عثمان بن قيس بن أبي العاص	عبد الله بن سعد بن أبي السرح	من قريش
سليم بن عتر التجيبي	كان يقص بمسجد عمرو بن العاص	من أصول جنوبية توفى ٧٥ هـ
عابس بن سعيد المرادي	مسلمة بن مخلد	من أصول جنوبية
عابس على القضاء	**ظل يتقلب على القضاء والشرط من قبل عبد العزيز بن مروان**	سنة ٤٩ إلى سنة ٦٨هـ
بشير بن النضر المزني	من قبل: عبد العزيز بن مروان	من قبائل الأزد/ جنوبية الأصل
عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني	ولاه عبد العزيز ابن مروان	من خولان/ جنوبية الأصل
مالك بن شراحيل الخولاني	من قبل عبد العزيز بن مروان	من أصول جنوبية عزل سنة ٨٤ هـ

اسم القاضي	في عهد الوالي	الموطن القبلي
يونس بن عطية ابن أوس الخصومي	كان على القضاء والشرط في عهد عبد العزيز بن مروان	من أصول حميرية حتى ٨٦ هـ
أوس بن عبد الله ابن عطة	ابن أخي السابق	من أصول حميرية/ جنوبية
عبد الرحمن بن معاوية بن حديج	على القضاء والشرط وخلافة الفسطاط	من بطون العرب الجنوبية حتى رمضان ٨٦ هـ
عمران بن عبد الرحمن الحسي	على القضاء والشرط	من بطون الجنوبية/ عزل سنة ٩٠ هـ
عبد الواحد بن عبد الرحمن بن حديج		من بطون العرب الجنوبية عزل سنة ٩٠ هـ
عبد الله بن عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني	من قبل قرة بن شريك	من أصول جنوبية حتى ٩٣ هـ
عياض بن عبيد الله الأزدي	من قبل قرة بن شريك	من أصول كهلان الجنوبية حتى ٩٧ هـ
عبد الله بن عبد الرحمن بن حجيرة	جمع القضاء وبيت المال	من أصول جنوبية حتى ٩٨ هـ
عياض بن عبيد الأزدي (الثانية)	من قبل سليمان بن عبد الملك	من أصول كهلان الجنوبية
عبد الله بن يزيد ابن جذام		من ١٠٠ إلى ١٠٥ هـ
يحيي بن ميمون الحضرمي	من قبل هشام	من أصول جنوبية
توبة بن نمر الحضرمي		من أصول جنوبية/ توفى ١٢٠ هـ

اسم القاضي	في عهد الوالي	الموطن القبلي
غوث بن سليمان/ الثانية		
عبد الله بن لهيعة الحضرمي		من أصول جنوبية
إسماعيل بن اليسع الكندي		أول كوفي يلي مصر
غوث بن/ سليمان الثالثة		٦٧/ هـ

لاحظنا سقوط اسم خير بن نعيم من جدول القضاة، وقد تولى القضاء حسبما جاء في كتاب: (الولاة والقضاء) للكندي من سنة ١٢٠ هـ إلى ١٢٧ هـ. وهو من حضرموت، وكان يتاجر في الزيت.

وتولى القضاء ثانية سنة ١٣٣ هـ، وعزل في شعبان سنة ١٣٥ هـ.

جدول رؤساء الشُرط

اسم القاضي	في عهد الوالي	الموطن القبلي
خارجة بن حذافة بن عدي	عمرو بن العاص	من بطون قريش
هشام بن كنانة بن عامر بن لؤي	ابن أبي السرح	من بطون قريش
السائب بن هشام ابن كنانة	قيس بن سعد	من قبائل مضر الشمالية ٤٩ هـ
عبد الله بن أبي حرملة البلوي	محمد بن أبي بكر	من أصول يمنية نزحت إلى حدود الشام
خارجة بن حذافة	عمرو بن العاص (الثانية)	من بطون قريش
زكريا بن جهم بن قيس العبدري	في عهد عمرو واستمر في عهد عتبة بن أبي سفيان	
السائب بن هشام ابن كنانة العامري	مسلمة بن مخلد	من مضر/ عدنانية شمالية
عابس بن سعيد المرادي	في عهد مسلمة، وعهد سعيد بن يزيد	من أصول قحطانية جنوبية
عبد الرحم بن حسان ابن عتاهية التجيبي	عبد العزيز بن مروان	من أصول جنوبية (٧٦ هـ/ ٨٤ هـ)
يونس بن عطية ابن أوى الحضرمي	عبد العزيز بن مروان	من أصول حميرية ٨٦ هـ
عبد الرحمن بن معاوية ابن حديج	عبد الله بن عبد الملك	من بطون العرب الجنوبية
عمران بن عبد الرحمن ابن شرحبيل بن حسنة	عبد الله بن عبد الملك	من مضر/ من أصول شمالية/ عزل ٨٩ هـ
عبد الأعلى بن خالد	قرة بن شريك	من أصول شمالية/ توفي ٩١ هـ

اسم القاضي	في عهد الوالي	الموطن القبلي
ابن ثابت الفهمي		
عبد الملك بن رفاعة ابن ثابت الفهمي	تولى الولاية والشرط	من بطون قيس مضرية/ شمالية
الشيخ ابن جرو الحضرمي	سليمان عبد الملك	من أصول حميرية/ جنوبية
الحارث بن ذاخر سهم الأصبحي	أيوب بن شرحبيل	من أصول حميرية/ جنوبية
الحسن بن يزيد	أيوب بن شرحبيل	من أصول جنوبية/ عجلان توفى ٩٩ هـ
شعيب بن حميد البلوي	بشر بن صفوان	من أصول يمنية
حنظلة بن صفوان	كان على الولاية والشرط	من عمران/ جنوبية الأصول
محمد بن مطير البلوي	حنظلة بن صفوان	من أصول يمنية/ عزل سنة ١٠٣ هـ
القاسم بن أبي القاسم السائي	مولى سهم	
حفص بن الوليد ابن يوسف	الحرب بن يوسف	من سبا/ جنوبية/ عزل ١٠٥ هـ
الحضرمي		من أصول حميرية
عبد الله بن أبي سمير الفهمي	الوليد بن رفاعة	
عبد الرحمن بن خالد ابن مسافر	عبد الملك بن رفاعة	من بطون قيس الشمالية
الفهمي		من بطون قيس شمالية/ مضرية

النساء يشاركن في القتال العربي/ العربي

برزت في أحداث الفتنة الكبرى أسماء بعض النساء المقيمات في مركز الحكم بالمدينة مثل نائلة بنت الفرافصة آخر زوجات عثمان بن عفان؛ الخليفة المقتول؛ ويحكى أن عثمان تزوجها وهو على مشارف الثمانين من عمره بينما كانت هي في ريعان الصبا والشباب، ويقال إنها كانت نصرانية، أو بالأحرى من قبيلة نصرانية دخلت الإسلام[١١١].

حينما دخل وفد ثائري مصر المدينة وتصاعدت الأزمة، أشارت نائلة على عثمان بأن يقبل رأي علي بن أبي طالب في إجابة مطالب الثائرين لتسكين الموقف؛ لكن يبدو أن عثمان كان مترددًا، وتسارعت الأحداث، وحاصر الثوار بيت عثمان، ومنعوا عنه الماء، ثم تسلقوا سور البيت المجاور له وانقضوا عليه يضربونه، ودافعت عنه نائلة وقُطعت أصابعها وهي تحاول حمايته من سيوفهم، ولم ينته

---

[١١١] الأب الدكتور جورج قنواتي: المسيحية والحضارة العربية، ص ٢٦٣.

دور نائلة بموت عثمان؛ بل راحت تؤجج نار الثأر للخليفـة المقتول، فخطبت في مسجد المدينة (وهي منسلبة في أطمار، معها نساء من قومها والخطبة طويلة)[١١٢].

وحينما انشغل الناس بأمر الفتنة، وتركوا الخليفة المقتـول في داره المحاصرة، أرسلت نائلة إلى قليـل مـن الرجـال ليجهزوا عثمان، فقالوا: إنا لا نقدر أن نخـرج بـه نهـارًا، وهؤلاء المصريون على الباب، فأمهلوا حتـى كـان بـين المغرب والعشاء فدخل القوم، فحيـل بيـنهم وبينـه، فقـال أبو جهم: والله لا يحول بيني وبينه أحد إلا مت دونه، احملوه إلى البقيع، فحملوه وتبعتهم نائلة بسراج فدفن الخليفـة لـيلا دون أن يتبعه أحد.

وبعثت نائلة بقميص عثمـان وإصـبعها معلـق فيـه – الخنصر – إلى معاوية بن أبي سفيان في الشام تحرضه على طلب الثأر، ولما أتى التحريض بنتائجه واشـتعلت الحـرب العربية، وامتدت إلى الأمصار، وقتل شيعة عثمـان محمـدًا ابن أبي بكر، بعثت شيعة عثمان هي الأخرى فـي مصـر بقميص محمد بن أبي بكر الذي قتل فيه إلى المدينة (فوصل

---

[١١٢] ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ٢٧.

إلى دار عثمان واجتمع رجال عثمـان ونسـاؤه وأظهـروا السرور، ولبست نائلة بنت الفراصفة القميص ورقصت بـه، وأرسلت أم حبيبة أخت معاوية بكبش شـواء إلـى عائشـة وقالت: هكذا شُوي أخوك بمصر، فحلفت ألا تأكل شواء حتى تلقى الله، ودخلت على أسماء بنت عميس أم محمد بن أبـي بكر فقيل لها – قُتل محمد بمصر وأحرق بالنار في جـوف حمار، وكانت في مصلاها فعضت شفتيها وكظمت غيظهـا فشخبت ثدياها دما)[١١٣].

ولم تكتف نائلة بأن تلبس قميص محمد بـن أبـي بكـر وترقص به؛ بل إنها حينما حج معاوية بن حديج عقب قتلـه لمحمد بن أبي بكر وإحراقه بالنار (لقيته نائلة وقبلت رجليـه وقالت شفيت نفسي من ابن الخثعمية)[١١٤].

ومثل هذه القصص تعكس طبيعة الصراع الـدائر بـين العرب، حينما تمتزج النعرات القبلية بالرغبة في الحفاظ على المكانة والسيادة، ولو كان السبب جريان بحور من الدم.

---

[١١٣] ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصـر والقـاهرة، ص ٢٧.

[١١٤] ابن ظهيرة: المصدر السابق.

وردود فعل النساء تجسد الإحساس بالشماتة والمبالغة في إعلان الفرح بمصائب الطرف الآخر من العرب المتناحرين.

وقد دخلت عائشة بنت أبي بكر زوجة النبـي المحبوبـة وأم المؤمنين دائرة الصراع، فكان دورها في هذه الأحـداث كبيرًا، وظن كثير من الناس أنها كانت من المحرضين على الثورة، خصوصا وأن ثائري الأمصار كـانوا يسـتخدمون اسمها واسم زوجات النبي الأخريات في تحـريض العامـة؛ كما كان يفعل محمد بن حذيفة في مصر.

وبعد مقتل عثمان رأت أن التهاون في القصاص للخليفـة المقتول ليس من الإسلام، كما أنه ليس مـن شـيم العـرب القاضية بالثأر.

وخرجت عائشة إلى البصرة لتنضم إلى طلحة والزبيـر، وأطماعها في الخلافة غير خافية، ضد علي بن أبي طالـب الذي كانت تحرض الناس ضده وتتهمه بحماية قتلة عثمان... ورغم أن الناس كانوا يتهمون أخاها محمد بـن أبـي بكـر بالاشتراك في قتله، كانت تصر على التحريض ضـد علـي ابن أبي طالب.

ودارت معركة شرسة بين الأقارب، (وقد كاد أصـحاب عائشة أن ينهزموا)، ولكن الجمل الذي يحمل هودج عائشـة قائم، (وفي الهودج أم المؤمنين تحرض الناس فتردهم إلـى الحماسة والجرأة)؛ حتى صاح علي في أصـحابه (اعقـروا الجمل فإن في بقائه فناء العرب)[١١٥].

وقد سميت هذه المعركة باسم "موقعة الجمل" لأهمية دور عائشة فيها، ورغم احتجابها خلف هودج مغلق علـى ظهـر جمل.. ورغم أنها لم تحمل سيفًا ولم تقتل أحدًا، إلا أنها قـد لعبت دور المحرض الأساسي – وهـي فصـيحة اللسـان واضحة البيان – وكلما تفرق الرجال خطبت من جديد، حتى لم يجد علي بدًا من تسديد الضربة نحو الهـدف المركـزي؛ وهو الجمل الحامل لهودج عائشة، الذي كان شارة وعلامـة حزب طلحة والزبير، وبسقوط الشارة تفرق الجمع وانتهـت المعركة.

وقد جسد كتاب "الفتنة الكبرى" لطه حسين أزمـة الدولـة الإسلامية الناشئة وخلافاتها الدائرة حول توزيع الثروة والجاه والنفوذ والسيادة، حتى كادت ستارة الإسلام أن تسـقط فـي

---

[١١٥] طه حسين: الفتنة الكبرى، الجزء الثاني، (علي وبنوه).

نيران العصبية القبلية وأساطير المجد والشرف العنصريين، وعاد بنو عبد مناف يقاتلون بني أمية. وبرزت بعض النسوة يحدثن ويناظرن ويرقصن طربًا لأخذ الثأر، كما في حالة نائلة بنت الفرافصة.

وتنسب بعض المصادر إلى عمرو بن العاص قوله لعائشة: (وددتُ لو مِت يوم الجمل...) وحين سألته عن السبب قال: (لنُعير بك علي بن أبي طالب وحزبه)[١١٦].

ومن المستبعد أن تصل عدم اللياقة بعمرو إلى هذا الحد، ولكننا نذكر له موقفًا آخر حين عزله عثمان بن عفان عن ولاية مصر، فيقال إنه على إثر ذلك طلق زوجته أم كلثوم بنت عقبة؛ وهي أخت عثمان من الرضاعة، وكان عمرو قد تزوجها فيما يشبه الزواج السياسي بعد وفاة زوجيها السابقين. وعاشت أم كلثوم ما بقي لها من حياة بعيدًا عن الانغماس في الخلافات الدائرة.

وظهر اسم امرأة أخرى في تلك الأحداث، وهي فاختة بنت قريظة؛ زوجة معاوية بن أبي سفيان، ويحكى أنها كانت تصنع طعامًا لمحمد بن أبي حذيفة – عدو زوجها اللدود –

---

[١١٦] ابن المبرد: الكامل، ص ٢٦٧.

وترسله إليه في السجن الذي حبسه فيه معاوية بالشام. وذات يوم بعثت له مبارد مخبأة في الطعام، (فبرد بها قيوده وهرب فاختفى في غار فأُخذَ وقُتل). ولم تشفع له قرابته من زوجـة معاوية بن أبي سفيان، فأسرع بالقبض عليه ثانية وقتله[١١٧].

وهكذا شاركت بعض النساء في الصراع العربي الدامي، وانتصرن للصراعات القبلية الحادة.. وخلفهن كانت القاعـدة العريضة من النساء تتوارى خلف أستار الحريم، وينتظـرن الرجال المتقاتلين العائدين بالغنائم وخيرات البلاد المفتوحة.

* * * * *

ولكن ماذا عن وضع المرأة المصرية بعـد الفـتح العربـي لمصر..؟ هل شاركت هي الأخرى في الأحداث، أم اكتفت بالعمل مع أقرانها من الرجال في أعمال الزراعة والصناعات المختلفـة من أجل توليد الثروة للحاكمين الجدد...؟

إن الكتابة عن وضعها تبدو دربًا من المستحيل وسط هذا الركام الهائل من المصادر التاريخية النافيـة للنسـاء؛ بـل والنافية لوجود الشعب المصري نفسه حينذاك.

---

[١١٧] شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري: نهايـة الأرب فـي فنون الأدب، الجزء العشرون، ص ٢٤٣.

حال قبط مصر

وإذا كانت هذه هي حياة الصـفوة العربيـة الحاكمـة – الأشراف كما يحلو لهم أن يسموا أنفسهم – بعد أن أزاحـوا الرومان عن مقاعد السلطة، واتخـذوا أمـاكنهم، وتركـوا قوانينهم في الدواوين ونظام المحاسبة سارية كما هي.

فكيف كانت حياة الشعب المحكوم المنزوي دائمًا في خلفية الصورة، حيث إن مصر لم تكن أرضًا منبسطة بلا شـعب، فتحها عمرو بن العاص من الشمال إلـى الجنـوب، ومـن الشرق إلى الغرب، واستولى علـى كـل مـدنها وقراهـا وسواحلها فـي نزهـة بسـيطة تحـت رايـة الإسـلام... أم أن شعبها استقبل الجيش العربي بالترحيـب والأحضـان؛ كما يحلو للبعض أن يصور الأمر في تبسيط مخل وصـور زائفة.

والملفت للنظر أن استقراء أحداث الفتح العربي من خلال مصادر التاريخ العربي: "كتب التراث" – يغفل وجود الشعب القبطي، أو يأتي به في مواضـع عـابرة؛ كـدافع للجزيـة وللخراج أساسًا، أي كممول خفي لحياة الصفوة التي تعـيش بسيوفها ورماحها.

فهي مصادر تقدم وجهة نظر الفاتح العربـي للمشـغول بنفسه دائمًا، والحريص على إظهار صورته المعتدلـة فـي الحكم، وتكرار تلك الصورة وإعادة إنتاجها طـوال الوقـت ورفعها إلى مصاف الحقائق المطلقة... بينما تضـمر بفعـل الإهمال والاضطهاد وجهة النظر الأخرى، ووجهـة نظـر الشعب القبطي، فيطويها النسيان وكأنها لم تكن هنالك أبدًا... ونبش الذاكرة لإيجاد ما ضاع ليس سهلا – وإن كان ممكنًـا بالتنقيب بين طيات المراجع البالغة الندرة.

وبين أيدينا مؤرخ قبطي عاش في أواخر القـرن السـابع الميلادي وبداية القرن الثامن الميلادي، وأشارت المصـادر القديمة إلى أنه كان في سنة (٦٩٨ م) شيخًا كبيرًا، فعاصـر في شبابه ونضجه أحداث الفتح ورآها رؤى العين، وسـجلها في مخطوطته الحاملة لاسمه.

وتتكون مخطوطة "يوحنا النقيوسي" مـن (مائـة وإثنـين وعشرين بابًا، وقد حظيت مصر بأكبر قـدر مـن اهتمـام المؤلف، حيث لم يترك فرصة يتحـدث فيهـا عـن مصـر إلا انتهزها... وقد حظيت فترة الفتح بالفصل الأخيـر مـن

المخطوطة)[١١٨]، التي تعالج أحداث العالم منذ الخليقة حتـى الفتح العربي الإسلامي لمصر.

إنه صوت وحيد للشعب القبطي المنـزوي فـي خلفيـة الصورة، كتب عما رآه ولمسه قبل أن تمتد أيدي الرواة إلى التاريخ وتقطعه حسب الهوى الشخصي والسياسـي، وهـو يفوق من حيث الأسبقية مصادر التاريخ العربي.

ويوحنا النقيوسي ليس قبطًا عاديا؛ بل هو رجل من رجال الكنيسة شغل منصب أسقف مدينة نقيوس.

وكان (أحد أهم إثنين من الأساقفة في مصر، وعين فـي عهد البابا يوحنا الثالث رئيسًا لأساقفة مصر السـفلى)، ثـم المسؤول عن تدبير أديرة وادي هبيب (وهو وادي النطرون ويعرف ببرية شيهات، وببرية الأسقط، وبميزان القلوب، فإنه كان بها في القديم مائة دير ثم صارت سبعة ممتدة غربًا على جانب البرية القاطعة بين بلاد البحيرة والفيوم، وهـي فـي رمال منقطعة وسباخ مالحة وبرار منقطعة معطشـة وقفـار مهلكة، وشراب أهلها من حفائر، وتحمل النصـارى إلـيهم النذور والقرابين وقد تلاشت في هذا الوقـت بعـدما ذكـر

---

[١١٨] عمر صابر: مصر في مخطوطة يوحنا النقيوسي.

مؤرخو النصارى أنه خرج إلى عمرو بن العاص من هـذه الأديرة سبعون ألف راهب بيد كل واحد عكاز فسلموا عليـه وأنه كتب لهم كتابًا هو عندهم)[١١٩].

وقد ظلت مخطوطة يوحنا النقيوسي مجهولـة للدارسـين العرب فترة طويلة[١٢٠]، بينما كان يجري الاستشهاد به فـي الدراسات الغربية، خصوصًا وأن النقيوسي كان قـد كتـب كتابه باللغة القبطية، ثـم تُـرجم إلـى اليونانيـة والعربيـة والأثيوبية.. ولظروف مجهولة فُقدت النسخ اليونانية والعربية والقبطية، ولم تبق إلا النسخة الأثيوبيـة محفوظـة بمكتبـة الكنسية بأثيوبيا حتى قـام الـدكتور (M. H. Zotenberg) بتقديمها مع ترجمة فرنسية لهـا. وظلـت موضـع بحـث واستشهاد الغرب؛ حتى ذكرها المؤرخ المصري المعـروف عبد الرحمن الرافعي نقلا عن (زوتنبرج).

---

(١١٩) المقريزي: المواعظ والاعتبار، الجزء الثاني، ص ٥٠٨.

(١٢٠) مازالت المخطوطة حتى الآن لا تجـد إلا التـراب والعنكبـوت أصدقاء لوحدتها في مخازن جامعة القـاهرة المعتمـة الرطبـة... ضمن دراسة الدكتوراة الشائقة للدكتور عمر صابر.

وتتالت الاستشهادات، إلا أنها تأتي عابرة ومبتسرة؛ حيث يقطع كل باحث من النص الأصلي ما يوافق هواه، فلا يبقى من المخطوطة في دراساتهم سوى جمل تُنتزع من سياقها مع تجاهل روح المخطوطة وجوها العام.

وسيدة إسماعيل الكاشف – على سبيل المثـال – تـذكر النقيوسي كمادح لسماحة جيش الفتح العربي لمصر، بعـد أن اقتطعت فقرة واحدة تؤكد أن عمرا لم يمس ممتلكات الكنيسة وأنه ترك لها حرية العبادة على عكس كل ما سـبق ذلـك، وما تلاه.

أما (جاك تاجر) فيرى أن يوحنا اهتم بالشكوى من العرب (أكثر من ذكر الأعمال التي تشرف الفاتح فيطلعنا في تاريخه على سيئات الفتح)[١٢١]. بينما قراءة الفصـل رقـم (١٢٢) كاملا من المخطوطة تطلعنا على تفاصيل المعارك الحربيـة وحال الجيش الروماني أثناء الغزو، وكيفية سيطرة الجـيش العربي على المواقع والبلاد. ومقاومة بعض المدن واستسلام البعض الآخر... فيرسم صورة حية يغلفهـا إطـار سـميك

---

[١٢١] جاك تاجر: أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عـام ١٩٢٢، كراسات التاريخ المصري ١٩٥١.

من الحزن على القرى المقاومة وما لاقته من أهـوال علـى يد الجيش العربي.

ومن القراءة الأولى للمخطوطة نلاحظ عـداء النقيوسـي للجانب العربي من جهـة، ويسـميهم بالإسـماعيليين مـرة وبالمسلمين مرة أخرى، ويظهر عداءه للجانـب الرومـاني من جهة أخرى، ويسمى أولئك وهـؤلاء أعـداء المسـيح، أما الأقباط فهم وحدهم أصحاب العقيدة الحقـة مـن وجهـة نظره. ويتمنى النقيوسي أن ينزل الله عقابـه الشـديد علـى الجيش العربي وقادته بسبب كل ما فعلوه بالمصريين، مثلمـا فعل الرب بفرعون موسى حينما (أغرقه في البحر الأحمـر مع كل جيشه بعد كثير من العقوبات التي عاقبهم بهـا مـن الإنسان حتى الحيوان، ولما كـان حكـم الله علـى هـؤلاء الإسماعيليين فقد صنع بهم كما صنع بفرعون)[١٢٢].

وفي ذات الوقت لا يخفي فرحة لم نزل بالرومـان مـن هزيمة وقتل، ويذكر فرحًا أنه عقاب السماء الذي حلّ عليهم بسبب كل ما أنزلوه بالقبط من العـذاب الشـديد، ويسـمى

---

[١٢٢] يوحنا النقيوسي: المخطوطة.

الرومان بالنجسين في بعض المواضع، وبأعـداء المسـيح، أو أعداء العقيدة الحقة في مواضع أخرى.

فالنقيوسي صوت قبطي صرف، يـرى ظلـم الرومـان وقسوتهم من جهة، وضراوة العرب وشدتهم من جهة أخرى، ويتابع سير المعارك بين الجانبين بهـذه العـين المصـرية الخالصة، وسرعان ما ينتابه الأسى لما يحل بشعبه القبطـي على أيدي الجانبين.

ويذكر النقيوسي في مخطوطته أحد أهم أسـباب هزيمـة الرومان، وانتصار العرب عليهم، وهو سبب انتشار عوامـل الانحلال داخل المعسكر الروماني، وتناحر قادته ومكائـدهم؛ بعضهم لبعض، كأثر من آثار اختلافات المركز فـي بـلاط هرقل؛ الإمبراطور الروماني المـريض والمشـرف علـى الموت، وصراع زوجته الثانية نيابة عن ابنها ضـد الإبـن الآخر لهرقل من زوجته الأولى، وانقسـام رجـال الـبلاط بينهما... وخزانة الدولة خاوية من كثرة نهب كـل فريـق، وخصوصًا بعد سلسلة الهزائم التي حلت بالإمبراطورية أمام الهجوم الفارسي من الشرق، والهجوم السلافي في الشمال.

وقد انعكست كل هذه الخلافات على وضع الرومان في مصر؛ حيث (لم يكن هناك جيش بيزنطي موحد أثناء الفتح العربي لمصر، بل وحدات متفرقة في الأقاليم بمقتضى سياسة جستنيان القاضية بتقطيع أوصال وحدة مصر ومنح جميع الحكام سلطة متسقة، روعى فيها التطابق؛ فكل واحد منهم كان يفكر في منطقة نفوذه فقط)[١٢٣]. (وخصوصًا بعد ما طرد الرومان الفرس من مصر واكتفوا بوضع حاميات عسكرية في الوجه البحري).

ويذكر النقيوسي أن الرومان كانوا منقسمين على أنفسهم، وأنه (كان هناك نزاع كبير بين الرئيس تيودور والسادة)[١٢٤]؛ مما يفسر فرار بعض القادة المحليين أمام جيش المسلمين وانضمام آخرين إلى جيش عمرو خوفًا من بطش الحاكم العسكري الروماني "تيودور".

لقد غزا عمرو بن العاص المعسكر الروماني في لحظة ضعف عاتية، ويبدو أن عمرا كان ملمًا بتلك الأحوال عن طريق (أدلاء الشام)، مما يفسر رغبته في الإسراع بغزو

---

(١٢٣) سيرها رولدبل: تاريخ مصر الهيلينية.

(١٢٤) مخطوطة يوحنا النقيوسي.

مصر بعد ما ألم بالرومان من هـزائم فـي الشـام، وقبـل أن يفيقوا من آثار الصدمة الأولى.

وإذا حاولنا تجميع مفردات الصورة العامة كما جاءت في مخطوطة "يوحنا النقيوسي"، سنلاحظ تقهقر الجنود الرومـان ووحداتهم العسكرية تباعًا من الشرق إلى الغرب، أو مناطق الحصون عند رأس الدلتا وغربها، فيقول: (سار المسـلمون إلى الصحراء، وأخذوا الكثير من الخـراف والظبـاء مـن الجبل، ولم يعرف أهل مصر هذا)[١٢٥].

فهو لا يذكر هنا المواقع الحربية التي دارت في الشـمال الشرقي مثل معركة الفرما أو معركـة بلبـيس أو غيرهمـا من المواقع التي أفاض المؤرخون الآخرون فـي ذكرهـا – لمزيد من التفاصيل انظر؛ هامش سير المعارك الحربية[١٢٦]،

---

[١٢٥] النقوسي: المصدر السابق.

[١٢٦] هامش سير المعارك الحربية حسب توقعات بعض المؤرخين:

أ ـ حسب رواية البلاذري في كتاب فتوح البلدان:

سار جيش عمرو بن العاص من العريش إلـى الفرمـا إلـى اليونـه (بابليون) أو الفسطاط ومنها وجه جيشًا إلى عين شمس بقيادة عبـد الله بن حذافه السهمي، وآخر إلى الفيوم والأشمونيين بقيادة خارجة =

=

بن حذافة العدوي، وثالث إلى تنيس ودمياط وتونة ودميرة وشـطا ودقهلة وبنا وبوصيرة بقيادة عمير بن وهب الجمحي، ورابع إلـى سائر قرى أسفل الأرض بقيادة عقبة بن الجهمني.

ب ـ حسب رواية ابن تغري بردي الأتابكي، المأخوذ عن ابـن عبـد الحكم (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) فسار جيش عمرو إلى رفح، ومنها إلى العريش، ثم إلى الفرما، وهـي أول موضـع قاتلته فيه الروم قتالا شديدًا نحوًا من شهر. =

= والفرما هي مدينة عتيقة على ساحل بحر الروم، وهي الآن خراب، وهي على جانب بحيرة تنيس مما يلي الشرق.

ثم مضى إلى القياصر، ومنها إلى بلبيس وفيها قاتل نحوًا من شهر حتى فتح الله عليه ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دنين (كانت تطلق قبل الإسلام على المقس وكانت واقعة علـى النيـل، ويقع فيها الآن جامع أولاد عناني وشارع كامل وحديقة الأزبكيـة) فقاتلوا من بها قتالا شديدًا، وأبطأ عليه الفتح فطلب مددًا من الخليفة عمر بن الخطاب... وظل حصار بابليون سبعة أشهر حتى سـقط في أيدي الجيش العربي.

ج ـ في كتاب (الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقـاهرة) لابـن ظهيرة نجد نفس خط سير القتال.

في معجم البلدان لياقوت الحموي:

الفرما قتال نحو شهرين

=

=

بلبيس قتال نحو شهر

أم دنين وهي المقس شهرين

حصن بابليون سبعة أشهر

هـ - سير عمرو بن العاص حسب ما ذكر حسن إبراهيم حسن:

من البقعة الريفية بالملح التي تحيط بالفرما مر عمـرو وعلـى أرض مفروشة بقشور الصدف البيضاء التي استحالت إلى رمـال حتـى وصل إلى مجدل نحو الجنوب والغرب، ومـن ثـم إلـى الجهـة المعروفة الآن بالقنطرة على قناة السويس؛ حيث يتغطى سطح تلك الأرض الصحراوية بحصى كثير صلب، وفي خلالها بقـع أرض خضراء وبعض مستنقعات ملحة ينمو على جوانبها القصب، ثم أخذ في السير إلى الصالحة والقصاصين ومن ثم اتجه منحرفًـا نحـو الجنوب مجتازًا تلال وادي الطميلات (رأس الوادي) على مقربـة من التل الكبير الآن وقريبًا من بلبيس.

وقد اتخذ معظم الفاتحين الأقدمين طريقًا غير هذا مثل قمبيز الذي سار من الفرما متجهًا نحو الغرب إلى سنهور وتنيس (صان) ومن ثـم إلى بلبيس ولكن في هذا الوقت – أي حـين الفـتح الإسـلامي – انتشرت المستنقعات حول بحيرة المنزلة بحيث جعلت هذا الطريق على عمرو أشق مما كان على غيره؛ إذا لم يكن لدى عمرو وجنده من الوسائل ما يكفل لهم إقامة القناطرة والجسور.

=

=

و - أما سير القتال حسب تصور د. حسين مؤنس في أطلس تـاريخ الفتح الإسلامي: من غزة إلى رفح وسار فـي الطريـق الشـمالي القريب من البحر، فدخل ثم مر بالعريش ومـر ببئـر المسـاعيد ورؤوس الأدراب وبئر العبد وقطيا ثم انتهى إلى الفرما؛ وهي ميناء صغير على البحر يسمى عند الـروم Polusium وكـان يصـب بقربها فرع من فروع دلتا النيل يسمى الفرع البلوزي.

ومن الفرما اتجه جنوبًا حتى قرة مجدل Migol قرب الفرما ثـم مـر بمكان قرية القنطرة ثم إلى مكـان الصـالحية ووادي الطمـيلات. وعندما وصل عمرو بلبيس وجد بها جمعًا من الروم يقودهم قائـد يسمى Arteon وقد سماه العرب الأرطبون، فاستولى عليها العرب بعد قتال نحو شهر.

ومن بلبيس اتجه عمرو إلى رأس الدلتا، فوصل إلى قرية تسـمى تنـد ونياس ويسميها العرب أم دنين واستولى عليها.

أما رأس الدلتا فكان في جنوبها حصن للروم يسمى حصن بـابليون أو باب اليون، جعل الروم فيه حامية كبيرة لحكم البلاد وضمان طاعة أهلها وصد أي عادية تكون على مصر من الشرق. وكان الروم قد حصنوا هذا الموقع بعد أن أخرجوا الفرس من مصر والشام؛ قبـل الفتح العربي بقليل. وكانت المنطقة المحيطة بالحصن ومنـه إلـى رأس الدلتا تسمى كلها مدينة مصر، وهي منطقة مزارع من قـرى وحدائق، وحاصر العرب حصن بابليون (وبعد مجيء المدد) كـان

=

=

اللقاء عند هيليوبوليس وانتصر العرب، ولجأ الروم إلـى بـابليون فتحصنوا به، وعاد المسلمون يحاصرونه، وبعد صلح بابليون قرر عمرو المسير إلى الإسكندرية؛ قاعدة مصر البيزنطية...

وسار إلى الإسكندرية محاذيًا فرع رشيد الذي يسمى الفرع البـوليتيني نسبة إلى رشيد، وكان اسمها Paulatina وفتح عمرو في طريقـه طرنوط ثم نقيوس، ثم سلطيس ثم الكربون وكلهـا كانـت مراكـز لجاليات رومية حاولت مقاومة العرب. وكان تيـودور = = قائـد الحامية الرومية تحصن في الكربون ثم انهزم بالإسكندرية وتحصن بأسوارها وكتب إلى هرقل، واستمر حصار الإسكندرية أربعة أشهر حتى قلق عمر بن الخطاب وكتب إلى عمرو، فقرر عمرو اقتحـام أسوار البلد وعهد إلى عبادة بن الصامت في ذلك فنجح فيه واقتحم الإسكندرية بجنده...

وفي أثناء حصار الإسكندرية كانت بعض نواحي مصر قـد حاولـت الوقوف في وجه المسلمين في الفيوم وأعلى الأرض وشمال وغرب الدلتا، فوجه عمرو خارجة ابن حذافة السهمي في قوة إلى شـمال غرب الدلتا فحارب البشرودات؛ أي أهل الشرود وهم أهل منطقـة المنزلة – مع ملاحظة أن المنزلة شمال شرق الدلتا وليس غربهـا كما يقول حسين مؤنس.

ووجه عمير بن وهب الجمحي إلى نواحي تنيس ودمياط وتونة ودميرة وشطا ودقهلة وبناوبوصير فقضى على مقاومتها. وكانت في الفيوم

=

=

قوة رومية يقودها رجل يسمى دومنينيا نوس فحاول التقـدم نحـو الفسطاط، ولكن القائد العربي عقبة بن عامر تصدى لـه وهزمـه. وتولى عقبة بن عامر القضاء على كل مقاومة في الصعيد.

غزة ← رفح ← العـريش ← الفرمـا ← بلبـيس، الصـالحية ← نقيـوس عـين شـمس ← أم دنـين ← بابليون ← الجيزة عبر النهر حلوان ← تزمنت الفيوم أهناسيا دلاص البهنا

وفي النهاية يمكن أن نميز ثلاثة خطوط حربية: ١- خط جيش عمرو الرئيسي القادم من الشام إلى الفرما إلى بلبيس، وعند بلبيس تفرع منه جيش بقيادة سمالوط إلى بقية الصعيد حتى النوبة.=

* * * * *

وبمقارنة سير المعارك لدى يوحنـا النقيوسـي والمـؤرخين العرب القدامى والمحدثين نلاحظ أن النقيوسي لم يـذكر المعـارك الشرقية وأن اهتمامه بالتفاصيل ينحصر في الدلتا والشمال الغربـي حتى الإسكندرية، وربما تكون بعض الأوراق قـد ضـاعت مـن مخطوطة النقيوسي، وربما لم يبدأ اهتمامه بالتفاصيل إلا مع اقتراب الخطر العربي من المناطق المحيطة به والقريبة منه.. مع ملاحظة أنه لم يكن هناك جيش بيزنطي موحد أثناء الفتح العربي لمصر؛ بل وحدات متفرقة مع الأقاليم بمقتضى سياسة جستنيان القاضية بتقطيع أوصال وحدة مصر، ومنح جميع الحكام سلطة متسقة روعى فيهـا =

كما نلاحظ إشارته إلى تفكك الجيش الروماني، وبطء وصول المعلومات، أو إشارته لعنصـر المفاجـأة؛ حيـث يقـول: (لم يعرف أهل مصر هذا).

وسمع تاودسيوس الحاكم – وهو سماع متأخر فـي هـذا السياق وغريب في ذات الوقت نظرًا لاستمرار اقتحام الجيش العربي مدن الشام وسقوطها تباعًا حتى حدود مصر الشرقية سمع تاودسيوس الحاكم بمجيء الإسماعيليين، وكـان يسـير من مكان إلى مكان ليرى ما سيكون من هـؤلاء الأعـداء. (وجاء هؤلاء الإسماعيليون وقتلوا رئيس الجند وكل من معه دون رحمة. وفي الحال فتحوا المدينة، وعندما شاع الخبـر فر بعض القادة إلى حصن نابليون)[١٢٧].

=

التطابق، فكل واحد منهم كان يفكر في منطقة نفوذه فقط، كما يقول سير هارولدبل في كتاب الهلينية في مصر.

[١٢٧] النقيوسي.

من كتاب أطلس تاريخ الإسلام

د. حسين مؤنس

ويشير النقيوسي إلى مواطن تركز الجيش الروماني في رأس الدلتا وغربها، حينما يذكر حصن بابليون الذي فر إليه القادة، ومسلحة نقيوس التي تراجع إليها الجند، ثم يذكر معارك "أون" عين شمس وطلب عمرو بن العاص من الخليفة أن يمده بمزيد من القوات، ويذكر تقسيم عمرو للجيش إلى ثلاثة أقسام: قسم عند طندونباس، وقسم عند شمال بابليون، وقسم عند أون عين شمس. وانتصر العرب في المعركة، واستولوا على طندونباس، وتقهقر الرومان بعضهم إلى بابليون وبعضهم إلى مسلحة نقيوس.

ومع كل هزيمة كانت النزاعات تتسع بين القادة الرومان، وحتى دمنديانوس الذي كانت وحدته العسكرية تمثل نقطة مقاومة رومانية ضد العرب في الفيوم، (وبويط هرب ليلا "وسار بالسفينة إلى نقيوس" وعندما عرف المسلمون أن دمنديانوس هرب – ساروا في ابتهاج واستولوا على مدينة فيوم وبويط وأراقوا بها دمًا غزيرًا)[١٢٨].

---

[١٢٨] النقيوسي: المصدر السابق.

وبدأ عمرو بن العاص يثبت أقدامه ويطلب مـن بعـض حكام المدن مساعدته، فطلب من أباكيري فـي مدينـة دلاس أطفيح ببني سويف أن يمده بسفن الريف لتنقله إلـى شـرق النهر، كما طلب من جيورجيس وإلى المقاطعة أن يشيد لـه قنطرة عند النهر بمدينة قليوب ليستولى على كل مدن مصر ومدينة أتريب – ناحية بنها – منـوف وجميـع ضـواحيها، في ذات الوقت الذي كان يعسكر في بابليون، وقبض عمـرو على كل من يخالفه من حكـام الرومـان: (وكبـل أيـديهم وأرجلهم بأغلال الحديد والخشب ونهب أموالا كثيرة بعنف، وضاعف فرض الضرائب على العمـال وكـان يسـخرهم ليحملوا طعام أفراسهم، وارتكب آثامًا كثيرة لا تحصى)[١٢٩].

وهنا حدث ذعر عام في مصر، وكان الرومـان يفـرون من المدن الأخرى ليتحصنوا في الإسكندرية قبل أن يدركهم عمرو (يهربون ويلجأون إلى مدينة إسكندرية، وهجروا كـل أموالهم وخزائنهم وحيواناتهم)[١٣٠].

---

[١٢٩] النقيوسي: المصدر السابق.

[١٣٠] النقيوسي: المصدر السابق.

وفي مقاطعة أخرى عند مدينة سمنود رأى الرومان هناك ضرورة قتال الجيش العربي، في ذات الوقت الذي كان القائد العسكري للرومان يحاول رأب صدع الخلافات بين رجاله المتناحرين، وظل عمرو يحارب المسيحيين الذين كانوا في شمال مصر ولم يستطع فتح مدنهم.

ويذكر النقيوسي المواطن التي قاوم أهلها الجيش العربي مثل سخا – كفر الشيخ غربية – ونوخود من أعمال البحيرة، و(مصاي) من أعمال البحيرة أيضًا، ودمياط، بالإضافة إلى مدن الشمال. وعودة عمرو دون تحقيق النصر عليهم إلى جنوده في بابليون (وأمرهم أن يمهدوا طريقًا من حصن بابليون حتى يصلوا به إلى المدينة ذات النهرين – رشيد – ليحرقها)[١٣١] وحدث ذعر عام نتيجة تلك المحرقة الكبيرة. وسار المسلمون إلى مدن أخرى ليحاربوها، وأرسل قليلا من المسلمين إلى مدينة (أنصنا) مدينة مارية القبطية (وتشاور أهل المدينة مع يوحنا رئيسهم في أن يحاربوا المسلمين فأبى ونهض بسرعة مع جنوده. وجمع كل مال للضرائب من

---

[١٣١] النقيوسي: المصدر السابق.

المدينة)[١٣٢]. وهرب إلى الإسكندرية، وخضع أهل المدينـة للعرب وقدموا لهم الضرائب، وكره سكان البلاد من القـبط الروم الذين تركوهم مكشوفي الظهر وهربوا بعد أن سـرقوا الأموال، ولذلك راح الناس يقتلون من يجدوا من جنود الروم أمامهم.

ومات هرقل في ظل كل هذه الهزائم. وسلّم حصن بابليون بعد أن أخذت حامية الحصن (قليلا من الـذهب وسـاروا)، وبعد أن عذّبوا الأقباط الذين كانوا يسجنونهم، وقطعوا أيديهم قبل أن يرحلوا.

وهرب حاكم (أباديا) إلى الإسكندرية تاركًا جنـوده نهبًـا للذعر والقتل. ودخل الجيش العربي مدينة نقيـوس (مكـان الكوم الأثري الجهة البحرية من سكن زاوية رزين بمركـز منوف)[١٣٣]، ويقول البعض: إنها قرية شبشير الآن، أو قرية أبشادي مركز تلا منوفية.

ثم يذكر (النقيوسي) الخلافات الدائرة بين الحكام الرومان في الوجه البحري، وانقسامهم إلى قسمين: قسم انضـم إلـى

---

[١٣٢] النقيوسي: المصدر السابق.

[١٣٣] محمد رمزي: القاموس الجغرافي.

جانب المقاومة بقيادة تيودور الحاكم العسكري، وقسم أراد أن ينضم إلى المسلمين.

وبعد استيلاء العـرب علـى كريـون الواقعـة جنـوب الإسكندرية، ظهر كيرس البابا الخلقيدوني – أو المقـوقس – وعقد اتفاقية التسليم وأداء الجزية، (واستولى المسلمون على كل بلاد مصر جنوبًا وشمالا وضـاعفوا علـيهم فريضـة الضرائب ثلاثة أمثال)[١٣٤].

وهكذا نرى في مخطوطة النقيوسي: فقدان الثقة، والفرار ليلا، والاحتماء بالحصون دون البروز فـي المعـارك، ثـم الفرار من موقع سقط إلى موقع آخر لم يسقط بعد... وكلهـا من أهم السمات الغالبة على الجيش الروماني. ويمكن تقسيم قادة الجيش الروماني إلى قسمين:

- المتعاونون مع العرب مثل: أحد رجـال (أرميـاس)، وقد دل العرب على مكان اختباء يوحنا الحاكم في الحظـائر والمزارع.

وأباكيري حاكم مدينة دلاس (أطفيح)، وقد أمـد عمـرو ابن العاص بسفن الريف.

---

[١٣٤] النقيوسي: المصدر السابق.

وجيورجيس الوالي، وقد شيد لعمرو قنطرةً عنـد النهـر بمدينة قليوب، وكروديس وغيرهم.

- بالإضافة إلى القادة المتذبذبين بين التعاون والندم على التعاون، مثل: كلادجي وسبنديس، وكلاهما كان مضارًا مـن عنف رؤسائه في الجيش الروماني، فانضم إلى العرب نكاية فهيم من جانب، ورغبة في تأمين النفس من جانب آخر.. ثم ندما وعادا إلى صفوف الرومان، وعاد سبنديس إلى مدينـة الإسكندرية (معترفًا بخطئه لدى السادة مع غزير الدموع).

وسوف نجد أيضًا في مخطوطة يوحنا النقيوسي صـورة ساخرة للقادة الهاربين، مثل تاودسيوس وأنسطاسيوس الـذين تركا البهنسا (قرب واحة سيوة) بعد سماعهما لقصـة قتـل يوحنا الحاكم ورميه في البحر، فتوجها في الحال إلى حصن بابليون، وبقيا هناك.

ولمنديوس الذي كان بمدينة فيوم، وسـمع أن محـاربي الإسلام قد استولوا على مدينة صندونباس وأفنوا ما بها مـن الجنود (ولم يبق بها سوى ٣٠٠ جندي) فـنهض لمنـديوس (ليلا دون أن يخبر أهل بويط بأنه سيهرب من الإسلام وسار بالسفينة إلى نقيوس).

ومنديوس حاكم أباديا الذي (هرب بالسفينة وترك الجنـود مع سفنهم... ولما رأى الجنود أن حاكمهم فر، تركوا عـدة حربهم ونزلوا في البحر أمام أعدائهم فقتلهم جنود المسـلمين بالسيف في البحر ولم ينج منهم سوى رجل واحد فقط اسـمه زكريا، وهو قوي محارب)[١٣٥].

وفي العموم، اتجهت حركة الهرب إلى ثلاثة مواقع – في مخطوطة النقيوسي – من الشرق إلى حصن بابليون، ومـن حصن بابليون إلى حصن نقيوس (مركز منوف أو المنوفية)، ومنه إلى حصون الإسكندرية. وبعد ذلك كان الهروب الكبير بالأموال والذهب والمنقولات إلى القسـطنطينية. وبخـلاف هؤلاء كانت هناك أعداد غفيرة لم يسعفهم الفرار، فحصدتهم السيوف العربية، أو أكلتهم نيران المحارق الواسعة.

وفي خلفية الصورة سنجد جموعًا غفيرة من المصريين – القبط وغيرهم – في القرى والمدن، كـانوا ينتظـرون فـي البداية تصدي الجيش الروماني للجيش الإسـلامي (ليتلاقـوا لقتال الإسماعيليين قبل أن يرتفع ماء النهر ويكـون وقـت

---

[١٣٥] النقيوسي: المصدر السابق.

الزرع فلا يستطيعوا الحرب، لئلا يتلف زرعهم فيموتوا جوعًا مع صغارهم وحيواناتهم)[١٣٦].

ولكن كثرة الهزائم التي حلت بالرومان، وكثرة القتل والنهب التي أحدثها الجيش العربي، خلقت حالة من الفوضى والذعر؛ (خوف عظيم في كل مدن مصر).

والمدن التي شرعت في المقاومة؛ كان عمرو بن العاص ينشب النار في أسوارها وبيوتها وطرقها وزروعها، مثلما فعل بمدينة دمياط التي (لم ترض عنه) والمدينة ذات النهرين، وغيرهما.

وأحيانًا أخرى، كان قتل من يقف في طريق الجيش العربي من المدنيين وسيلة الجيش الإسلامي في الاستيلاء، كما حدث عندما دخلوا مدينة (نقيوس واحتلوها ولم يجدوا (أحدًا من المحاربين وكانوا يقتلون كل من وجدوه في الطريق وفي الكنائس، رجالا وأطفالا ولم يشفقوا على أحد)[١٣٧].

---

[١٣٦] النقيوسي: المصدر السابق.

[١٣٧] النقيوسي: المصدر السابق.

(ونهبوا كثيرًا من الأسلاب وأسـروا النسـاء والأطفـال وتقاسموهم فيما بينهم وجعلوا هذه – يقصد مدينة نقيـوس – فقيرة)[١٣٨].

ويبدو أن ما حدث فيها كان أكبر من الوصف، حتـى أن النقيوسي يطالبنا بأن (نصمت الآن، فإنه لا يستطاع الحـديث عن الإساءات التي عملها المسلمون حـين اسـتولوا علـى جزيرة نقيوس)[١٣٩].

وبعد وصوله إلى الإسكندرية (هدم بيـوت السـكندريين الذين هربوا، وأخذ أخشابها وحديدها، وأمر أن يمهدوا طريقًا من حصن بابليون حتى يصلوا به إلى المدينة ذات النهـرين ليحرق هذه المدينة بالنار)[١٤٠].

ويشير يوحنا النقيوسي إلى أن الجمهور المصري لم يأخذ وضع المتفرج الساكن السلبي، أو الفار المذعور دائمًا أمـام الاجتياح العربي – رغم أنه أعزل؛ بل كان نـواة المقاومـة في هذه المدن، التـي كـان الحـرق جـزاءً لمقاومتهـا –

---

(١٣٨) النقيوسي: المصدر السابق.

(١٣٩) النقيوسي: المصدر السابق.

(١٤٠) النقيوسي: المصدر السابق.

وخصوصًا مدن الشمال، حتى أن عمرا رئـيس المسـلمين (مكث إثنى عشر شهرًا يحارب المسيحيين الذين كانوا فـي شمال مصر ولم يستطع فتح مدنهم)[١٤١].

وحتى عندما كان عمرو يحرق مدينة كان أهلها يخرجون ليلا ويطفئون مدينتهم على قدر استطاعتهم.

ونقطة الفصل في فهم موقف عمرو بـن العـاص مـن المصريين، ومن كيفية تعامله معهم، هي في النظر إلى مدى تمسك الشعب بالمقاومة أو عدم تمسكه بها، لأنه كان علـى استعداد لفعل أي شيء في سبيل إتمام الفـتح، وكمـا قـال النقيوسي إنه: (كان ذو اهتمام عظيم وكبيـر ظـن فـي أن يستولى على مدينة مصر)[١٤٢]. ولذلك فإنه لم يدخر وسـعًا لتحقيق هدفه واستخدام كل وسائل الحرب في عصره؛ كمـا يقتضي منطق الفتح – الغزو – لإخضاع البلـد المطلـوب، وبما كان الحرق أو التهديد بالحرق أكثـر وسـائل عمـرو ابن العاص الموجهة ضد مقاومة العزل من سـكان المـدن، أما تلك التي سلّمت سريعًا فقد كان يبـادر علـى مضـاعفة

---

(١٤١) النقيوسي: المصدر السابق.

(١٤٢) النقيوسي: المصدر السابق.

الضرائب فيها (ثلاثة أمثال)؛ كعلامة من علامات الخضـوع والتسليم.

فالأساسي لدى عمرو هو أن تدين لـه الـبلاد بالطاعـة أو تُدمر... إما أن تخضع أو تُحرق... وهكذا بعد سلسلة من الحروب الدامية والمحارق الواسعة وهوان الهروب والتشرد، استكان المصريون للعرب، وتعاملوا معهم على أنهـم أمـر واقع لا يملكون تغييره. وأدرك عمرو من خلال بعض رجال القبط المتعاونين معه مدى الخلاف بين الكنيسـة المصـرية وبين الكنيسة الرومانية، كما أدرك مـا للكنيسـة المصـرية ورجالها من أهمية وتقديس في قلوب الأقبـاط المصـريين، فعمل على تأمين عودة الأنبا بنيامين ورجـال الإكيـروس، ومنحهم الأمان الذي افتقدوه في الأعوام العشر السابقة علـى الفتح، (ودخل الأنبا بنيامين: بطريـك المصـريين، مدينـة الإسكندرية بعد هروبه من الروم وسار إلى كنائسه وزارهـا كلها.

وساد المسلمون مصر، وكان عمرو يقوى كل يـوم فـي عمله ويأخذ الضرائب التي حددوها، ولم يأخذ شيئًا من مـال

الكنائس، ولم يرتكب شيئًا سلبًا أو نهبًا وحافظ عليها طـوال الأيام)[١٤٣].

وهكذا نصل إلى تلك الجملة التي اقتطعتهـا "الـدكتورة: سيدة الكاشف" لتدلل بها على سماحة الجيش العربي عند فتح مصر من خلال شهادة قبطي؛ بل من خـلال أحـد رجـال الكنيسة القبطية المهمين في ذلك الحين.

ولكن كما نرى: فإن إقرار السماحة الذي يذكره النقيوسي عن العرب قد مر عبر أهوال كثيرة ذاقها المصريون حتـى خضعوا واستتبت الأمور للفاتحين الجدد، وفهم عمـرو بـن العاص أن التغاضي عن مال الكنائس هو الحصول على كل الثروة؛ بل هو مفتاح الخضوع الكامل للشعب القبطي المحب لكنيسته، والذي أخفى رجالها في الحشايا والضلوع لحمايتهم من الاضطهاد الروماني. وفي ذات الوقت الذي يفرح فيه هذا الشعب لعودة البابا بنيامين ورجال الإكليروس وتأمين أموال الكنيسة وممتلكاتها، يسوده الحزن والغم الشديد مـن جـراء تزايد أعباء الضرائب والجزية والخراج. وميـزة النقيوسـي الواضحة أن المكتسبات الجديدة لم تلف رأسه، بصفته أحـد

---

(١٤٣) النقيوسي: المصدر السابق.

رجال الكنيسة المهمين، ولم تُنسه ذكر مـا ألـم بالشـعب، فيسترسل بعد ذكر المكتسبات مباشرة، ويقول: (ولما استولى على مدينة إسكندرية جعل نهر المدينة يابسًا، كما تعلم مـن تيودر العاصي، وزاد الضرائب قدر إثنين وعشرين عصًـا من الذهب، حتى اختبأ كل الناس لكثـرة البـؤس وعـدموا ما يؤدون)[١٤٤].

وقراءة النقيوسي قراءة صحيحة تقتضي النظر للجـانبين، جانب استخدام العنف للقضاء على مقاومـة أهـل الـبلاد، وجانب التسامح مع رجال الكنيسة القبطية أصحاب السـلطة الروحية المهيمنة على الشعب بل يجـب النظـر للجوانـب العديدة التي تملأ مخطوطته، حتى إنما يمكن أن نرسم مـن خلال تفاصيلها الثرية صورًا للقادة المتصارعين؛ علها تُكون جزئيات من الصورة الكلية للصراع لحظة الفـتح العربـي لمصر.

* * * * *

---

[١٤٤] النقيوسي: المصدر السابق.

بورتريهات القادة في مخطوطة يوحنا النقيوسي

١- هرقل

إمبراطور الروم القـاطن فـي القسـطنيطينة.. يضـعه النقيوسي على رأس أعداء الذين أنزلـوا العـذاب بالأقبـاط المصريين (أبناء الله العزل أو أبناء المسيح الطيبـين) وهـو الآن طريح الفراش يرى مملكته وسبب جبروته الأول تتكسر أمام ناظريه قطعة... قطعة، وتضيع إلـى الأبـد، ورجالـه يتساقطون كالهوام ويتركونه حزينًا يتسلم جثـثهم ويـودعهم مثواهم الأخير، ويرى نار الخوف والانقسام تأكل من بقـي منهم: (كان هرقل حزين القلب لموت يوحنا رئـيس القـوم ويوحنا الحاكم اللذين قتلهم المسلمون)، وكان أحدهم هو الذي أخرجوا جثته بشبكة من البحر وبعثوها إليه يحمسونه ضـد قاتليه العرب... ومن كثرة الهزائم فـي الشـام وفلسـطين ومصر، أخذت روح القنوط تسري فـي أوصـاله المتعبـة، وتمكن الحزن من قلب هرقل (وأخذ الله قوته) وجاءته الحمى الأخيرة تحصد ما بقي من أشلائه، و(بأمر الله الـذي يأخـذ

أرواح حكامهم والقوة التي لدى الملوك مرض هرقل بمرض الحمى ومات)[١٤٥].

إلى جانب تلك الأسباب الإلهية العليا المتمثلة في غضب قـبط مصر وكراهيتهم له، وبالتالي غضب الرب في السـماء، يشـير يوحنا إلى تجليات واقعية لأزمة الرئاسة والحكـم: (كـان النـاس يقولون إن موت هرقل كان بسبب ختم دينار الذهب بصور ثـلاث ملوك إحداها صورته والاثنتان صورتا أبنيه، واحد مـن الجهـة اليمنى والآخر من اليسرى، ولم يجدوا مكانًا يكتبون فيه اسم مملكة الروم، وبعد موت هرقل طمسوا هذه الصور الثلاثة)[١٤٦].

فالفُرقة والاختلاف السياسـيين وصـراع الأبنـاء والأتبـاع والزوجة على الحكم تجري جميعًا أمام ناظري الإمبراطور وهـو قعيد تأكله الحمى وأخبار الهزائم.

وجميعها أسباب لتنفيذ مشيئة الرب العادل – من وجهة نظـر النقيوسي – لإنزال العقاب على الإمبراطور الطاغية[١٤٧].

---

(١٤٥) النقيوسي.

(١٤٦) النقيوسي.

(١٤٧) يقال إن هرقل كانت تعتريه بين الحين والآخر نوبات من الخمول والانقباض خصوصًا بعد المعارك الضارية التي دخلهـا خسـرو =

٢- قيرس

ليس له وجود في أحداث المعارك الأولى وحتى سـقوط حصن بابليون، إلا في إشارة عابرة تدل على أنه هو نفسـه البابا الخلقيدوني الذي كان أداة هرقل لإنزال العـذاب علـى مصر أصحاب العقيدة الحقة.

ظهر كيرس "قيرس" في المخطوطة بوضوح بعـد وفـاة هرقل وبعد الهزائم المتتالية التي أصابت الروم. وبعد نجـاح العرب في اقتحام حصن بابليون والسير إلى الريف ليستولوا عليه؛ عند ذلك: (نهض كيرس البابا وسار إلى بابليون حيث المسلمون، راغبًا أن يعمل سلامًا وأن يؤدي لهم الضـرائب ليدعوا الحرب عن بلاد مصر. فرحب عمرو بمجيئه وقـال

=

إمبراطور الفرس، وغارات جموع الأفـار والشـعوب السـلافية، بالإضافة إلى أنه كان يشك في إخلاص بريسكوس القائد العام. كما كانت الإمبراطورية تعاني من ضيق الموارد وخواء الخزينة العامة من جراء كثرة الحروب.

له: منحكم الرب هذا البلد، من الآن لا يكون بيـنكم وبـين الروم خصومة وحددوا عبء الضرائب التي تؤدى)[١٤٨].

وهكذا قام كيرس "قيرس" بوضع لمسات التسليم الأخيرة، وأخذ الأمان للروم؛ فكانت هدنة استمرت أحد عشر شهرًا.. هرب خلالها الروم الكثير من الأموال إلى موطنهم الأصلي، وعاد الكثير من رجالهم إلى هناك.

وبعد لمسات الاعتراف والتسليم التي قـام بهـا كيـرس "قيرس"، عاد إلى مقر حكمه بالإسـكندرية، وأبلـغ القـادة العسكريين بما حدث لينقلوه إلى الملك هرقل – وغالبًا كـان المقصود هنا ابن هرقل حيث كان الأب قد مات قبل ذلك.

وبعد أن بلغت الهزائم ذروتها، خطب كيرس في الجنود، (وقال لهم كلهم، إنه تعاهد مع المسلمين وأرضى قلوبهم كلهم بهذا العمل)[١٤٩].

وحينما انتشر نبأ المعاهدة حدثت فتنة عظيمة بالإسكندرية وثورة عارمة ضد هؤلاء الرومان المتقاعسين والمستسـلمين للعدو العربي، وزحف الناس إلى مقـر البابـا الخلقيـدوني

---

(١٤٨) النقيوسي.

(١٤٩) النقيوسي.

وأرادوا أن يقذفوه بالأحجار، لكن بحكمته السياسية وكهنوتـه الديني خطب فيهم قائلا: (إنما صنعت هذا لأنقذكم مع أبنائكم، واستعطفهم بكثير مـن البكـاء والحـزن، فاسـتحى منـه السكندريون وأعطوه ذهبًا كثيرًا ليؤديه إلى الإسماعيليين مع الضرائب. وأهل مصر الذين فروا عادوا إلى مدينة إسكندرية خائفين من المسلمين وسألوا البابا الخليقدوني وقالوا له: تأخذ لنا كلمة من المسلمين أن نعود إلى بلادنا ونخضع لهم. فعمل لهم كما قالوا واستولى المسلمون على كل بلاد مصر جنوبًـا وشمالا وضاعفوا فريضة الضرائب ثلاثة أمثال)[١٥٠].

وواضح أن كيرس "قيرس" كان خطيبا مـؤثرًا اسـتخدم شتى الأساليب البلاغية والتمثيلية؛ حينما (استعطفهم بكثير من البكاء والحزن) فرقوا له، أو جعلتهم المأساة الشاملة يرقـون ويحسون أن ظهورهم للحائط، وأنه لم يعد أمامهم إلا طلـب النجاة وشراء الأنفس ببذل المزيد مـن الأمـوال والـذهب لكيرس ليؤديها عنهم للعرب، هذا في ذات الوقت الذي انشغل فيه القادة الهاربون عن طريق البحر إلى القسطنطينية.

---

[١٥٠] النقيوسي.

نهب موسع جرى تحت غطاء دموع (كيرس) وأحزانـه البادية من جهة، والفوضى الناتجة عن لحظات الاجتياح من جهة أخرى.

وينتهي دور كيرس "قيرس" بنفس الغموض اللازم لملامح رجل التسليم، فتنتابه الحمى، ويموت أيضًا أسيف القلب.

(ولما كان يوم عيد الشعانين مرض كيرس البابا بمـرض الحمى لكثرة حزن القلب ومات)[١٥١].

٣- تيودور

يحتل مساحة كبيرة في مخطوط يوحنا النقيوسي، ويبـدو أنه كان بمثابة الحاكم العسكري لمصر، وأنه لم يتحرك للقاء

---

[١٥١] يذكر سير هارولد أن كيرس كان رجلا قلق المزاج، ولما وجد أنه لا سبيل إلى جعل القبط يعتنقون المذهب الخليقدوني بدأ حملة عنيفة من الاضطهاد. وأنه عقد معاهدة بابليون بعد الهزائم الأولى، ولمـا ذهب يعرضها على الإمبراطور رفضها ونفاه، وبعد وفـاة هرقـل عاد قيرس بأمر زوجة الإمبراطور إلى مصر، وكانت بابليون قـد سقطت وزحف العرب إلى الإسكندرية، ولما رأى أن الإسكندرية قد مزقتها الحزبية؛ عقد مع العرب معاهدة الإسكندرية في ظل رضى وموافقة للوصية على عرش هرقل الصغير.

الجيش العربي إلا بعد هزيمة رجاله في البهنسـا، وحينمـا أسرع إلى تلك المنطقة لقتال العرب أخفق في الجولة الأولى.

و(بحث تيودور بعناية كبيرة عن جثة يوحنا الذي غـرق في البحر، وبعد حزن شديد أخرجه بشبكه ووضعه في نعش وأرسله إلى السادة وإلى هرقـل)[١٥٢] فكـان نـذير شـؤم للإمبراطور المحتضر.

ثم كان اللقاء الثاني له مع العرب في أون – عين شـمس – فكانت الهزيمة الكبرى الثانية، وفر هو وجنوده إلى حصن بابليون، ودارت بعد ذلك معركته الثالثة مـع العـرب فـي كريون، وهزم فيه أيضًا.

وأمام هذه الهزائم المتتالية حاول تيودور أن يجمع شـمل رجاله فبعث إلى كلادجي، الذي يبدوا أنه فر من الجيش مـع رجاله (ودعاه قائلا: عد أنت إلينا وعد إلى الـروم. ووهـب كلادجي تيودور كثيرًا من المال خوفًا منه حتى لا يقتل أمـه وزوجته المختبئتين في الإسكندرية، وطيب تيـودور قلـب

---

[١٥٢] النقيوسي.

كلادجي)[١٥٣]. وتفوح من بين سـطور النقيوسـي السـابقة أصابع الاتهام إلى تيودور:

هل كان قائدًا مرتشيًا...؟ سفاحًا يقتل زوجـات وأمهـات رجاله المتمردين...؟

هل كان قائدًا سيء السمعة حتى تفرق عنه رجاله وسـط المعارك الطاحنة فكانت الهزائم المتتالية....؟

النقيوسي يقول إن تيودور حاول أن يسترضى سـبنديس أيضًا الذي (هرب من أيدي المسلمين وانضم إلى دمنديانوس لحرب الإسلام)[١٥٤].

ينضم إلى من...؟ إلى دمنديانوس عدو تيودور وغريمـه في الصراع الطاحن! إذن فقد كان تيودور يحاول أن يقتطـع سبنديس من جبهة غريمه دمنديانوس ويضمه إلى جبهته هو، ولذلك كان أيضًـا يتحـالف مـع مينـاس وكلاهمـا ضـد دمنديانوس. وكل هذه الخلافات هي مجرد صدى لما يحـدث في مركز الإمبراطورية هناك، وكلها تدور حول سؤال مـن يتولى الحكم بعد هرقل؟ ويبدو أن جبهة دمنـديانوس كانـت

---

(١٥٣) النقيوسي.

(١٥٤) النقيوسي.

تخوض غمار مقاومة الجيش العربي، أما جبهة تيودور فكان التحلل يضرب فيها إلى الجذور، ولذلك فقد اشترك تيـودور مع كيرس في مهام تسليم مدينة الإسكندرية للعـرب، كمـا حاول أن يهدئ من ثورة الشعب ضد الرومان المستسلمين.

وفي النهاية تولى القائد المهزوم (تيودور) مهمة الإشراف على ترحيل الجيش إلى بلاده بعد تلك الهزيمة غير المشرفة.

٤- شخصيات عابرة وظلالها الغامرة

تكمن في مخطوطة النقيوسي – على الرغم مـن قصـر الفصل الخاص بأحداث الفتح – شخصيات غيـر محوريـة، لكن وجودها والوصف المقترن بها يضفي نوعًا من حيويـة الحقيقة، ويغني عن آلاف التعليقات مثل شخصية لونـديوس حاكم إحدى المدن الذي بعثـه تاودسـيوس وأنسطاسـيوس القائدين اللذين هربا إلى حصن بابليون بعد واقعة قتل يوحنا ورميه في البحر، ومن هناك (أرسلا لونديوس الحـاكم إلـى مدينة أبويط، وكان هو بدين الجسم ليست به قوة. لا يعـرف شأن الحرب. وعندما وصل وجد جنـود مصـر وتيـودور

يقاتلون الإسلام، وأخذ نصف الجنود وسار إلى بابليون ليخبر السادة)[١٥٥].

وهكذا يختبئ القادة في الحصن ويبعثـون برجـل بـدين مترهل، لا شأن له بالحرب، وحينما يصل متأخرًا إلى ميدان المعركة ينظر إلى القتال الدائر نظرة مراقب خارجي، ويأخذ نصف الجنود إلى الحصن، (فهل كانوا هـاربين ويريـدون الاحتماء بالحصن)، ويترك تيودور في المواجهة مع النصف الآخر ويعود في هدوء.

أسقوطاوس

يذكر النقيوسي أن عمرو بن العاص وجيش المسلمين بعد أن فتحوا مدينة نقيوس، ساروا إلى أمـاكن أخـرى حولهـا ونهبوها وقتلوا كل من فيها حتى وصلوا إلى مدينـة قصـا (فوجدوا أسقوطاوس هذا ومن معه موجـودين فـي سـاحة الخمر، فقبض المسلمون عليهم وقتلوهم)[١٥٦]. كما ذكر أنهم كانوا يمتون بصلة قرابة إلى تيودور الحاكم الروماني.

---

[١٥٥] النقيوسي.

[١٥٦] النقيوسي.

ميناس الروماني

عينه الإمبراطور هرقل، قبل الاجتياح العربـي لمصـر، حاكمًا على الوجه البحري، ويبدو أنه كـان حاكمًـا ظالمًـا ويفوق غيره في التعسف ضد الشعب المصري؛ حيث يصفه النقيوسي بأنه: (كان عنيد القلب بما لا تعرفه الكتب، يكـره المصريين جداً)، وما لبث غير زمن قصـير فـي منصـبه الروماني حتى استولى العرب على مصر.

واتبع عمرو بن العاص سياسة الإبقاء على بعض الرومان في مناصبهم لضمان استمرار نظام جباية الضرائب وجمـع الأموال. واختار عمرو بن العاص ميناس (القاسي القلب بما لا تعرفه الكتب) ليستمر في منصبه؛ رغم ما عـرف عنـه ضراوة وشراسة ضد المصريين – وربما كان هـذا سـبب اختياره.

كما عين رجلا لا يقل عنه شدة؛ ويدعى (سينودا).. عينه في بلاد الريف. أما (فيليكانوس) فقد عينه في مدينة أرجاديا التي هي الفيوم.

(وهؤلاء ثلاثتهم يحبون الوثنيين)؛ أي يحبـون العـرب، بينما (يكرهـون المسـيحيين – أي القـبط المصـريين –

ويضطرونهم أن يحملوا العلف للحيوان، ويضطرونهم لحمل البن والعسل والفاكهة والكرات، وبأعمال أخرى كثيرة وهذا كله كان مضافًا إلى الطعام)[١٥٧].

ولم يكتف ميناس الروماني بمقدار الضرائب التي يجبيها لعمرو بن العاص وللعرب – وكانت ثقيلة بما يكفي، ومقدارها (٣٢٠٥٧) إثنين وثلاثين ألفًا وسبعمائة وخمسين دينارًا ذهبًا على المدينة. وكان غليظًا قاسي القلب على الناس حتى لم يستطيعوا أن يسددوا المقدار المفروض عليهم، وكانوا يتنازلون عن أولادهم لقاء تسديد جزء من هذه الضرائب.

وحينما زادت شكوى الناس منه إلى الحد الذي يهدد بحدوث عصيان، وتوقف عن تسديد الضرائب كليًا، عزله عمرو بن العاص، وعين رومانيًا آخر ويدعى (يوحنا الدمياطي) الذي كان يظهر الشفقة والحزن على الفقراء (وكان يبكي ألمًا لما أصابهم)، إلا أن دموعه لم تمنعه من التعاون مع تيودور الحاكم العسكري من قبل، وعمرو بن العاص من بعد، وهما رأس حربة الجيوش المستنزفة للشعب مرة من قبل الدولة الرومانية، ومرة من قبل الدولة الإسلامية.

---

(١٥٧) النقيوسي.

صوت قبطي آخر

بعد حوالي أربعة قرون من أحداث الفتح العربي لمصر، ومن كتابة يوحنا النقيوسي لمخطوطته سابقة الـذكر، كتـب ساويروس بن المقفع أسقف الأشمونيين كتاب (سـير الآبـاء البطاركة) وهو تجميع لسير آباء الكنيسـة المصـرية مـن مارمرقس حتى تاريخ عصره في القرن العاشر الميلادي.

وساويرس صوت رسمي للكنيسة المصرية، وفي حياتـه السابقة على الرهبنة ودخول سلك البطريركية، كان يعيش في الأوساط الرسمية لبلاط الخليفة المسلم وحياته، كما يؤرخهـا من جاء بعده بدأت في القرن العاشر الميلادي بـين سـنتي ٩٠٥/ ٩١٠، وتربى تربية دينية، والتحق بوظيفة كاتب فـي بلاط الدولة الإخشيدية، حتى أصبح كاتبًا ماهرًا فـي ديـوان الخليفة، مما يدل على أنه كان متضلعًا في اللغة العربية، ملمًا بآداب عصره وأسرار الكتابة وفنونها، وعرف في هذا الوقت باسم أبي البشر بن المقفع الكاتب، وعرف أبوه باسم المقفع؛ أي المنكس الرأس أبدًا، أو "من كانت يده متشنجة"، فعـرف هو باسم ابن المقفع، ولَقَب أبي البشر الذي حمله لم يكن يعني أن أباه سماه بشرًا، وإنما يدل على أنه كان شخصًا محترمًـا

ذا مكانة عالية؛ إذ لم يكني (أهل مصر المسيحيين بأبي فلان إلا إذا كانوا ذوي قدر وعلو شأن).

ولأسباب غير معروفة ترك أبو البشر بن المقفع وظيفتـه وكل ما يتعلق بالحياة الدنيوية وترهب في أحد الأديـرة فـي البرية.. (ولما كان ذا علم وفضل ذاع صيته بين المسـيحيين فاختاره أراخنة الشعب – أي قادته – والبطريرك "كليسـام" أسقفًا على مدينة الأشمونيين. وكانت يومئذ مدينة عظيمة لها شهرة في التاريخ المصري وهي الآن قرية بمركز ملوى – مديرية أسيوط. فغير اسمه وعرف بأنبـا سـاويروس)[١٥٨]. وكان ساويروس محبًا للكتابة. له مؤلفات عديدة يجادل فيهـا أصحاب المذاهب والأديان الأخرى لإثبات صـحة العقيـدة القبطية.

وقد جمع ما توافر في الأديرة من سير الآباء المصريين، أو كما يقول هو في مقدمة كتابـه: (اسـتعنت بمـن أعلـم استحقاقهم من الأخوة المسيحيين وسألتهم مساعدتي على نقل

---

[١٥٨] التراث العربي المسيحي (١)، كتـاب مصـباح العقـل؛ تقـديم وتحقيق: الأب سامي خليل القاهرة ١٩٧٨ م، ساويرس بن المقفع، حياته (آباء الكنيسة) رسالة الكنيسة ٢، (١٩٧٠) م.

ما وجدناه منها بالقلم القبطي واليوناني إلى القلم العربي الذي هو معروف عند أهل هذا الزمان بإقليم ديار مصـر لعـدم اللسان القبطي واليوناني من أكثرهم)[١٥٩].

فجمع تلك السير من الديور المختلفة، وعمل على ترجمتها وصياغتها من جديد، فجاء كتابه في أربعة أجزاء، يعنينا منها الآن الجزء الأول الممتد من مارمرقس وحتى البابا يوساب؛ الأب رقم ٥٢ للكنيسة.

وحينما يكتب ساويروس عن تلك الفترة؛ فإنه ينظر إلـى أحداث القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي مـن مسـافة بعيدة نسبيًا، فيرى الصورة الإجمالية لتلك السـنوات، وقـد سقطت منها تفاصيل الأحداث وبعض صور المذابح ورائحة المحارق، ووقع سياط السخرة أثناء حفـر خلـيج تراجـان، أو قناة أمير المؤمنين كما سميت بعد ذلك، وتلاشت صـور جمع العبيد وشحنهم إلى مكة والمدينة، وبقيت لديه صـورة عامة مختصرة تتلخص في سطرين:

---

[١٥٩] ساويروس بن المقفع: تاريخ الآباء البطاركة، الجزء الأول، ص ٩.

(بعد قتالهم ثلاث دفعات غلب المسلمون الروم فلما رأى رؤساء المدينة هذه الأمور مضوا إلى عمرو وأخذوا أمانًا على المدينة لئلا تنهب)[١٦٠].

ويبدأ ساويروس في الإفاضة؛ حينما يصل إلى نقطة إدراك عمرو لأهمية رجال الكنيسة الأرثوذكسية ورجال الإكليروس، وندائه الموجه إلى البابا بعودته إلى بيعه آمنًا أينما كان.

وبعد عودة البابا بنيامين أكرمه وقال لأصحابه وخواصه أن جميع ا لكور التي ملكناها إلى الآن ما رأيت رجل الله يشبه هذا – وكان الأب بنيامين حسن المنظر جدًا جيد الكلام بسكون ووقار – ثم التفت عمرو إليه وقال له: (جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم وإذا أنت صليت علي حتى أمضي إلى المغرب والخمس مدن وأملكها مثل مصر وأعود إليك سالمًا بسرعة فعلت لك كل ما تطلبه مني، فدعا له القديس بنيامين وأورد له كلامًا حسنًا أعجبه هو والحاضرين عنده فيه وعظ وربح كثير لمن يسمعه وأوحى إليه بأشياء وانصرف من عنده مكرمًا مبجلا وكلما قال له الأب

---

[١٦٠] ساويروس بن المقفع: المصدر السابق، ص ١٠٦.

الطوباني للأمير عمرو بن العاص وجده صحيحًا لم يسـقط منه حرف واحد)[١٦١].

وكان ذلك بداية التعاون المزدوج بين الكنيسة التي أوحى بطريركها إلى القائد العربي بأشياء، وعمرو الذي طلب منـه أن يصلي "من أجله حتى يفتح المدن الخمس ويعـود، تلـك المدن التي استخدمت فيها المراكب المصرية، وسخر للعمـل فيها البحارة الأقباط، وقد أتى هذا التعاون المرحـل بينهمـا على أرضية إحراق عمرو بن العاص لبيع الأقباط وكنائسهم بعد دخوله الإسكندرية، ومنها حرق كنيسة مارمرقس التـي سيسمح لهم بإعادة بنائها بعد ذلك نظير تعاونهم معه".

وساويروس يسند إلى شخص "الدياقون بطـرس" الـذي أشار إليه النقيوسي في مخطوطته، وأشار إلى أنه لعب دور المتعاون مع العـرب، الـذي قـدم لهـم المراكـب وكـل ما يحتاجونه لإتمام عملية الفتح والانطـلاق غربًـا، لقـاء مساهمته في عودة البابا بنيامين إلى منصبه الرسمي.

وفي الوقت نفسه الذي كان البابا يصلي فيه لأجل عمـرو ويوحي إليه بأشياء؛ كان عمرو يسوق المصـريين لتجهيـز

---

[١٦١] ساويروس: المصدر السابق، ص ١٠٧.

مراكب غزو شمال إفريقيا... واهتمام ساويروس بن المقفـع لا ينصب على ذكر المواقع الحربية بقدر اهتمامه بتسـجيل كل ما يخص الكنيسة القبطية ورجالها، الأمر الـذي أدركـه عمرو بن العاص بدهائه السياسي؛ حينما استشـعر أهميـة تحييد الكنيسة القبطية، ومنحها بعض الامتيـازات الخاصـة لأنها الجهة الرسمية الطافية على سطح الشعب القبطي فبدأت تحت تلك المظلة:

(عمارة ديارات وادي هبيـب والمنـى وكانـت أعمـال الأرثوذكسيين الصالحة تنمو وكانت الشعوب فـرحين مثـل العجول الصغار إذا حل رباطهم وأطلقوا على لبان أمهـاتهم. فلما عاد عمرو إلى مصر خارج منها إلى معونة كبيـرهم – يقصد الخليفة عثمان بن عفان في المدينة – وأنفذ إلى مصر عوضه رجل يسمى عبد الله بن سعد)[١٦٢].

لكن عبد الله بن سعد بن أبي السرح يختلف عن عمرو في أنه لم يراع الاستثناءات السياسية، ولم يرفق بأحد حتى ولـو بهدف تسكين جانب على حساب جانب، فاشتد مـع الكنيسـة

---

[١٦٢] ساويروس بن المقفع: تاريخ الآباء البطاركة، الجزء الأول.

واشتد مع الشعب القبطي، واشتد حتى مع جنوده العرب من ذوي الأصول اليمنية.

ولم يكن مهتمًا سوى بجمع الأموال وشحنها إلى الخليفـة وزاد خراج مصر في عهده زيادة كبيرة، ويعلق سـاويروس على هذا الوضع بقوله:

(وصل – يقصد عبد الله بن سعد – ومعه خلق كثيـرون وكان محبًا للمال، فجمع له بمصر أهرًا وهو أول من بنـى الديوان بمصر، وأن يستخرج فيه جميع خراج الكورة وحدث في أيامه غلاء عظيم لم يحدث مثله من زمان أقلوديس الملك الكافر وإلى أيامه، وانحدار كل من في الصعيد إلى الريـف في طلب الغلة، وكان المـوتى مطـروحين فـي الشـوارع والأسواق مثل السمك الذي يرميه الماء على البر لا يجـدون من يدفنهم، وأكلوا بعضهم بعضًا ولو لم يترأف الرب بكثـرة رحمته وصلاة أبينا بنيامين القديس، ليـزول ذلـك الغـلاء بسرعة، كان قد فنى كل من في كورة مصـر؛ لأنـه كـان يموت كل يوم من الناس ربوات لا يحصين)[١٦٣]. ولم يـدم الحال لابن أبي السرح الذي كان له خمـس الخمـس مـن

---

[١٦٣] ساويروس بن المقفع: المصدر السابق.

الغنائم، بخلاف ما جمعه من أموال مصر، وكانـت أحـداث الفتنة الكبرى ثم عودة عمرو بن العاص مرة أخـرى إلـى ولاية مصر، وعادت معه علاقة مراعاة الكنيسة المصـرية ورجالها.

وبعد وفاة عمرو بن العاص وتولى مسلمة بن مخلد فـي مدة ولايته الطويلة التي استمرت خمس عشرة سنة وأربعـة أشهر من (٤٧ هـ إلى ٦٢ هـ).

يحكي ساويروس واقعة حدثت في زمنه، وملخصها أنـه (جمع سبعة أساقفة وأنفذهم إلى سخا بسبب قوم علـى أنهـم كانوا يحرقون بالنار من القوم المسـتخدمين ليكشـفوا عـن جريرتهم، فوصلوا واجتمعوا بإنسان أرخن بسخا اسمه إسحق وسددوا مالهم وأعفوا من الحريق)[١٦٤].

ولو حاولنا فك طلاسم حكاية ساويروس فسنجد أن مسلمة ابن مخلد قد استعان برجال الكنيسة المصرية لحـل الأزمـة المتصاعدة في سخا – وهي إحدى المدن التي أمر عمرو بن العاص بحرقها أثناء الفتح بسـبب مقاومتهـا – ويبـدو أن

---

[١٦٤] ساويروس بن المقفع: المصدر السابق، المجلد الأول، ص ١٢١، في عهد البابا أغاثون.

السلطات العربية التي استمرت في سـخا كانـت تسـتخدم أسلوب إحراق المتمردين، أو الرافضين لدفع الضرائب؛ حتى لا تتصاعد المقاومة في منطقة لها مثل هذا التاريخ، وجملـة (سددوا مالهم وأعفوا من الحريق) التي يذكرها سـاويروس تؤكد أن هؤلاء القبط لم يدفعوا ضرائبهم أو حمولهم لسـبب أو لآخر، ومن ثم حكم عليهم القائمون بالأمر بالحرق... وأن المنطقة كانت على شفا الثورة نتيجة لهذه الأحكام القاسية.

لكن رجال الكنيسة الموفدين من عند الوالي استطاعوا بعد اجتماعهم بالأرخن المحلي إقناعه بتسديد الضرائب بدلا مـن هؤلاء البائسين وتهدئة الموقف... وبعد نجاح مهمتهم عادوا إلى مسلمة بن مخلد ينبئونه بنجاح مهمتهم في تسكين ثـورة الشعب القبطي، فكافأهم بالموافقة على بناء الكنيسة. وربمـا هدأ الموقف في سخا بعض الوقت، ولكن ليس إلى الأبـد... فسوف تتجدد الاضطرابات مرة أخرى زمن "قرة بن شريك"، عام ٩٠ هـ، وكان قرة محبًا لجمع المال (نهب جميع مـال البيعة حتى الكاسات اللاتي يرفع فيهن الدم الزكي)[١٦٥] ممـا اضطر الكنيسة إلى استخدام كاسات من الزجاج بـدلا مـن

---

[١٦٥] ساويروس بن المقفع: المصدر السابق، المجلد الأول، ص ١٤٥.

كاسات الذهب والفضة التي نهبها، كما كان يستولي على أموال رجال الكنيسة القبطية بعد وفاتهم، مما يعد كسرًا لقانون الكنيسة المعمول به منذ زمان طويل، والقاضي بأن الكنيسة هي وارثة رجالها.

(كما زاد مقدار الضرائب المفروضة على الناس، وكان القبط يفرون من القرى بنسائهم وأولادهم من قسوة رجال قرة، وولى قرة رجلا من مدينة سخا يبدو أنه كان مشهورًا بالشدة لأنه كلفه بجمع القبط الهاربين من قراهم)[١٦٦].

ولم ينقذ مصر من هذا الظلم الفادح سوى وفاة قرة بن شريك بعد أن قتل الوباء نساءه وغلمانه، ثم أصابه هو الآخر وأودى بحياته.

وشدة هجوم "ساويروس بن المقفع" على "قرة بن شريك" لا تنبع من قسوة هذا الوالي على الشعب فقط، وإنما تعود إلى قسوته على رجال الكنيسة واستيلائه على أموالهم، كما رأينا في الفقرة السابقة. ذلك أن ولاة مصر التاليين لم يتحلوا بنفس الذكاء السياسي الذي تحلى به عمرو بن العاص ومسلمة بن مخلد اللذين أعطيا الكنيسة بعض المميزات بعد أن أدركا

---

[١٦٦] ساويروس بن المقفع: المصدر السابق، المجلد الأول، ص ١٤٥.

طبيعة العلاقة بين الكنيسة والشعب مـن جهـة، والكنيسـة والسلطة الحاكمة من الجهة الأخرى.

أما هؤلاء الذين كان يبلغ بهم العسف حد البطش؛ فكانـت التمردات تتسع في عصورهم، وسنلاحظ تصاعد ثورة القبط على الولاة العرب تزداد منذ ١٠٧ هـ، وتتصاعد في سلسلة من التمرد والقمع يسجلها ساويروس بقوله:

(من بعد موت قرة أنفذ الوليد عوضه إلى مصـر واليًـا اسمه أسامة، فلما وصل الفسطاط التمس علام جميع الكـور وكتبها بالعربي وكان كثير الفهم، فلما بدأ بذلك حدث غـلاء عظيم لم يسمع بمثله من الجيل الأول، ومات في ذلك الغلاء أكثر ممن مات في الوباء وأشرف جميع الأغنياء والفقـراء على الموت، ثم أن رخاء عظيمًا أقبل حتى انتهى القمح إلـى خمسة وعشرين أردبًا بدينار، وبعد قليل وافى أيضًـا وبـاء فأفنى العالم ولو لم يرحم الرب من بقي منهم علـى الأرض لم يبق منهم أحد، وكان الأمير مقيمًا على فعله السوء وكـل المسلمين والنصارى خائفون منه، ثم تقـدم ألا يـأوي أحـد غريبًا في البيع ولا الفنادق ولا في السواحل، وكانوا خـائفين منه وطردوا من كان عندهم من الغرباء، وتقدم إلى الرهبان

أن لا يرهبوا من يأتي إليهم، ثم أحصى الرهبان ووسمهم كل واحد منهم بحلقة حديد في يده اليسرى ليعرف، ووسـم كـل واحد باسم بيعته وديره بغير صليب بتاريخ مملكة الإسـلام وكان في سنة ست وتسعين للهجرة قلق على الرهبان وضيق على المؤمنين، وإذا ظهروا بهارب أو غير موسم قدموه إلى الأمير فيأمر بقطع أحد أعضائه، ويبقى أعرج، ولـم يكـن يحصي عدد من شوه به على هذه القضية وحلق لحى كثيرة وقتل جماعة وقلع أعين جماعة بغير رحمـة، وكـان يقتـل جماعة تحت العقوبة بالسياط، وكان من محبته للدنانير يأمر الولاة أن يقتلوا الناس ويحضروا إليه مالهم ويكاتبهم ويقـول سلمت لكم أنفس الناس فتحملوا ما تقدرون عليه من أسـاقفة ورهبان أو بيع أو كل الناس فاحملوا القماش والمال والبهائم وكل ما تجدونه لهم ولا تراعوا أحدًا، وأي موضع نزلتمـوه فانهبوه، كانوا يخربون المواضع ويقلعون العمد والأخشـاب، ويبيعون ما يساوي عشرة دنانير بدينار، والنبيذ أربعين مطرًا بدينار، والزيت مائة قسط بدينار، وكل من معه شيء يخاف عليه أن يظهره لئلا يعاقب، ومن الضيق والضنك هم النـاس

يبيع أولادهم وإذا أعلموا الأمير بهذا لم يرق قلبه ولا يـرحم بل يزيد)[١٦٧].

وتشدد الوالي في عمل سجل لكل إنسان يكتب فيه اسـمه وموطنه وعمله، ومقدار الضريبة المفروضـة علـيهم، ثـم لا يسمح لأي إنسان بالتحرك من موضع إلى آخـر إلا بعـد إظهار سجله، وفعل نفس الشيء مع المراكب ومن لا يـدفع (تنهب المراكب وما فيها وتضرب بالنار)[١٦٨].

وقبض في زمنه على عدد كبير من الـروم وأدار فـيهم القتل وتقطيع الأطراف مما كان له أسوأ الأثر على حركـة التجارة الداخلية والخارجية (فانقطع الطريق ولم يبـق مـن يسافر ولا يبيع ولا يشتري، وثمرات الكروم تتلف ولم يبـق من يشتريها بدرهم واحد لأجل قيام أربابها عند داره شهرين ينتظرون السجل بالإفراج عنهم)[١٦٩].

ووسط هذه المسلخة العامة التي لم ترحم قبطيًا سواءً أكان تابعًا للكنيسة أم غير تابع، من رجالها الرسميين أم من عامة

---

[١٦٧] ساويروس بن المقفع: المصدر السابق، المجلد الأول، ص ١٤٦.

[١٦٨] ساويروس بن المقفع: المصدر السابق، المجلد الأول، ص ١٤٧.

[١٦٩] ساويروس بن المقفع: المصدر السابق، المجلد الأول، ص ١٤٨.

الشعب، يحكي ساويروس قصة أرملة قبطية أخرجـت بعـد وفاة زوجها سجلا لها ولولدها اليتيم حتى يتمكن من العمـل فتعيش من أجر عمله، وفي رحلة البحث خرجت بـه مـن الإسكندرية إلى مدينة صغيرة تسمى أغراوة وهناك (خـرج الصبي إلى البحر يشرب ماء فخطفـه التمسـاح والسـجل مربوط معه، وأمه تبكـي وتحتـرق عليـه فرجعـت إلـى الإسكندرية فأعلمت الأمير غير المؤمن ما جرى عليها فلـم يترأف عليها بل اعتقلها حتى وزنت عشرة دنـانير بسـبب السجل، وأنها دخلت المدينة بغير سجل، وباعت ثيابها وكـل ما لها وطافت تتصدق حتى أوفت العشرة دنانير)[١٧٠].

أما الرهبان الذين وجدهم بغير حلق في أيديهم (فمنهم من ضربت رقبته ومنهم من مات تحت السياط) وأغلـق البيعـة طالبًا ألف دينار غرامة مع غرامة دينار عن كـل راهـب. وهددهم إن لم يدفعوا هدم البيع وخربها وسرح الرهبان للعمل في مراكب الأسطول مما أقلق شـيوخ الرهبـان، فصـاروا يجتمعون بأعداد كبيرة للصلاة والتضرع.

---

[١٧٠] ساويروس بن المقفع: المصدر السابق، المجلد الأول، ص ١٤٨.

وظل الوضع على مأساويته السابقة حتى عزل هذا الوالي بأمر الخليفة الجديد "عمر بن العزيز" وقبض الوالي الجديـد على "أسامة البائس" وقيد رجليه بربطهما في "طوبة حديـد" ووضع يديه في خشبة ورماه في سجن مظلم بالإسـكندرية، وما كاد الناس يفرحـون بتلـك الإجـراءات حتـى بـدأت الإجراءات الصارمة للخليفة الذي أمر بعزل جميع الأقبـاط من دوائر العمل بالدواوين، كما أمر بأن تفرض جزية مـن أسلم على بقية الأقباط الذين لم يسملوا، وبذلك تـزداد نسـبة أعباء الضرائب على الأقباط بينما يحاول الخليفـة أن يبـدو متسامحًا.

وهذا السلوك المزدوج من الخليفة "عمر بن عبد العزيـز" جعل "ساويروس" يشبهه بالدجال ويفـرح بسـرعة هلاكـه، وكانت الإجراءات ذات الطابع المضطهد للأقباط في تزايـد مستمر.

وجاءت أول قرارات الخليفة التالي لعمر بن عبد العزيـز أشد جهامة أيضًا، حيث أمر بعودة الضرائب على الكنـائس

والبيع وأمر (بكسر كل الصلبان وكشط الصور التـي فـي البيع)[١٧١].

ثم جاء الخليفة هشام بن عبد الملك فأظهر تسـامحه مـع الكنيسة، لكنه سرعان ما عين واليًا شـديد القسـوة، يـذكر ساويروس بن المقفع أن اسمه عبيد الله، وأنه (أحصى الناس والبهائم وأحصى الأراضي حتى البور منها، وخـتم بخـتم الرصاص في حلق كل الناس، وجعل علامة الأسد على أيدي النصارى، ومن ليس على يده علامة (تقطع يـده ويخسـر خسارة عظيمة)، كما ضاعف الخراج علـى النـاس حتـى هلكوا.

وقبض على بطرك النصارى حتى يختمه هـو الآخـر، ويذكر ساويروس أن البطرك ظل يصلي في محبسه ثلاثـة أيام حتى يموت قبل أن يتمكن الوالي مـن وسـمه، وأن الله استجاب دعاءه ولم يمكن أعداءه منه، بينمـا تمكـن رجـال الوالي من راهب آخر كان بصحبة البطريك (فنزعوا عنـه

---

[١٧١] ساويروس بن المقفع: المصدر السابق، المجلـد الأول، ص ١٤٩ (زمن البابا الاكسندروس الثاني: البابا الثالث والأربعـون للكنيسـة المصرية).

ثوبه وألبسوه مسخ شعر وعلقوه بذراعيـه وهـو عريـان، وجميع الشعب ينظرونه وهم يضربونه بسياط من جلد حتـى جرى دمه على الأرض)[١٧٢].

ويسترسل ساويروس في ذكر المصائب التي حلت بأقباط مصر على أيدي هؤلاء الولاة بما يفـوق تعـذيب الرومـان للرهبان في فترة الشدة العظمى، وفرضهم الضـرائب علـى رهبان ورجال الكنيسة مما لم يكن مسبوقًا أبدًا فـي العهـود السابقة.

وقد تمكن الوالي عبد الملك بن مروان (١٣٢ هـ) مـن القبض على الأنبا ميخائيل: بطرك الكنيسة المصرية، وعـدد من الأساقفة، وسجنهم (في خزانة مظلمـة لا تنظـر منهـا الشمس وليس فيها طاق؛ لأنها كانت نقرت في حجر، وكـان أبونا البطرك تحت ضيق عظيم من التكبيـل بالحديـد مـن الحادي عشر من توت إلى الثاني عشر من بابه، لم ينظر في هذه المدة شمسًا، وكان في الاعتقال معه ثلثمائة رجل ونساء أيضًا معتقلات في ضيق أكثر من الرجال والحزن والبكـاء

---

[١٧٢] ساويروس بن المقفع: المصدر السابق، المجلد الأول، ص ١٥١.

والضيق العظيم عند انقضاء النهار، ويغلق المتولي السـجن علينا ويمضي ولا يعود إلى سابع ساعة من النهار)[١٧٣].

وظل الأنبا ميخائيل ورجاله محبوسين في تلـك المغـارة الجبلية الموحشة مع ما يقرب من ثلاثمائـة بـائس وبائسـة حوالي سبعة عشر يومًا حتى أمر الوالي بإحضارهم وطالب البطريرك بسداد الضرائب قائلا له:

(بيعك كلها بغير خراج، وأنا مطالبك عنها بما يجب عليها وضيق عليه، فقال له: إذا كان هكذا إيذن لي أن أمضي إلـى الصعيد مهما دفعوا لي النصاري وساعدوني به أحضرته لك، فأطلقه وخرجنا من عنده وسرنا إلى الصـعيد)[١٧٤]. وهكـذا أطلق الوالي بطرك الكنيسة المصرية ليشحذ له من شـعبه، وجمع البطريرك من شعبه الفقير ما استطاع جمعه، وعـاد إلى الوالي الذي أخذ ما تصدق به النصارى على البطريرك ثم أطلقه.

ثم تتالت أحداث سقوط الدولة الأموية سريعة مدوية، بكل ما صاحبها من انهيار وتخبط وشره إلـى النهـب السـريع،

---

[١٧٣] ساويروس بن المقفع: المصدر السابق، المجلد الأول، ص ١٧٧.

[١٧٤] ساويروس بن المقفع: المصدر السابق، المجلد الأول، ص ١٧٨.

وأمام زحف العباسيين من الشرق هرب الخليفة مروان بـن محمد إلى مصر، بعد أن أشعل النار في جميع المدن والقرى التي تركها خلفه.

ووصل إلى مصر أثناء ثورة البشموريين بقيادة مينا بـن بقيرة وثورة أهل شبرا سنبوط، وفشـلت حمـلات الـوالي العسكرية في تسكين الثورة وإخضاعهم عدة مـرات، ففكـر الوالي في استخدام الأنبا ميخائيل لتسكين الشـعب القبطـي الثائر – الأمر الذي سيتكرر بعد ذلك في ثورة البشـموريين الثانية تحت مظلة الخلافة العباسية وفي عهد الخليفة المأمون الذي اضطر إلى أن يأتي مصر بنفسه ليقود حملـة القضـاء على البشموريين، بعد أن فشلت جهود واليـه فـي القضـاء عليهم، وسوف يستخدم المأمون رجال الكنيسة فـي تهدئـة الثورة. هذا وقد قبلت الكنيسة – غير مرة – القيـام بـدور الوسيط لتهدئة روح الثورة العارمة، وكتب الأنبـا يوسـاب لشعب البشموريين يعظهم: (قال لسان العطر بولس كل مـن يقاوم السلطان فهو يقاوم حدود الله، والذي يقاومه يدان)[١٧٥]،

---

[١٧٥] ساويروس بن المقفع: المصدر السابق، ص ٢٦٨ (زمـن الأنبـا يوساب البطرك ٥٢ للكنيسة المصرية).

فيعلن بذلك أن معصية الحاكم من معصية الله مطالبًا شـعبه بالخضوع للخليفة المسلم.

أما في حالة مروان بن محمد – آخر خلفاء بني أميـة – فقد جاء مصر ووجدها في حالة اضطراب وفوضـى مـن جراء سياسته وسياسة واليه؛ (فالسجون كانت غاصة بـالقبط الذين سقطوا أسرى بعد مقتل يؤنس السمنودي)، وقـد رأى البشموريين (أن يقوموا بحرب العصابات بدلا من الحـرب النظامية ليستطيعوا أن يفتوا عضد الـوالي. وكـان رئـيس البشموريين واحدًا منهم اسمه مينا بن بقيرة. فكـان يخـرج هو ورجاله ليلا يقتلون وينهبون ويشيعون الفزع بين الجنـد المرابطين في حدود مديريتهم. ثـم يختبئـون فـي النهـار متحصنين خلف الترع والمستنقعات التي تكتنـف أراضـيهم والتي لا يعرف مخاضاتها غيرهم)[١٧٦].

وقد رأى مروان مفاوضة البشموريين بإزاء حرج موقفـه من القوات الموالية لأبي العباس؛ لكنهم رفضوا المفاوضـة وأصروا على القتال.

---

[١٧٦] ساويروس بن المقفع: المصدر السابق.

وزاد الموقف اشتعالا عصيان والي الإسكندرية، وإعلانه الاستقلال بحكم المدينة، (فضاق مروان ذرعًا بهذه النيـران المشتعلة حوله من كل جانب، ولم يجـد بـدًا مـن إرسـال "حوثرة" أكثر قواده بطشًا لقمع الثورة في الإسكندرية فقهـر "حوثرة" الجيش السكندري وفتك بالأهالي فتكًا ذريعًا. وفـي ثورة غضبه ألقى القبض على الأنبا ميخائيل الأول وزعمـاء القبط)[١٧٧].

وبعد وضعهم في السجن طلب "حوثرة" من البابا التـدخل لتهدئة ثورة البشموريين (ففك قيوده واقتاده إلى رشيد ومـن هنا استكتب البابا السكندري خطابًا إلى البشموريين) وأخبرهم فيه بكل ما أصابه من آلام وحمل الثائرين وزر عذابه ولامهم على تماديهم في العدوان. وحينما قرأ الثوار خطـاب البابـا اشتد غضبهم وضاعفوا هجماتهم على جنود الوالي.

وفي الوقت نفسه الذي كانت الأزمة تشتد فيه حول الخليفة الأموي وتحاصره من كل جانب، دفعه اليأس والرغبة فـي الانتقام إلى حرق مدينة الفسطاط، ويصف ساويروس مشـهد فزع الناس وهربهم قبل الحريق بقوله:

---

[١٧٧] ساويروس بن المقفع: المصدر السابق، ص ١٩١.

(وما أن أخذ عازف البوق يعلن أهالي الفسطاط بوجـوب إخلاء المدينة، حتى تملكهم الفزع. فخرجت جموعهم علـى غير هدى متجهة نحو الجيزة والجزيرة. وكانوا يتزاحمـون على المراكب الراسية على شاطئ النيل ويتـدافعون بغيـر وعي، فغرق العدد العديد منهم، كذلك تناس الناس في رعبهم المرضى والمقعدين والمكفوفين فتركوهم لمصيرهم. وحـين تفقد مروان الفسطاط بعد الأيام الثلاثة التي حددها لـم يجـد غير هؤلاء العاجزين فلم يشفق عليه، بل أمر بإشعال النـار في المدينة وهم فيها. فراحوا جميعًا ضحية اللهيـب المتقـد، ونظرنا النار صاعدة في الفسطاط وأخبرونا أن مروان أحرق مخازن غلة وقطن وتـين ومخـازن الشـعير)[١٧٨]؛ تلـك المحاصيل التي جمعت من الفلاحين الأقباط بالقهر والعنف، يشعل فيها ابن محمد النيران الآن حتى لا تقـع فـي أيـدي أعدائه من المسودة – يقصد العباسيين ذو الرداء الأسـود – القادمين لحكم مصر تحت مظلة الدولة العباسية.

وأكلت النار مدينة الفسطاط التـي بناهـا العـرب عـام ٢٠هـ، وأحرقها العرب أيضًا عام ١٣٢ هـ.

---

[١٧٨] ساويروس بن المقفع: المصدر السابق، ص ١٩١.

وكان أسلوب الحرق والتدمير هو الأسلوب الشائع في تأديب الأقباط المصريين، ولنا أن نقيس على ما يذكره المؤرخون عن مدينة طحا في الصعيد، التي كان يسكنها (في صدر الإسلام خمس عشرة ألف نفس، وكلهم من المسيحيين، وبها ست وثلاثون كنيسة أغلبها تهدم في العهد الأموي، وخاصة في خلافة مروان، لرفض أهلها دفع الخراج فطردهم عامله ولم يعد منها إلا كنيسة مارمينا)[١٧٩].

وإذا كان نصيب مدينة واحدة: تدمير خمسة وثلاثين كنيسة، وتشتيت أهلها؛ بخلاف تدمير البيوت وأراضي الممتنعين عن دفع الخراج، فكيف كان نصيب المدن الأخرى المتمسكة براية المقاومة زمنًا طويلا.

---

[١٧٩] د. زبيدة عطا: إقليم المنيا في العصر البيزنطي، نقلا عن: أبو صالح الأرمني – أديرة وكنائس مصر.

الوقائع المشتركة بين مؤخري القبط والمؤرخين العرب

إزاء وقائع النقيوسي وساويروس بن المقفـع الصـارخة، وتفاصيلهما الحادة عن الفتح العربي لمصر، يتجاهلهما الكثير من الباحثين وينحيانهما جانبًا بدعوى أنهما قبطيان متحاملان على العرب، وبالتالي لا يصح الأخذ بشـهادتهما... فظـلا لقرون طويلة يسكنان وادي الصمت المطبـق – مـع كـل الأصوات المنفية – جزاءً لهما على مخالفتهما للنشيد العام... حتى جاء بعـض البـاحثين المحـدثين – واسـتدعوهما – واستشهدوا بهما ولكن بعد تقطيعهما وتقديمهما علـى طبـق الموضوعية المعد بإحكام وقوة بما يوافق ذات السياق الثابت لصيغة التسامح المطلق غير القابل للشك.

وأمام هذا الإصرار العام على تجاهل، أو تقطيع الصوت القبطي، والتعامل معه كما لو كان مجرد كورس موقعه فـي الخلفية فقط، حيث وضعه الفتح العربي – سنخضع – نحـن أيضًا – لذات قوانين السيادة وننحي الصوت القبطي جانبًـا، ونعود إلى التعامل مع البطل (التاريخ العربي) مرة أخرى...

سنتركه يسترسل في ذكر بطولاتـه عـن قهـر الجيـران والاستيلاء على ممالكهم... ولكن مـا بـال تلـك المقـاطع الصغيرة القلقة تقطع السياق العام، وتشير إلى نفـس وقـائع النقيوسي وساويروس..؟!

ما بال الطبري والبلاذري والسيوطي والمقريزي يذكرون – أحيانًا – ما يتفق مع الصوتين القبطيين...؟

صحيح إنها إشارات عارضة... ولكن اختلاف المواقـع هو الذي يؤدي إلى تحديد الرئيسي منها والثانوي – لدى كل من الطرفين....، ونحن لا نستطيع الحديث عـن التسـامح العربي بضمير هادئ؛ والطبري يذكرنا بأن الجيش العربـي الفاتح قد أسر أعدادًا كبيرة من المصـريين، أو أن صـفوف العبيد من القبط امتدت من مصر إلى المدينة، فينقل عن رجل من أهل مصر – أو بمعنى أصح من عربـي سـكن أرض مصر، وكان في جند عمرو بن العاص أثناء الفتح، أنه قال: لما افتتحنا "باب اليون" تدنينا قرى الريف فيما بيننـا وبـين الإسكندرية قرية فقرية، حتى انتهينا إلى بلهيب – وهي منية الزناطرة بالبحيرة، ومحلها اليوم فزارة بمركز المحمودية –

قرية من قرى مصر – يقال لها قرية الـريش وقـد بلغـت سبايانا المدينة ومكة واليمن)[١٨٠].

وتنقل لنا هذه الرواية صورة الصفوف الطويلة من العبيد والجواري الذين انتزعهم الجيش العربي من قُراهم وبعث بهم في ذلة وانكسار إلى مدن الجزيرة العربية بعد فقدان حريتهم.

والبلاذري أيضًا في كتاب فتوح البلدان يذكر ذات الواقعة بقوله:

(وكانت قرى من مصر قاتلت فسبي منها، والقرى بلهيت والخيس وسلطيس فوقع سباؤهم بالمدينة)[١٨١].

فما بالنا نستنكر إشارة النقيوسي إلى أن العـرب: نهبـوا كثيرًا من الأسلاب وأسروا النساء والأطفال وتقاسموهم فيما بينهم، ولا نستنكر إشارات الطبري والبلاذري وابن الحكـم إلى السبي المصري الموفد إلى المدينـة فـي ظـل القهـر الحربي...؟

وإشارة البلاذري وابـن عبـد الحكـم إلـى أن عمـر ابن الخطاب رد هؤلاء المصريين حينما (صيرهم وجماعـة

---

[١٨٠] الطبري: تاريخ الطبري، الجزء الرابع. ص ١٠٥.

[١٨١] البلاذري: فتوح البلدان: القسم الأول، ص ٢٥٣.

القبط أهل ذمة)، أو أنه طلب إيقاف وفود السبي الجديد؛ بينما تغاضى عمن تفرق في أيدي العرب لأنه لا يستطيع لهم ردًا، هل كانت هذه الإشارات تعني تسامح ابن الخطاب مع القـبط ودفاعه عن حريتهم...؟ أم كانت تعني أنه كان ينظر بعـين الحاكم العملي الذي يريد ترسيخ نوع آخـر مـن العبوديـة الجماعية؛ هي عبودية العمل وأداء الجزية ومختلف أنـواع الضرائب التي تعود على بيت المال بفائدة أكبر، وهو نفسـه القائل: (لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب إلي من فيء يقسم ثم كأنه لم يكن)[١٨٢].

إشارة أخرى نجدها لدى ابن عبد الحكم تتفق وإشـارات النقيوسي إلى طبيعة الحرب في موقعة "نقيوس" التي اجتاحها عمرو بن العاص؛ وإن كان يختلف معه في توقيت المعركة حيث يذكرها ابن عبد الحكـم مـع الفـتح الثـاني لمدينـة الإسكندرية، ويرجع ابن عبد الحكم أسباب الاجتياح القاسـي للمدينة: (أن عمرًا لما توجه إلى نقيوس لقتال الـروم عـدل (وردان) – أحد موالي عمرو – لقضاء حاجته عند الصـبح فاختطفه أهل الخربة فغيبوه ففقده عمرو وسأل عنه وقفا أثره

---

[١٨٢] الطبري: المصدر السابق، ص ١٠٥.

فوجدوه في بعـض دورهـم فـأمر بإخرابهـا وإخـراجهم منها)[١٨٣].

ويستطرد ابن عبد الحكم في الرواية واصفًا أهل الخربة: كانوا رهبانًا كلهم... ومع ذلك فقد قتلهم عمرو جميعًا وخرب المدينة خرابًا لم تشهده مثله من قبل حتى سميت بعـد ذلـك بالخربة.

والخلاف الناشب بين الخليفة عمر بن الخطاب وعمـرو ابن العاص حول وضع الأقباط؛ خصوصًا حينما سمح ابـن العاص لهم بالبقاء في وظـائف جبايـة الخـراج وحسـاب الضرائب إلى غيرها من الأوضاع التي لم توافـق سياسـة الخليفة؛ فكتب إلى واليه يلومه قائلا: (كيف تعزهم وقد أذلهم الله؟).

وكان عمر يريد استمرار عمل القبط فـي مصـر فـي الزراعة والحرف، و"يؤدون الجزية عن يد هم صـاغرون" مما يعود بالخير العميم على بيت مـال المسـلمين، دون أن يتقلدوا أية وظائف إدارية.

---

[١٨٣] ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها.

والطبري يشير إلى معاناة المصريين أثناء حفر قناة أمير المؤمنين في عمل من أكبر أعمال السخرة الجماعية، وخوف عمرو بن العاص نفسه من هذا الوضـع لأن تسـخير آلاف المصريين في أعمال الحفر يسبب (انكسار خـراج مصـر وخرابها)، ولكن حسم ابن الخطاب دفَع إلى استمرار العمـل في ظل تلك الظروف القاسية حيث كتب إليه يقول: (اعمـل فيه وعجـل، أخـرب الله مصـر فـي عمـران المدينـة وصلاحها)[١٨٤].

ويؤكد "السيوطي" في كتاب "حسـن المحاضـرة" واقعـة تسخير عمرو بن العاص للمصريين في حفر القنوات وإقامة الجسور، بالإشارة إلى أن عمرًا (ألف قوة مـن المصـريين عددها مائة وعشرين ألف عامل مهمتها الأولى العمـل فـي حفر القنوات وإقامة الجسور والقناطر)[١٨٥].

وانتزاع مائة وعشرين ألف قبطي من الأرض لتسخيرهم في تلك الأعمال القاسية تحت وقع سنابك خيـول الفرسـان العرب ورماحهم، هو ذات ما أشار إليه النقيوسـي بقولـه:

---

[١٨٤] الطبري، الجزء الرابع، ص ١٠٠.

[١٨٥] السيوطي: حسن المحاضرة، الجزء الأول، ص ٦٣.

(كان – عمرو – يسخرهم ليحملوا طعام أفراسهم، وارتكـب آثامًا كثيرة لا تحصى)[١٨٦].

وقوله: (يضطرون المسيحيين أن يحملوا العلف للحيوان، ويضطرونهم لحمل اللـبن والعسـل والفاكهـة والكـرات، وبأعمال أخرى كثيرة. وهذا كله كان مضافًا إلـى الطعـام. هؤلاء كانوا يفعلون ذلك خوفًا دون توقف، ونهر أنـدريانس الذي انطمر منذ زمن طويل – هو نفسه قناة أمير المـؤمنين – جعلهم يحفرونه ليجري به الماء من بابليون بمصر حتـى البحر الأحمر، وحملوا المصـريين نيـرًا أثقـل مـن نيـر فرعون)[١٨٧].

وموقع النقيوسي كقبطي يتحدث عما أصاب شعبه يدفعـه إلى إصدار أحكام أخلاقية، وإظهار سـخطه علـى العـرب وقائدهم، كما في قوله: "ارتكب آثامًـا كثيـرة لا تحصـى"، أو حملوا المصريين قيدًا أثقل من قيد فرعون.

ومن شدة وطأة الضرائب على الفلاحين الأقبـاط كـانوا يهجرون القرى ويلتحـق بعضـهم بـالأديرة المعفـاة مـن

---

[١٨٦] النقيوسي.

[١٨٧] النقيوسي: مصر في مخطوطة يوحنا النقيوسي، ص ١٩٩.

الضرائب في سني الفتح الأولى... حتى لاحظ الولاة النهمين إلى جمع المزيد من المال ذلك، فلجأوا إلى فـرض الجزيـة على الرهبان ورجال الكنيسة والاشتداد في ذلك، فـانفجرت ثورة القبط الكبرى عام سبع ومائة؛ أثناء ولاية "الحـر بـن يوسف"، تلك الفترة التي يكتب عنها ساويروس بـن المقفـع بالتفصيل، ويذكر أن الوالي أوقع بثوار الحوف الشرقي وأخذ أموالهم ووسم أيدي الرهبان بحلقة حديد فيها اسـم الراهـب وديره وتاريخه، وكتب إلى العمال بأن كل مـن وجـد مـن النصارى وليس معه منشور يؤخذ منه عشرة دنانير. ويفيض ساويروس في ذكر تلك المسلخة العامة؛ من قطع الأطـراف وضرب الأعناق، وهدم الكنائس وكسر الصلبان.

ويرصد المقريزي في كتابه "المواعظ والاعتبار بوصـف الخطط والآثار" سلسلة ثورات القبط منذ عـام ١٠٧ هـ. والمقريزي هو أكثر المؤرخين العرب اهتمامًا بوصف بعض القبط وطريقة حياتهم وتاريخهم وكنائسهم، وذكر ثـوراتهم. ويرجع بعض الباحثين ذلك إلى اطـلاع المقريـزي علـى مخطوطة ساويروس بن المقفع وتأثره ببعض ما جاء فيها.

وقد أفرد المقريزي في كتابه بابًا لكنائس مصر ودورها، وبابًا آخر تحت عنوان (ذكر انتفاض القبط وما كـان مـن الأحداث في ذلك). فيذكر أمر زيادة الضرائب على القبط بما لا يستطيعون احتماله، وثوراتهم ضد بعض الولاة، وإسـراع الولاة والخلفاء في قمع هذه الثورات بكـل وسـائل العنـف الممكنة.. فيذكر أنه لما (قدم حنظلة بن صفوان أميرًا علـى مصر في ولايته الثانية، فتشدد علـى النصـارى وزاد فـي الخراج وأحصى الناس والبهائم وجعل على كـل نصـراني وسمًا، صورة أسد، وتتبعهم فمن وجده بغير وسم قطع يده... ثم في سنة إحدى وعشرين ومائة انـتفض القـبط بالصـعيد وحاربوا العمال فحوربوا وقتل كثير منهم، ثم خرج يحـنس بسمنود وحارب وقتل في الحرب وقتل معه قبط كثير)[١٨٨].

ولقد زادت ثورات القبط في أواخر عهد الدولة الأمويـة، وكلما تقدم الزمن كانت تفصيلات الاضطهاد والتعذيب تتضح – أكثر فأكثر – لدى المقريزي الذي فطن إلـى أن الحكـام العرب كانوا يتمادون في فرض الضرائب، ليس على الشعب

---

[١٨٨] المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطـط والآثـار، الجـزء الثاني، ص ٤٩٢.

القبطي فقط، كما كان يفعـل بعـض الأوائـل مـن دهـاة السياسيين؛ بل كانوا يفرضـون علـى الكنيسـة ورجالهـا ورهبانها إتاوات متزايدة؛ بل يقبضون عليهم ويعذبونهم، كما حدث زمن مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمـويين حينمـا قبض على بطريرك الإسكندرية ووضع رجليه فـي الحديـد (ونتف شعر لحيته) مما جعل موقف الكنيسة يختلف في تلك الفترات عنه في أيام المحاباة السابقة.

وبمرور الأيام وتوطيد دعائم الحكم العربي كانت الحلقة تضيق حول وضع الأقباط المصريين، ولم يعد التقسيم الأول بين كـونهم أهل ذمة يدفعون الجزية والخراج، ويعيشون في أماكنهم بعيدًا عن العرب حاميًا لهم؛ بل تعرضوا لضيق حلقة العزلة مـن حـولهم رويدًا... رويدًا، وأخذ ضعف الكنيسة يتضح أكثر فأكثر... ودفـع هذا الحصار الكنائس والرهبان إلى المزيد من الجمود والانغـلاق والدخول في ظلامية القرون الوسطى... ويـروي أنـه بمجـرد إعلان "حفص بن الوليد" (١٢٧ – ١٢٨ هـ) إعفاء كل من يسلم من الجزية، بادر حوالي أربعة وعشرين ألفًا من الأقباط واعتنقـوا الإسلام تخلصًا من قيـود الجزيـة وشـتى أنـواع الضـرائب والاضطهادات الأخرى.

الفصل الثالث

معارك في كل مكان

بجوار القاعدة للشعب القاطن أرض مصر لحظـة الفـتح العربي، كانت هناك جماعات من الروم والحـبش واليهـود والفرس، بخلاف العرب القادمين على صهوات الجياد ليقيموا فيها إلى الأبد.

وكان لكل جماعة مكان محدد تعيش فيه، ولا يحـق لهـا النزوح منه إلى مكان آخر إلا بتصريح رسمي، كما كان لكل منهم لغته وزيه وسحنته العامة الدالة على مكانته الاجتماعية من النظرة الأولى... ولذلك يمكن الحديث عن جزر منعزلة وسط المحيط القبطي الواسع في ذلك الحين... وقـد فـرق المقريزي في (كتاب المـواعظ والاعتبـار بـذكر الخطـط والآثار) بين أنواع الناس القاطنين أرض مصر بقوله:

(اعلم أن أرض مصر لما دخلها المسلمون كانت بأجمعها مشحونة بالنصارى، وهم على قسمين متباينين في أجناسـهم وعقائدهم، أحدهما أهل الدولة وكلهم روم من جند صـاحب

القسطنطينية ملك الروم، ورأيهم وديـانتهم بـأجمعهم ديانـة الملكية، وكانت عدتهم تزيد على ثلثمائة ألف رومي، والقسم الآخر عامة أهل مصر ويقال القبط، وأنسابهم مختلطة لا يكاد يتميز منهم القبطي من الحبشي من النوبي مـن الإسـرائيلي الأصل من غيره، وكلهم يعاقبة فمنهم: كتاب المملكة، ومنهم التجار والباعة، ومنهم الأساقفة والقسس ونحوهم، ومنهم أهل الزرع، ومنهم أهل الخدمة والمهنة. وبينهم وبين الملكية أهل الدولة من العداوة ما يمنع مناكحتهم ويوجب قتـل بعضـهم بعضًا ويبلغ عددهم عشرات آلاف كثيرة جـدًا فـإنهم فـي الحقيقة أهل أرض مصر أعلاها وأسفلها).

والمقريزي يمد خطًا فاصلا أفقيًا بين الرومان كحـاكمين وبين بقية الأجناس المختلطة الذين ينضمون جميعًا تحت راية القبط، فالقبطية في هذا السياق تعنـي الجنسـية المصـرية، أو الشعب الواقع تحت الحكم الروماني في أرض مصر، وقد حاول الرومان إقامة خطوط فاصلة بينهم وبين هذه الفئـات الكثيرة؛ فأقاموا مدنًا على الطـراز الإغريقـي بشـوارعها العمودية المتسعة والحمامات الكابيتول والجماينزيوم والمعابد والقصور ذات الأعمدة الرخامية، ونمط العمارة الإغريقـي

المميز، وجعلوا سكانها من ذوي الـدماء الإغريقـي، مـع السماحة لقلة من أغنياء المصريين بالسكن فيها كما في مدينة بطلميـــة ونقـــراطيس واكســـيد نخـــوس – البهنســـا – وأنطونيوبوليس – هيرموبوليس – وغيـرهم مـن المـدن الإغريقية، وبمرور الزمن حـدث الاخـتلاط بطيئًـا بـين العنصرين الروماني وأغنياء المصـريين وخصوصًـا بعـد السماح للرومان بالزواج من المصـريات، وكانـت اللغـة اليونانية لسان أهل هذه المدن ووسيلة ممارسـتهم لطقـوس الحياة الثقافية في المسرح والشعر والفلسفة ومختلف علـوم العصر. كما كانت اللغة الرسمية للبلاد والدواوين ومختلـف شئون الحكم. أما الكثرة الغالبة من القـبط – أهـل الـبلاد الأصليين – فكانوا يستقرون في القرى المنتشرة في أنحـاء مصر، وعددها – كما جاء في القاموس الجغرافـي للـبلاد المصرية لمحمد رمزي – حوالي ٢٣٩٥ قرية منهـا ١٤٣٩ قرية في الوجه البحري و٩٥٦ في الوجه القبلي.

وسكان هذه القرى من القبط الزارعين للأرض والعاملين بالحرف المختلفة والمتحدثين باللسـان القبطـي فـي نسـق حضاري قبطي مختلف الملامـح تمامًـا عـن الحضـارة

الإغريقية التي يندرج تحتها سلالة الحكام البيزنطيين. وبعض الأقباط كانوا يسكنون المدن المختلفة الممتدة من الشمال إلى الجنوب، وينضمون تحت الطوائف الحرفيـة فـي العمـل: التجارة والمعادن والسفن ومعاصر الزيوت والنبيذ والمطاحن والورق وغيرها من أنواع الحرف القبطية المتقدمة). وقد لجأ عدد كبير من القبط إلى الكنيسة تحت ظروف مختلفة، فكـان منهم الرهبان والقسس والآباء وخصوصًا في فتـرة الشـدة العظمى، أو الاضطهاد الكبير الذي أوقعه الحكام البيزنطيون أصحاب العقيـدة الدينيـة المختلفـة عـن عقيـدة كنيسـة الإسكندرية... ويحكى أنه خرج لعمرو بـن العـاص مـن صحراء وادي هبيب – وادي النطرون – سبعين ألف راهب يلبس بعض السواد ويتسربل آخرون بثياب رثـة ويطلقـون اللحى ويتكئ كبارهم على العصي بعـد أن أجهلـتهم حيـاة الرهبنة في الديور البعيدة، وأنه تحدث معهم عبر التراجمـة وأعطاهم الأمان... وليس من المعقول أن يجتمع سبعون ألف راهب دفعة واحدة في الصحراء، وربما خرجوا إليـه علـى دفعات حسب أماكن تجمعاتهم التي تقابله، والرقم عمومًا يدل على ضخامة عدد الرهبان الذين لجأوا إلى الصحراء بأعداد

متزايدة منذ القرن الثالث الميلادي فرارًا من اضطهاد الحكام وقسوتهم، فأسسوا بذلك نظام الرهبنة ذا السـمة المصـرية الخالصة في الديانة المسيحية والتي أخذها عـنهم مسـيحيو العالم فيما بعد، وقد بث هؤلاء القبط الفـارين الحيـاة فـي الصحراء البعيدة، ومناطق الواحات المتطرفـة؛ فأصـبحت مناطق جذب لمزيد من الأقباط دون أن يعودوا إلى حيـاتهم الأولى مرة أخرى.

وقد بلغت أعداد الرهبان في القرن الرابع الميلادي حوالي مليون راهب وراهبة، وزادت مع الاضطهاد الروماني فـي القرن السادس الميلادي، ولم يكن نظـام الرهبنـة خالصًـا بالرجال فقط؛ بل وجدت فيه النساء القبطيات خلاصًا لهن من ضيق الحياة المحيطة، وفرارًا من شتى أنواع الاضطهاد.

ويروي الأنبا شنودة الأخميمي في كتاب: (تاريخ الرهبنة والديرية في مصر وآثارها الإنسانية على العالم) – أنه عندما كثرت أعداد العذارى الراغبات في ممارسة الحياة النُسـكية، أقام الأنبا شنودة ديرًا للنساء، وجعله تحت رئاسته، ووصـل عدد الراهبات فيه إلى ألف وثلاثمائة راهبة، كما بلـغ عـدد الراهبات في ديرين من الأديرة الباخومية ٤٠٠ راهبة كـن

يجتمعن كل مساء للتعليم، بخلاف النسوة العلمانيات اللاتـي كن يأتين – بعض الوقت – لتلقي علوم الدين ثم يعدن إلـى حياتهن السابقة.

وفي العموم، كانت أديرة الرهبان من الرجال أو النساء – مراكز للعلم والمعرفة، وكان شرط معرفة القراءة والكتابـة شرطًا أساسيًا للقبول في الدير، فأقبل الرهبان علـى العلـم والتعليم تحت رعاية الكنيسة صاحبة امتياز الإعفاء من شتى أنواع الضرائب ومالكة الضياع الواسعة والأراضي الزراعية التي كان يقوم بعض صغار الرهبان بزرعها؛ بالإضافة إلى عملهم في حرف النجارة والحدادة والخزف والنسيج وصناعة الورق، حتى أنتجت الكنيسة المصرية في ذلك الوقت سـبعة أصناف من ورق البردي، كما ازدهرت تحت رعايتها فنون الزخرفة والنحت والرسم والموسيقى وعلوم الطب والكيميـا والحساب وعمارة الأديرة التي كانت تبنى كقلاع كبيرة تحيط بها الأسوار العالية. وفي فترات غارات الجنود على الأديرة كان الرهبان يهربون إلى مناطق أبعد في الصحراء ويسكنون "القلالي" المنفردة "فخارج دير نهيا وبجواره توجـد قلالـي

كثيرة تابعة للآباء الرهبان الذين جاءوا من دير أنبـا مقـار زمن بطريركية أنبا بنيامين".

ويصف أحد الرهبان الزائرين من أورشليم دير أنبا مقار بقوله: (كان الدير عبارة عن قلعة يحيط بها ألف قلاية).

وبخلاف معازل الأديرة التي يفر إليها القبط، أو يـذهبون إليها بمحض اختيارهم، فينقطعون فيها عن الحيـاة العاديـة ويدخلون في سلك الرهبنة، كانـت القـرى والمـدن تشـبه المعازل هي الأخرى؛ حيث يربط الفرد بموطنـه الطبيعـي سجل ضرائب يجب عليه الوفاء بكل التزاماته؛ وإلا تعرض لعقوبات السجن والتعذيب والغرامة الماليـة، وإذا مـا أراد الانتقال من قرية إلى أخرى فلا يسمح له بحريـة الحركـة والتنقل إلا بإذن أو تصريح من مندوبي الحكم، على أن يتعهد بشهادة الضـامنين أن يقـوم بالوفـاء بجميـع الالتزامـات الضريبية. وبين فترة وأخرى كان المسؤولون يعلنون أن من يرغب في نقل مسؤولياته الضريبية، عليه أن يـذهب إلـى حامي المكان المطلوب الانتقال إليـه، ويطلـب منـه نقـل مسؤولياته الضريبية والحصول على تصريح بـذلك. وكـان مسئولو المرور، أو المشرفون على المرور في المقاطعـات

يخطرون المسئولين عن هؤلاء المتسللين إلـى مـدنهم دون تصريح رسمي، وغالبًا ما كانت سـلطات الأقـاليم تسـارع بإعادتهم أو عمل تصريح جديد لهم إذا أثبتوا خلـوهم مـن الضرائب.

ونجد في خطاب (من موظف كبير إلى المسـؤول عـن إقامة الأجانب أو المرور في الباجاركية بسبب وجود أفـراد من الفيوم وأشمون وقوص مقيمين في كوم شـقوه) أوامـر واضحة بشأن هؤلاء المتسللين: (فإذا تسلمت رسالتي فأرسل إلي الأجانب بعناية... أرسلهم مع أسـماء آبـائهم وقُـراهم والأراضي التي أخذوها من الباجاركيـه وأرسـل بأبنـائهم وزوجاتهم معهم والأموال التي أخذوها).

والفرد في ظل هذا النظام المتشدد كانت حريته شـكلية، لأن أغلال الضرائب كانت تكبل قدميه بأشـد مـن القيـود الأخرى. وعملية الفرار كانت شبه مستحيلة في ظل تقسـيم البلاد إلى (مراكز Pagi تقابل مراكز النظام القـديم Topa ويتولى كل قسم موظـف يسـمى Phaepasitas ويخضـع لموظف آخر يسمى Exator اختصاصاته ماليـة وأصـبح اللقب يطلق فيما بعد على الجابي، وفي عهـد ليـو (٤٥٧/

٤٧٤) ظهرت الباجاركيات Pagrckia وهي تطابق الإقليم القديم وتشمل كل ما يحيط بالمدينة من القرى وما يتبعها من الأرض. فالمدينة وما يحيط بها تعتبر وحدة إدارية تخضع للباجارك الذي يخضع للوالي Praeses الذي يخضع للدوق حاكم الإقليم)[١٨٩].

والباجارك الذي يشرف على القرى المحيطة لديه جيش وجنود عسكريين، وجيش آخر من الموظفين منهم (الجباة والمراقبية والكُتاب والمساعدين والبحارة الذين ينقلون الخراج)[١٩٠].

ويعمل كل هذا الجيش على مراقبة الفلاح والأرض والإنتاج، ويستقطع هؤلاء الجباة لأنفسهم الأموال والمحاصيل العينية كلما سنحت الفرصة على طول سلم الوظائف التصاعدي حتى تصل الضرائب المطلوبة إلى الخزانة الرئيسية محملة بدماء الفلاحين، والإمبراطور جستنيان نفسه يعترف في مرسومة رقم ١٣ بأن أموال مصر تستنزف عند الجباية. وفي العموم كان نظام تحصيل الضرائب من مصر

---

[١٨٩] زبيدة عطا: المصدر السابق، ص ٣٧.

[١٩٠] زبيدة عطا: المصدر السابق.

معقدًا ومحكمًا، حيث كان لكل قرية "نقابة من الملاك تعد مسؤولة قانونًا عن الضرائب وإيجار الأرض" ولكل قرية (خزانة تتصل بها إدارة للحسابات لتحديد المصروفات والجبايات والموظف المسئول عن تدوين الحساب يعرف باسم Logagraphes. ويجري إعداد قوائم بالضرائب التي أداها كل فرد مع ذكر اسمه ومقدارها ويرسلها مسئول الخزانة بعد ذلك إلى مكتب الوالي)[١٩١].

ولم يكن أمام الفلاح القبطي سوى المثول لهذا النظام الضرائبي الصارم الذي يربطه ربطًا لا فكاك منه بالأرض والقرية، وحينما لجأ بعضهم إلى بعض الحكام العسكريين ليستجيروا بهم، أصدر الإمبراطور قسطنطينيوس مرسومًا سنة ٣٩٥ م شديد اللهجة يقول فيه:

(كل من بلغت به الجرأة لضم هؤلاء الأشخاص إليه بوعد الحماية ومنعهم من أداء ما عليهم من الأعباء العامة سيضطر لدفع الأعباء التي على الفلاح من مجموع الفلاحين الذين

---

[١٩١] زبيدة عطا: المصدر السابق، ص ٤٦.

هجروا قراهم وسيطلب إليه الدفع من دخله الشخصي، وكـل من دخل تحت حمايتهم وجب رفع هذه الحماية عنه)[١٩٢].

فلم يكن أمام الفلاح القبطـي فـي ظـل هـذا الوضـع إلا الامتثال لمعزل القرية، أو الانتقال لقرية أخرى (معـزل آخر) وفي رقبته سجل ضرائبه لا يسقط عنه سوى بالموت، أو بالفرار إلى الرهبنة.

أما المدن فكانت لها قيودها الأخرى، وينظم الحياة فيهـا نظام الطوائف والحرف ومسئولي الأسواق والقائمين علـى منح تصاريح مزاولة التجارة ومسئولي البريـد ومحطـات الدواب والمشرفين عليها، وكانت كل طائفـة مغلقـة علـى نفسها، وتخضع لتراتيبات إشرافية وضرائبية محددة، ولـيس من المسموح لأحد بمزاولة المهنة إلا إذا كان عضـوًا فـي الطائفة، أما الجدد فيخضعون لتدريب (يستمر من سنة إلـى خمس سنوات على يد أسطوات المهنة).

* * * * *

وبعد الفتح العربي وسيطرة العرب على مقاليد الحكم في مصر، تمسك عمرو بن العاص بنظام تقسيم البلاد والعبـاد،

---

[١٩٢] زبيدة عطا: المصدر السابق، ص ٣٣.

للموروث عن الرومان، كما هو؛ فجمع مقدمي القبط وأقرهم على جباية الروم، ويقول في رسالة له إلى الخليفة إنه فـتح مدينة – يقصد الإسكندرية – بها أربعين ألف يهودي علـيهم الجزية – وبالطبع لم يكن هذا عدد كل اليهود القاطنين أرض مصر، وربما تركزت هذه النسبة العالية مـن اليهـود فـي الإسكندرية نظرًا لاشتغالهم بالتجارة والصيرفة وغيرها مـن الأعمال، بالإضافة إلى أنه كان بمصر من اليهود عدد كبيـر لا يعمل بتجارة الأموال، وإنما وجدوا في طوائـف حرفيـة أخرى، بنسب أقل، وكانوا يعيشون في تجمعـات تخصـهم. وأبقى العرب على نظام العمل في الدواوين كمـا هـو مـع إحلال بعض القبط محل الروم الراحلين، واحتفظوا بالتقسـيم الإداري للأقاليم والمدن والقرى، كما حافظوا علـى أسـماء القرى المصرية كما هي، أو حرفوها قليلا ليفهمها العربـي المختلف اللسان. وذلك على العكس من الرومان الذين حاولوا أن يضعوا للقرى والمدن المصرية أسماء يونانيـة، وظـل استخدامها قاصرًا عليهم فقط، أما الجمهور القبطي فقد ظـل متمسكًا بالأسماء المصرية القديمة – لمزيد مـن التفاصـيل، انظر: محمد رمزي – القاموس الجغرافي للبلاد المصرية.

كما حافظ العرب على طرق جباية الضرائب؛ بل وعلى أنواعها من الضرائب العينية التي تجمع في الأهراء أو المخازن الحكومية لمئونة الجند. وكان المكان الذي يباشر فيه صاحب المكس مهام منصبه يسمى أم دنين – مكان حديقة الأزبكية الآن – وكان هناك مركز تجاري للغلال يعرف باسم ميدان القمح أو ميدان الغلة، وكانت حمولة القمح الآتية من كل قرى مصر تفرغ في الميناء النيلي الذي كان يشغل كل ساحل المكس حتى القنطرة.

وبالإضافة إلى الضرائب العينية، كانت هناك أخرى نقدية عن المحاصيل الأخرى، وخراج الأراضي، وقانون الضيافة ثلاثة أيام للعرب الحاليين بالقرى، وقوانين ضيافة السلطان مع إضافة بند تكاليف كسوة الجند والجزية المدفوعة على الرؤوس، وغيرها. وقد حافظ عمرو على الخطوط بين جماعات الناس، فبنى مدينة الفسطاط لتكون مدينة عربية الطابع، وقسمها إلى خطط، وأسكن كل قبيلة خطة، وأسكن بقية الروم المتعاونين معه خطة الحمراوات، وأسكن الفرس الآتيين معه من الشام خطة أخرى.

وحتى في نظام المرابع الذي أقره عمرو نلحـظ التقسـيم الواضح بتخصيص مكان لكل قبيلة يخرج إليه الجنـود مـع خيولهم دون اصطحاب زوجاتهم وأولادهم، مع نهاية فصـل الشتاء وبداية الربيع، ويستمرون في مرابعهم حتـى قـدوم الصيف. وفي خطبة عمرو إلى جنوده يحثهم على الـذهاب إلى المرابع ثم العودة إلى الفسطاط، يقول لهم: (فتمتعوا فـي ريفكم ما طاب لكم؛ فإذا يبس العود وسخن العمـود وكثـر الذباب وحمض البن وصوح البقل وأقطع الورد من الشـجر فحي إلى فسطاطك على بركة الله ولا يقـدمن أحـد مـنكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق سعته أو عسرته)[١٩٣].

وفي تلك الخطبة يحث عمرو جنوده على التمتع بخيرات الريف ثم هجره بعد إجدابه:

---

[١٩٣] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ص ٧٤.

(فكلوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده وارتعـوا خـيلكم وسمنوها وصونوها وأكرموها فإنها جنتكم من عدوكم وبهـا مغانمكم وحمل أثقالكم)[١٩٤].

وتمسكت الأرستقراطية العربية في البداية بعزلتهـا عـن بقية الملل والطوائف كنوع من أنواع الترفع والتعالي علـى الشعب المصري الزارع للأرض والقـائم بـأمر الحـرف المختلفة، واحتفظوا لأنفسهم بمهام الحرب والحكم والسياسـة لأن العرب كما يقول ابن حبيب: تعيش من سيوفها ورماحها، وقد كان (عمر بن الخطاب ينهى العرب عن الـزرع كـي لا يزلوا ويشتغلوا به عن الجهاد). حتى أنه عاقـب رجـلا عربيًا أراد أن يزرع، وطلب من عمـرو أن يرسـله إلـى المدينة بسرعة ليقيم عليه العقاب المناسب.

ولزمن طويل ظلت العزلة بين العرب والقبط قائمة فيمـا يشبه الانفصال الاجتماعي، ويمكن أن يسمى التماس بينهمـا في الفترة الأولى تماس السطح والقـاع، أو تمـاس الحـاكم والمحكوم وما ينطوي عليه من عسـف جانـب وخضـوع

---

(١٩٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملـوك مصـر والقـاهرة، المصدر السابق.

الآخر، دون أن يمتص أحدها الآخر أو يحويه تحت جناحـه لأكثر من ثلاثة قرون.

وقد بالغ بعض الولاة في التمسك بالتقسيم الإداري للبلاد، ووضع القيود على نظام الجباية، حتى أننا نجد فـي بربيـة عربية أوامر صارمة موجهة من أحد الجباة إلى آخر مسئول عن ضرائب مدينة "أنصنا"، فيقول بلهجة شديدة:

(استحضر لنا من مدينة أنصنا بقْطُر الطحان، ومر العمال بإحضاره – وكان بقطُر هذا قد تأخر في دفـع ضـرائبه – واستحضر إلينا أسرته أجمعـين واستحضـر أبـاه وأبنـه واستعجل إحضاره – إن شاء الله)[١٩٥].

وقد بالغ بعض الولاة في فرض المزيد مـن الضـرائب؛ ومن ثم القيود التي تربط الفلاحين القبط بـالأرض والقريـة أكثر فأكثر، ونصوص التصاريح في أوراق البردي العربيـة تدل على القاعدة العامة، وهي عدم السماح بحرية الانتقـال من مكان إلى آخر، وقد لاحظ أدولف جروهمان ذلك، وعلق عليه قائلا: (المواطنون الذين رحلوا على مكان آخر ليقيمـوا فيه ردحًا من الزمن لم يكونوا على ما يظهر ملزمين – فقط

---

[١٩٥] زبيدة عطا: الفلاح المصري، ص ١٢٨.

– بأن يحصلوا على تصريح خاص من المدن التـي كـانوا يقيمون فيها؛ بل كانوا ملزمين أيضًا بإفادة الموظفين المحليين بمقر إقامتهم الجديد... ويرجح أن الإيصالات تحـول مـن مكان إلى مكان أو إلى الكورة أو البلد التي كـان الشـخص تابعًا لها، للدلالة على أنه قد قام بأداء الضريبة المفروضـة عليه لتدوينها في السجل الخاص في محل إقامته)[١٩٦].

وفي زمن قرة بن شريك زادت وطأة الضـرائب علـى الفلاحين إلى حد غير مسـبوق، وكـان (النـاس يهربـون ونساؤهم من مكان إلى مكان) ولكنهم لا يجدون مجتمعًا آخر يمكن أن يقبلهم (فلا يأويهم موضع)، وبدأت إجراءات قـرة ورجاله لمنع الهروب تصبح أشد قسوة من إجراءات انتـزاع الضرائب، وأخذ والي سخا؛ على سبيل المثال (يجمع الـذين يهربون من موضع ويردهم ويربطهم ويعاقبهم ويعيـد كـل منهم إلى موضعه)، وأصدر قرة أوامره بأن (لا يئوى أحـد غريبًا في البيع ولا الفنادق ولا في السواحل)، وطلـب مـن الرهبان أن يعيدوا أي شخص يريد الدخول في سلك الرهبنة، ووصل به الأمر إلى وضع علامات تمييز قاسية على جسـد

---

[١٩٦] أدولف جروهمان: أوراق البردي العربية.

الرهبان، بأن (أحصى الرهبان ووسمهم كل واحد منهم بحلقة حديد في يده اليسرى ليعرف، ووسم كل واحد باسـم بيعتـه وديره بغير صليب بتاريخ مملكة الإسلام)[١٩٧].

(وإذا ظهروا بهارب أو غير موسوم قدموه إلـى الأميـر فيأمر بقطع أحد أعضائه ويبقى أعرج ولم يكن يحصى عدد من شوه به على هذه القضية، وحلق لحى كثير وقتل جماعة وقلع أعين جماعة بغير رحمة. وكان متولي الخـراج هـذا أسامة بن زيد التنوخي – يتشدد فـي إعطـاء تصـريحات الخروج للناس، ويقرر ضريبة علـى إصـدار التصـاريح مقدارها عشرة دنانير، ويشـدد علـى الشـرطة والجـيش والحراس بأن من لا يجدوا سجله معه يؤخذ كـل مـا معـه وينهب، وطبقوا ذلك حتى على مراكب التجار والبحارة الذين فيها فمنهم من يقتله ومنهم من يصلبه ومنهم من يقطع يديـه ورجليه حتى انقطع الطريق ولم يبق من يسافر)[١٩٨].

وربما لا ننسى حادثة فساد محصول الكـروم، وخـوف الجميع من نقله أو شرائه حتى بدرهم واحد؛ بسـبب عـدم

---

[١٩٧] ساويروس بن المقفع.

[١٩٨] ساويروس بن المقفع.

حصول التجار على تصاريح النقل وانتظارهم حوالي شهرين لإصدار التصريح؛ ففسد المحصول ولم يحصلوا على سـجل الإفراج.

* * * * *

وبخلاف تحديد مواطن الإقامة، وحظر الانتقال من مكان إلى آخر إلا بالتصاريح الرسمية... تعددت مظـاهر العـزل الإجباري بين الناس، ومنها عزلة الملبس والهيئـة بفـرض أنماط معينة من الثياب على أصحاب كـل ديـن، فـاحتكر العرب زيًا معينًا لا يلبسه غيرهم ولا يتشـبه بـه سـواهم، وفُرض على الأقباط زي. وعلى اليهود زي آخر.

وداخل صفوف الأقباط اختلف زي الرهبان المصنوع من الخيش عن زي رجال الكنيسة عن زي الفلاحـين عـن زي ساكني المراكز والمدن.

وكان يمكن تمييز الدين والملـة والوضـع الاجتمـاعي بسهولة من النظرة الأولى لعابري الطريق، أو للمتعاملين في الأسواق والحمامات العامة.

وفي العموم، تخصصت مصانع معينة في صنع ملابس السادة بخلاف تلك التي تصنع ملابس العامة، وقد (أطلق عليها طراز الخاصة وطراز العامة)[١٩٩].

وقد ذكر "القلقشندي" في الشروط المفروضة على أهل الذمة (أن يركبوا الحمير بأن يجعل الراكب رجليه من جانب واحد وأن ينزلوا المسلمين صدر الطريق والتمييز عن المسلمين في اللباس) ولا يركبن يهودي ولا نصراني على سرج، وليركبن على إكاف، ولا تركبن امرأة من نسائهم على رحالة وليكن ركوبها على إكاف)[٢٠٠].

كما أكد القرشي في كتاب (معالم القربة في أحكام الحسبة) ضرورة أن (تشد المرأة النار تحت الإزار كالرجل ويكون في عنقها خاتم معها الحمام ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض لتتمييز على غيرها)[٢٠١].

وقد ظلت هذه الذهنية العنصرية هي السمة الغالبة على تاريخ الحكم العربي؛ وإن تخللها فترات تمتع فيها أعيان

---

[١٩٩] د. حسن باشا: فن التصوير في مصر الإسلامية.

[٢٠٠] القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا.

[٢٠١] القرشي: معالم القربة في أحكام الحسبة.

الأقباط وأغنياء اليهود بامتيازات المسـلمين فـي الملـبس والمظهر... بينما ظلت قاعدة الفقراء من أهل الذمـة مقيـدة بشروط الملبس. وظل اللون الأبيض حِكرًا علـى العـرب، والأزرق قيدًا على القبط.

ويرى بعض الباحثين أن قيود الملبس لم تطبق في البداية بشدة؛ بسبب وجود فوارق طبيعية في المظهر بـين ملـبس العرب الآتين من الصحراء وملبوس أهل الـبلاد، وأن هـذه القيود فُرضت بصرامة فيما بعد.

وقد كان عمر بن الخطاب شديد التعصب للسيادة العربية والإسلامية فأخرج أهل الذمة من المدينة، وتمنى أن يخرجهم من الجزيرة العربية كلها بحجة أنه (لا يجتمع فـي المدينـة دينان) ووضع أسس قوانين السيادة العربية، إلا أن تطبيقها لم يكن على درجة واحدة من الشدة... فلم يكن يتمسك عمرو بن العاص صاحب الأفق السياسي الأوسع بتطبيق تلك القواعـد الشكلية، بقدر ما كان يهتم بأمر ترسيخ السـيطرة السياسـية على البلاد... أما من تلاه من الولاة فلم يتحلوا باتساع أفقه؛ وبالغ الكثير منهم في فرض المزيد من الحـدود العنصـرية والتشدد في تطبيقها كلما تقدم الزمن.

وبخلاف معازل المكان والمظهر، كانت معـازل اللغـة حائلا دون التفاهم بين الأجناس الوافدة والأجنـاس المقيمـة وخصوصًا في سنين المواجهة الأولى.

فكانت هناك اليونانية؛ لغة الرومان الحاكمين، والقبطيـة بلهجاتها المختلفة، لغة الشعب القبطي فـي القـرى والمـدن والكنيسة القبطية. إلى جانب لغات بعض الجماعات القاطنـة بمصر: كالحبشة، والعبرية، والفارسية، ثم اللغـة العربيـة الآتية مع جيش الفتح.

وقد صحب عمرو بن العاص وجيشه فـي رحلتـه مـن فلسطين إلى مصر عدد كبير مـن الأدلاء والتراجمـة مـن الفرس والرومان والموالي الذين قـاموا بأعمـال الاتصـال الأولى. ورغم كثرة هذه اللغات إلا أن المواجهة الأساسية في اللحظات الأولى للفتح العربي كانت بين اللغتين اليونانية (لغة الرومان الحاكمين) والعربية (لغة العرب الحالين)... وخلال سنوات القتال الثلاث دارت الكثير من المباحثات بـين قـادة الجيش العربي والجيش البيزنطي عبر التراجمة.

أما تلك الاحتكاكات والتماسات اللغوية التي كانت تحـدث بين العرب والشعب القبطي في المدن والكنـائس والأديـرة،

فكان بعضهم يدور باليونانية؛ خصوصًا وأن أعيـان مصـر ورهبانها كانوا يجيدون اليونانيـة باعتبارهـا لغـة الـبلاد الرسمية، وبعض المواجهات كانت تدور باللغـة القبطيـة... وتذكر بعض كتب التاريخ أن أبا رافع القبطي الذي كان يقوم بزراعة أرض العالية في يثرب ويخدم مارية القبطيـة، قـد عاش حتى شهد فتح مصر، وأنه صاحب جيش عمـرو بـن العاص، ولسانه القبطي كان أحد وسائل التفـاهم مـع أهـل مصر. ورغم ذلك ظلت المشكلة الكبرى التي كانت تواجـه العرب في القرى القبطية التي يجتاحونها بحروبهم على طول الطريق إلى الإسكندرية، وهي جهل كل طرف بلغة الآخر... مما ساعد على زيادة الخوف والفـرار مـن أمـام هـؤلاء الأغراب الغازين للبلاد.

وتقهقرت اللغة اليونانية مـع عتـاد الفرسـان الرومـان الراحلين إلى القسطنطينية، وظلت اللغة القبطية لغة الصراع الدائر بين العرب والشعب القبطي حتى صدر قرار تعريـب الدواوين عام ٨٧ هـ.

وفي السنوات الأولى زاد اهتمام بعض الأقباط بتعلُّم اللغة العربية وخصوصًا العاملين بديوان المحاسبة حرصًـا علـى

وظائفهم وموقعهم كهمزة وصل بين القيادة العربيـة وشـتى القرى القبطية، ولذلك فإننا نلاحظ أن تعريب الدواوين كـان يخص المركز بالأساس، أما (موازيت) القـرى أو السـلطة القروية فقد ظلت تتعامل بالقبطية حتى زمن متأخر جدًا.

ويبدو أن غموض اللغة القبطية بالنسبة للعـرب، وعـدم فهمهم لها في العموم، وممارسة القبط لشتى طقوس حيـاتهم اليومية بها، جعل العرب يقلقون من حالة الإبهام المسـيطرة عليهم، ولذا كانوا يلجئون إلى كل وسائل الترجمـة المتاحـة لنزع ستار الإبهام المستغلق بينهم وبين الشعب الآخر.

ويذكر "ساويروس بن المقفع" أن الابـن الأكبـر للـوالي "عبد العزيز بن مروان" ويدعى الإصبغ؛ كان كثير الشك في نوايا القبط ودائم التوجس من ممارسة طقوسهم الدينية وسائر شعائر حياتهم باللغة القبطية، فقرب شماسًـا يعـرف اللغـة العربية يدعى بنيامين (فسر له الإنجيل، بـالعربي، وكتـب الكيميا وكان يبحـث عـن الكتـب لتُقـرأ عليـه وكـذلك

الأرطستيكيات كان يقرأها لينظر هل يشتمون فيها المسـلمين أم لا)[٢٠٢].

مما يعني أن هذا الشماس قد أجاد اللغـة العربيـة حتـى استطاع ترجمة الإنجيل، وكتب الكيميـا ومختلـف الكتـب الأخرى للأمير المتوجس شرًا من الأقباط. وبعد تلك الحادثة بسنة واحدة جاء قرار التعريب الفوقي للـدواوين علـى يـد "عبد الله بن يربوع الغزاري" من أهل حمص.

وفي الوقت الذي كانت هذه الفئات العليا من القبط تُقبـل على تعلم لغة الفاتح لاستمرار المحافظة علـى مصـالحها، كانت قاعدة الشعب القبطي معفاة من هذه الحاجـة امتثـالا للأمر الواقع في القرى المغلقة والمجهدة.

أما أسرى القبط من الرجال والنساء الذين سباهم عمـرو ابن العاص ووزعهم كجوارٍ وعبيدٍ على قادة جيشه ورجالـه المقربين، فقد اضطرتهم ظروف العبودية إلى القيـام بـدور مزدوج حيث علموا الأقربين منهم الكثيـر مـن المفـردات القبطية، كما اضطروا إلى تعلم وإتقان اللغة العربيـة؛ لغـة

---

[٢٠٢] ساويروس بن المقفع: تاريخ الآباء البطاركة: المجلـد الأول، ص ١٣٩، وذلك في زمن عبد العزيز بن مروان (٦٥ هـ ، ٨٥ هـ).

السادة المالكين لأجسادهم... مثل عبد الله بن عبد الـرحمن؛ وهو أحد الذين سباهم العرب في قرية بلهيب، وقـد أصـبح عريف الموالي أو رئيس العبيد بعد أن اعتنق الإسلام وتعلـم اللغة العربية.

وكما حدث مع عدد من نساء (سلطيس) اللاتي اتخـذهن العرب جواري وإماء لهم، بعد أن استباح عمرو مدينة سلطيس ووزع نساءها على قادة جيشه، وبعث بالجزء المتبقى مـنهم إلى بلاده البعيدة في "مكة والمدينة واليمن".

وقد بقي ذكر بعض هاتيك النسوة اللاتي أنجـبن ذكـورًا لهؤلاء السادة الجدد، وقد أخذ هؤلاء الأبناء – فيمـا بعـد – مواقع مهمة في بلاط الولاية العربية... بينما أهال التـاريخ تراب نسيانه على النساء اللاتي لم ينجبن أبناءً ذكورًا للسادة العرب ولم يعد لهن أي ذكر.

ومن أبرز أبنـاء المصـريات أو القبطيـات الأسـيرات عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ابن القائد العربي المعروف معاوية بن حديج الذي لعب دورًا كبيرًا في توطيـد دعـائم الدولة الأموية بمصر. وهناك شواهد تاريخية على معرفـة ابنه عبد الرحمن للغة القبطية التي تعلمها من أمة القبطية –

إحدى سبايا سلطيس – فيروي الكندي فـي خبـر خـروج العلويين بالفسطاط سنة ١٤٥ هـ (القرن الثاني الهجري) أن ابن حديج – عبد الرحمن – وقف على الباب الذي ناحية بيت المال فكلم خالد بن سعيد وهو فوق ظهر المسجد كلمة قبطية، مما يدل على معرفة الاثنين – عبد الرحمن وسعيد، وربمـا آخرين، باللغة القبطية.

بالإضافة إلى أننا سنجد شواهد تاريخية على رواج اتخاذ قادة آخرين لجوار قبطيات، وإنجابهم مـنهن أيضًـا مثـل: عبد الرحمن جعفر بن ربيعة؛ الذي أنجب ابنه عمران مـن جاريته السلطيسية، وعقبة؛ الذي أنجب ابنه عيـاض وابنـه عبيده من جاريتين قبطيتين على ما يبدو، وخارجه بن حذافة القرش؛ الذي كان رئيس شرطة عمرو بن العـاص، وتلقـى عنه طعنة الموت، قد أنجب ابنه عون من جاريتـه القبطيـة السلطيسية... وغيرهم.

وقد اقتضيت ظروف هاتيك النسوة القبطيـات الـداخلات بيوتًا رغم أنفهن أن يتعلمن لغة السيد؛ وهي اللغة العربيـة، وأن يحافظن على اللغة القبطية فـي سـرائرهن ويعلمنهـا لأبنائهن الصغار.

ويندرج كل ذلك تحت باب العادي من الأمور، حيث يجب على المحكوم أن يتعلم لغة حاكمه باعتباره الطرف الأدنى في العلاقة، أما أن يحدث العكس فهذا هو النادر.. الشحيح. ولذلك فقد ظل المؤرخون يتعاملون مع تعلم بعض السادة ذوي الأصول العربية الصرفة للغة القبطية من باب الغرائب والطرائف، فيرى أن "خير بن نعيم" قاضي مصر في الفترة من عام (١٢٠ – ١٢٧ هـ) واليمني الأصل، والذي كان يعمل في تجارة الزيت قبل توليه القضاء: كان يعرف اللغة القبطية، وإنه (كان يدخل إليه الخصمان فيخاطبانه بالقبطية ويرد عليهما بها ويشهد عنده الشهود بالقبطية فيسمع منها ويحكم بها)[٢٠٣].

ويقال إنه يقضي بين العرب في صحن المسجد، وفي العصر يجلس على باب الجامع فيقضي بين القبط بلغتهم.

لكن تظل هذه النماذج فردية بالنسبة إلى أعداد القبط المقبلين على تعلم اللغة العربية والتحدث بها؛ وخصوصا حينما خُيل لبعضهم أن دخولهم الإسلام سيرفع عنهم عبء الضرائب وعبء الاضطهاد العنصري، وسيمكنهم من اتخاذ

---

[٢٠٣] الكندي: الولاة والقضاة: ولاية خير بن نعيم، ص ٣٥١.

مكانة أفضل في مصر الإسلامية بعد أن انسد أمامهم مخرج الفرار إلى الديور للتخلص من عبء الضـرائب.. فبـدأت أعداد قليلة تعلن إسلامها، وتشير وثائق البردي إلى أن (عدد من أسلم في البداية كان قليلا فذكرت في إحدى قوائم الخراج ١٣٠ اسمًا مسيحيًا واسمًا واحدًا إسلامياً)[٢٠٤].

ونلاحظ تغير رد فعل القبط إزاء العرب الحـاكمين منـذ عام ١٠٧ هـ، وفيه بدأت ثورات القبط في التوالي والتتـابع حتى عام ٢٢٦ هـ؛ حينما قمع المأمون قبط مصر ونكل بهم وأعمل فيهم السيف فما أبقى، والأسر فلم يرحم أحدًا مما أدى إلى انكسار شوكة الثورات القبطية لأزمان طويلة قادمـة... ويبدو أن القبط قبل عام ١٠٧ هـ ـ؛ كـانوا يلجـأون إلـى استخدام أساليب المقاومة السلبية، ومن أبرزها الفـرار إلـى حياة الرهبنة والأديار المعفاة من عبء أداء الجزية وأنـواع الضرائب الأخرى؛ حتى ألغى عبد العزيز بن مـروان هـذا الامتياز، وأحصى جميع الرهبان وختمهم وفرض عليهم أداء الجزية، فانسد هذا الباب أمام القبط الفارين. وبـدأت، مـع زيادة شدة الجباة والولاة وتعسفهم، ثورات القبط عـام ١٠٧

---

[٢٠٤] أدولف جروهمان: وثائق البردي العربية بدار الكتب المصرية.

هـ. وفكر بعض دهاة العرب في ضرب القـبط الثـائرين بإحلال بعض القبائل العربية في موطنهم، وإتاحـة بعـض فرص الثراء أمامهم.. واستئذان عبد الله بن الحبحاب "متولي خراج مصر" الخليفة في السماح للعرب القيسية بالنزول إلى الحوف الشرقي؛ موضع ثورات القبط، عام ١٠٧ هـ، بعـد قمع الثورة وقتل زعمائها والقبض على عدد كبير من الرجال والنساء بالطبع. فنزل حوالي خمسمائة بيت – في البدايـة – من عرب الشام القيسيين، يزرعون ويسمنون الخيول للتجارة فيها، ثم توالت أعداد العرب القادمين بعد ما لاحظ أقرباؤهم مدى الثراء العائد على العرب القيسية من ذلك.

وبوفود الأعداد الكبيرة، بدأ نوع من الاحتكاك بين فلاحي القبط الرازحين تحت عبء زيـادة الضـرائب ومزارعـي العرب الحاصلين على امتياز احتكار المنطقة بأمر الخليفة.

وإحلال العرب ولغتهم في تلك المناطق خلق خليطًا مـن اللغات المستخدمة، ليست بالعربية الفصحى التي يسـتخدمها العرب الأقحاح، وإنما هجين لغوي جديد خـاص بمصـر، ولكن من سوء حظها أنها لم ترزق بعالم لغوي مثل الجاحظ يهتم بتسجيل لغة العامة من مختلف الطبقات مما يترك ثروة

من التشكيلات اللغوية الناتجة عن اختلاط وتهجين اللغتين العربية والقبطية.

وقد حاول بعض اللغويين رد الكلمات المصرية – الشائعة الاستخدام – إلى أصول عربية، كما في (القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب) لأبي السرور الصديق الشافعي (١٠٨٧ هـ) و(رفع الإصر عن كلام أهل مصر) الذي يعرض فيه صاحبه لما دخل اللغة العربية من لغة أهل مصر، ويحاول أن يرد بعض الكلمات إلى أصول عربية[٢٠٥].

---

[٢٠٥] الكلمات القبطية التي دخلت العربية من أسماء المسميات: برسيم، أردب، يم، أم قويق، حلق، تكيس، بقوطي، كعك، قلة، كحة، لقمة، لبشة، ماجور، تمساح، نبوت، مقطف، ننوس، نونو، بصارة، قاق، مشنة، مسلة، سمان، طورية، ذهبية، تندة، سنط، شرش، شونة، شوطة، شوربة، خن، رمان، شوشة، شبورة، بلح...

وفي لغة الأطفال كلمات قبطية مثل: تاتا؛ ومعناها يمشي، أمبو؛ أي ماء، واوا معناها ورم، بيبة أي برغوث، ومنها أفعال مثل شأشأ، فرفر، هلوس، هوش، لكلك، نكت، نط، فتفت، دمس (دفن) شلشل، شن، بشبش، هوس بمعنى تسبيح.

=

وقد صمدت الكثير من المفردات المصرية حتى العصـر الحديث، بعد مرور حوالي أربعة عشر قرنًا ويزيد، يرصدها مراد كامل في كتاب "حضارة مصر القبطية" لتشمل أسـماء أشياء وأفعال وتعبيرات كاملة.

وهذه الكلمات التي لازالت تعيش وتتألق حياة على لسـان المصريين حتى العصر الحديث؛ هي مجرد مثال لغيرها من آلاف الكلمات التي صارعت الموت عبـر قـرون طويلـة فاندثرت بعضها، وظل البعض الآخر.

وقد ظلت اللغة القبطية صامدة؛ خصوصًا فـي الريـف خلال القرون الأربعة الأولى للفتح العربي. ويذكر المقريزي أن بعض النساء القبط في الصعيد كن لا يتحدثن إلا بالقبطية الصعيدية حتى الزمن الذي عاش فيه المقريزي نفسه (القرن الخامس عشر الميلادي/ التاسع الهجري).

=

كذلك تعبيرات مثل: الورور للفجل الصغير، ولقلاق، وًجب بمعنى الساعة أو الوقت، والكاس بمعنى الألم، وتـوت للحـاوي بمعنـى اجتمع، وليلى بمعنى إفرح، وبح، وكاني ومـاني... لمزيـد مـن التفصيل، انظر؛ مراد كامل: حضارة مصر القبطية.

ويؤكد ماسبرو (أن بعض سكان صعيد مصر كانوا يتكلمون ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الأولى من القرن ١٦، في أوائل حكم الأتراك). أما أبو صالح الأرمني فيذكر في الكتاب المنسوب إليه "الكنائس والأديرة في مصر" أن نصارى "إسنا" حين كانوا يحضرون الحفلات وأفراح المسلمين كانوا يطوفون في الطرقات والميادين أمام العريس وهم يهتفون بعبارات قبطية صعيدية[٢٠٦].

ويستنتج سليمان نسيم من كل ذلك أن نهاية القرن السابع عشر شهدت اختفاء اللغة القبطية كلغة للحديث، وذلك في الصعيد الأعلى – أقوى مراكز اللغة القبطية – ويقارن بعد ذلك بين شواهد زوالها وشواهد ازدهارها الأول فيقول:

إنه لما قاربت اللغة القبطية على الزوال كتبها الأقباط بحروف عربية؛ بل لقد كثر استخدام هذه الطريقة بدليل وجود نسخ كثيرة منها بالمتحف القبطي كالأبصلمودية الكيهكية – مخطوط رقم ٤١١ – وكان هذا على العكس تمامًا

---

[٢٠٦] جاك تاجر: أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢ م / دكتوراه في الأدب من جامعة باريس، كراسات التاريخ المصري، ١٩٥١ م.

من موقف القبط؛ حين بدأوا يتكلمون العربية في أوائل القرن الثامن؛ أي قبل ذلك بعشرة قرون، بحروف قبطية.

ومنذ القرن الميلادي حتى القرن الثاني عشر، ظلت عوامل الضعف تدب على استخدام اللغة القبطية بفعل انتشار اللغة العربية بين المصريين رويداً؛ رويدًا حتى رأى البابا غبريال بن تريك (١٣١ – ١١٤٦ م) أن القبط يتكلمون العربية وخاصة في المدن ومراكز المديريات، فأصدر أمره بقراءة الأناجيل والخطب الكنسية وما إليها – باللغة العربية في الكنائس، وذلك بعد تلاوتها أصلا باللغة القبطية، وشعر خلفاؤه بخطورة هذا المبدأ لكنهم التزموا به)[٢٠٧].

ثم اختفت القبطية من المدن، وظلت في قرى الصعيد البعيدة حتى القرن (الخامس عشر/ السادس عشر) كما رأينا من قبل، أما المدن والقرى القريبة؛ وخصوصًا قرى الوجه البحري، فقد شهدت تغيرات أوسع بعد سلسلة القمع الدموي للأقباط الثائرين منذ عام ١٠٧ هـ وحتى ٢٢٦ هـ، بالإضافة إلى انكسار خط العزلة العربي الذي كان العرب يطوقون به أنفسهم فبدأوا يتخذون أماكن المرتبعات أماكن

---

[٢٠٧] سليمان نسيم: تاريخ التربية القبطية، ص ٩٧.

دائمة للإقامة، وينتشرون في القرى خـلال القـرن الثـاني الهجري، وهجرة قيس الكبرى عام ١٠٩ هـ، واتخاذها قرى الشرقية موطنًا دائمًا مع التمتع بالامتيـازات العاليـة حتـى خصهم بها ابن الحباب فكان ألف من القيسية يتناولون عطاء الخاصة... لكنهم فقدوا هذا الامتياز – فيما بعـد – فتغلـب هوى القيسية من الولاء لبني أمية إلـى الـولاء للعباسـيين وحالفوا القبائل اليمنية الموجودة بالحوف الشرقي ضد مظالم الولاة ونهمهم إلى جمع الخراج دون تفريـق بـين الأقبـاط الزراعين للأراضي والعرب الزارعين لها أيضًا. ثم دخلـت قبيلة تميم مصر مع العباسيين عام ١٣٢ هـ، وكان كل والي جديد يأتي من الشرق يحضر معه أهلـه وقبيلتـه وحلفـاءه ومواليه؛ أما قبيلة ربيعة فجاءت في خلافة المتوكـل، بعـد مذبحة المأمون لأقباط عام ١٢٦ هـ؛ بالإضافة إلى القبائـل الأخرى التي فضلت (اتخاذ مرتبعاتها منازل فيهـا بصـفة مستمرة بعد أن تركت الفسطاط نهائيًا مثل مدلج ومن حالفهم من حمير وذبحان الذين استقروا في خربتـا ومثـل حشـين وطائفة من لخم وجذام نزلوا أكناف صان وأبليل وطرابيه من الحوف الشرقي.

واختلط تاريخهم منذ ذلك الوقت، وأصبح لهم اسم واحـد يجمعهم هو أهل الحوف – بتحالفهم ذلك – قوة هائلة قاومت الدولة مقاومة عنيفة في عدد كبير من المعارك المريرة التي نشبت لأسباب تعود في معظمها إلى سـوء معاملـة الـولاة وجشعهم في أخذ الخراج، وخيانة المـوظفين، وهـذا يبـدو واضحًا عند النظر في ثورات أهل الحوف في الأعوام ١٦٨/ ١٧٢ – ١٧٣/ ١٧٨/ ١٧٩ – ١٨٠/ ١٨٦/ ١٩٠/ ١٩٤/ ١٩٨/ ٢٠٩/ ٢١٤/ ٢١٥/ ٢١٦ – ٢١٧/ ٢٥٣ هـ ـ ـ ـ .

ولا عجب في هذا؛ فقد كـانوا باعتمـادهم علـى الزراعـة واهتمامهم بما يمثلون مصلحة طبقة المزارعين في مصـر؛ بل لقد انتهى بهم الأمر إلى أن اشتركوا مع القبط في ثـورة أسفل الأرض (٢١٦ – ٢١٧) التي كانت ثورة المصـريين بعامة؛ بل الفلاحين بالذات والتي قام بقمعها جـيش الخليفـة المأمون)[٢٠٨].

فهل كانت نتيجة ذلك التجاور المكاني بين العرب اليمنيـة والقيسية، وبين قبط الحوف الشرقي، ظهور حالـة التـداخل

---

[٢٠٨] عبد الله خورشيد: القبائل العربية في مصر في القرو ن الثلاثـة الأولى، ص ٥٨.

والانصهار... أم ظلـت الفـوارق الشاسـعة قائمـة بـين الطرفين...؟ يمكننا الحديث عن بداية تـداخل – وإن علـى استحياء حيث ظلت العنجهية القبلية تطل برأسها وتحول دون الانصهار الكامل بين العرب والقبط حتـى ذلـك التـاريخ (١٢٦ هـ).

لقد أخذ العرب في الـزواج مـن نسـاء القـبط دون أن يسمحوا بزواج العربيات من القبط، وشاع بين العرب المثـل القائل (يأكلها التمساح ولا يأخذها الفلاح)؛ بمعنى أن العربي يفضل أن تهلك ابنته أو أخته أو قريبتـه وتمـوت علـى أن تتزوج من قبطي سواء أكان فلاحًا أم غيره، ولذلك نلاحظ أن حركة التزوج والتناسل بين الطرفين – في العمـوم – ذات اتجاه أحادي يبتلع النساء المصريات في المجـرى العربـي الذي كان الرجال فيه يتزوجون من عدة زوجات ويستمتعون بأي عدد شاءوا من الجواري والإماء.

والأقباط الذين تدفعهم كثرة الضـرائب، وشـدة الجبـاة والولاة، وحرمانهم من الامتيازات التي كـان يتمتـع بهـا العرب؛ بالإضافة إلى القيـود المفروضـة علـى ممارسـة طقوسهم الدينية بحرية (فلا يرتفع ناقوس أو تعلو تـرانيم)،

وأصبحت الكنيسة في كثير من الأحوال عاجزة عن الـدفاع عن نفسها، فضلا عن الدفاع عن رعاياها من الشعب القبطي أمام تقلبات مزاج الولاة وعسف جنودهم[٢٠٩].

وبمرور الأيام وتوطيد دعائم الحكم العربي؛ كانت الحلقة تضيق حول وضع الأقباط المصريين، ولم يعد التقسيم الأول بين كونهم أهل ذمة يدفعون الجزية والخراج، ويعيشون فـي معازلهم بعيدًا عن العرب، حاميًا لهم؛ بل كانوا يتعرضـون لضيق حلقة العزلة من حولهم رويدًا رويدًا. وكان ضـعف الكنيسة يتضح أكثر فأكثر؛ بل كـان هـذا الحصـار يـدفع الكنائس والرهبان إلى المزيد من الانغلاق والجمود، والدخول

---

[٢٠٩] سنجد بعد ذلك أمثلة قاسية مثلما حدث حينما أمر الحاكم بأمر الله الفاطمي بمنع الحديث باللغة القبطية في البيوت والطرق ومعاقبـة كل من يتحدث بها بقطع لسانه، فاضطر القبط إلى وضع السـتائر على أجنحة الهياكل وقت صلاة القداس وإجراء الخدمة الإلهية سرًا خوفًا من الحكام الذين كانوا إذا سمعوا الصلاة بهذه اللغـة هجمـوا على الكنائس، وفتكوا بمن بها بلا رحمة. لمزيد مـن التفاصـيل، انظر المقريزي: المواعظ والاعتبار، الجزء الأول، ص ٨٠.

في ظلامية القرون الوسطى، ويمكن أن نلحظ خط الحضارة القبطية المنحدر منذ القرن الثامن الميلادي.

ومن جانب آخر كان إسلام القبط يعفيهم من بعض المظالم، ولكنه لا يفتح لهم باب الاندماج الكامل في حياة العرب، ولا يسمح لهم بحالة التساوي الكامل معهم، وظل الأصل القبطي مدانًا؛ وكأنه وصمة تطارد صاحبه حتى بعد إعلان إسلامه، ودخوله الحياة الجديدة في وضع أدنى مرتبة من السادة ذوي الأصل العربية والعنجهية القبلية.

وقد أثيرت تلك العنصرية السلالية فيما يسمى بقضية أهل الحرس التي شغلت الرأي العام المصري زمنًا طويلا (١٨٥ – ١٩٤ هـ).

وأهل الحرس هم جماعة من القبط المصريين الذين أسلموا، ورغبوا في أن يتساووا مع العرب في جميع الأوضاع الاجتماعية، فكتبوا لأنفسهم نسبًا يعود إلى (حوتك) إحدى القبائل العربية. فثارت عنصرية عرب مصر (ورفضوا أن ينتسب غير عربي إليهم... وتحرش العرب بهؤلاء القوم وآذوهم، فجمع أهل الحرس من بينهم نقودًا دفعوها إلى القاضي العمري ليثبت لهم نسبًا عربياً). وأتوا

بعض أعراب الحوف الشرقي ليشهدوا معهم أن نسبتهم إلـى بني (حوتكة) من (قضاعة)، وقبل القاضي العمـري شـهادة عرب الشام (وسجل لهم نسبًا بذلك فثار عرب مصـر وقـام الشعراء يهجون القاضي وأهل الحـرس)، فيقـول أحـدهم ويدعى يحيي الخولاني:

ومنْ أعجبِ الأشـياءِ أن عصـابةً مِنْ القبطِ فينا أصبحوا قد تعربـوا
وقـالوا أبونـا حوتـك، وأبـوهم مِنْ القبط علـج حبلـه يتذبـذب

وفي البيت الثاني (حبله يتذبذب) إشارة إلى التمييـز فـي الملبس الذي كان يفرض على قبط مصر، أن يربط الرجـال والنساء زنارًا في وسطهم، بالإضافة إلى التمييزات الأخرى في اللون ونوع الملابس.

ويقول آخر (معلى بن المعلى الطـائي) موجهًـا حديثـه للقاضي العمري الذي أثبت لهم هذا النسب العربي:

إنْ كنـــت قـــدْ ألحقْـــتَهم عربـــا فَـــزوجهم بنَاتَـــك[٢١٠]

وفي ذلك إشارة إلى استحالة زواج القبطي مـن المـرأة العربية، وحتى إذا أسلم القبطي وسقط حاجز اختلاف الدين؛

---

(٢١٠) د. محمد حسين كامل: أدب مصر الإسلامية، دار الفكر العربي، ص ٢٥.

فإن هذه الصعوبة أو الاستحالة ظلت قائمـة لـزمن طويـل لتكشف عن العنصرية القبلية وليست العنصرية الدينية فقط.

ويمكننا أن نلمس بعض الاختلاف بين موقـف العـرب الشماليين والعرب ذوي الأصول الجنوبيـة بالنسـبة لأهـل الحرس، فيذكر الكندي أن العرب اليمانية ومن ينتمي مـنهم إلى قبيلة قضاعة بالذات هم الذين وقفوا إلـى جانـب أهـل الحرس واعترفوا لهم بنسب عربي؛ أو بمعنى آخر، لم يكـن عندهم غضاضة في قبول فكرة مساواة القبط معهم في شتى مناحي الحياة، وفي إمكانية الاختلاط والانصهار والتـزواج واختلاط الأنساب والتساوي في المجـالس وارتيـاد أنديـة العرب ومواضع الشورى لـديهم.. خصوصًـا وأن بدايـة التداخل والجوار الحسن قد بدأت بين هؤلاء العرب اليمانيـة الذين كانوا يحتلون أسفل قاعدة ديوان العطـاء، ويحصـلون على أقل حصص الأموال المستنزفة من مصر لأنهم كـانوا من الجند ذوي المرتبات الأقـل؛ بـل والتـي أخـذت فـي الانخفاض والتلاشي أكثر فأكثر بفعل تحيزات الولاة وسـوء سياستهم، حتى انتهى الأمر بهؤلاء العـرب ذوي الأصـول

الجنوبية إلى تفضل الإقامة في المرابع، والاشتغال بزراعـة الأرض ومجاورة القبط.

ولم يكن لدى هؤلاء العـرب ذوي الأصـول الجنوبيـة والمضارين من عنصرية عـرب الشـمال غضاضـة فـي التساوي مع أهل الحرس.

وظل الأمر مثارًا للخلاف والشجار حتى تولى القاضـي البكري أمر القضاء (١٩٤ – ١٩٦ هـ)، ومـال إلـى رأي عرب الشمال في عدم صحة نسب أهل الحرس، ودعاهم إلى دار القضاء، ويروي الكندي أنهم حينما ذهبوا إليـه (أخـرج البكري مقراضًا من تحت مصلاه فقطع قضية العمري، وقال لهم: العرب لا تحتاج إلى كتاب من قاضٍ. إن كنـتم عربًـا فليس ينازعكم أحد)[٢١١].

وألغى البكري حكم القاضي الذي سبقه، ومزق الشـهادة التي تثبت هذا النسب، ففرح العـرب المتعصـبون، وأخـذ شعراؤهم ينشدون أشعارًا تهجو القبط جميعًـا وتحـط مـن شأنهم، فيقول معلى الطائي الذي سبق وسبهم:

يا بنـي البطـراءِ موتـوا كمـداً واسخنوا عينًا بتخريـق السـجل

---

[٢١١] الكندي: الولاة والقضاة، ص ٤١٤.

لـــو أراد الله أنْ يجعلكـــم من بنـي العبـاس طُـرا لفعـل
لكــن الــرحمن قــد صــيركم قبط مصـر ومِـنْ القـبط سـفَلْ
كيـف يـا قـبط تكـون عربـاً ومـريس أصـلكم شـر الجيـلْ

وقال يحيى الخولاني:

اشـكروا الله علـى إحسـانه قَلـه الحمـد كثيـرا والرغَـبْ
رجـع القـبطُ إلـى أصـلهم بعـد خـزي طوقـوه وتعـبْ
ودنـانير رشُـوها قاضـياً جائرا قـد كـان فينـا يغتصـبْ

وقال طاهر القيسي يمدح القاضي البكري:

ولقد قمعت بني الخبائـثِ عنـدما راموا العلى وتحوتكوا وتعربـوا
فـرددتُهم قبطًـا إلـى آبـائهم ونسيب أصلهم الذي قـد غيبـوا
وتركْتهم مثلا لكل ملصـق نسـباً إذا التقت المحافـل يضـرب[٢١٢]

وبعد انتهاء قضية أهل الحرس بنفي أصولهم العربية، لم تهدأ ثائرة العرب ضد أقباط مصر الداخلين في الإسلام؛ بـل احتدت النبرة أكثر من زمن المأمون بعد القضاء على ثورات الحوف الشرقي، وقمـع قبطهـا وعربهـا ذوي الأصـول الجنوبية.

ففي أثناء ولاية لهيعة بن عيسى على القضاء قرب منـه عددًا من مسلمي القبط، واتخذ من بعضـهم مسـاعدين لـه

---

[٢١٢] الكندي: الولاة والقضاة، ص ٤١٤.

(فأسند كتابة القضاء إلى سعيد بن تليد – وكانت كتابة القضاء في ذلك العهد من أسمى ما يصبوا إليه الفقهاء – كما اتخـذ شهودًا جعلهم بطانته منهم معاوية الأسواني وسليمان بن برد وغيرهما في نحو من ثلاثين رجلا).

مما أثار العرب ضد هذا القاضي، وضد مسـلمي القـبط الداخلين مجال العمل الفقهي والشرعي أو قـدس الأقـداس العربي الإسلامي، ونظم الشعراء القصائد المعبرة عن هـذا الموقف الجمعي الرافض، وتصاعد سخطهم حتى شمل القبط جميعًا، وأخذ الشعراء يحطون من شأن القبط مـرة أخـرى، كما حدث في قضية الحرس السابقة:

فيقول الشاعر أبو شبيب أنيس بن دارم:

قـــــبح الله زمانـــــــاً ... رأس فيـــه ابـــن تليْـــد
بعـــد مقـــراض وخـــيطٍ ... وأبيْـــــــراتٍ حديـــــــدْ
وأبـــو الزنبـــاغ خنـــاق ... غراميـــــــل العبيـــــــد
بعـــد ســـيف خشـــبي ... وســـهام مـــن حديـــدْ
وابـــن تـــدراق الأفـــا ... نـــين البليـــدين التليـــدْ
وابـــن بكـــار كراكيـــر ... وغطـــــاس الثريـــــدْ
وأبـــو الـــروس المريســـي ... بـــن دبـــاغ الجلـــودْ
واللقـــيط ابـــن بكيـــر ... نطفـــةُ القـــدم الطريـــد
وابـــن ســـهمٍ حـــارس ... الجيـــزة حلـــوان البريـــدْ
عصـــبة مـــن طينـــةِ النيـــل ... ميـــــامين الخـــــدودْ

لبسـ ـ ـوا بعـ ـ ـد التبـ ـ ـابين نَفيسـ ـ ـ ـ ـ ـات البـ ـ ـ ـ ـ ـرودْ
لازمـ ـ ـوا المسـ ـ ـجد ضـ ـ ـلا لا مـ ـ ـن الأمـ ـ ـر الرشـ ـ ـيدْ
لحوانيـ ـ ـ ـ ـ ـت بنوهـ ـ ـ ـ ـ ـا بفنـ ـ ـا كـ ـ ـ ـل عمـ ـ ـ ـود
وتسـ ـ ـ ـ ـوموا وتكنـ ـ ـ ـ ـ ـوا بعـ ـ ـد جـ ـ ـرج وشـ ـ ـنود[٢١٣]

فالقضية – إذن – ليست قضية الإسلام.. وليست قضـية اختلاف الأديان، فقد دخل أهل الحرس والإسـلام، ودخـل الثلاثون رجلا المحيطين بالقاضي لهيعة بن عيسى الإسلام، وأتقنوا اللغة العربية كأبنائها، ونبغوا في علوم الفقه والتفسير وغيرها من العلوم العربية.. وتبنوا الثقافـة العربيـة قلبًـا وقالبًا.. وصاروا نموذج المصري الحامـل للعقـل العربـي الوافد. ولم يشفع لهم كل هذا؛ بل أصـرت الـروح القبليـة المتعصبة على أن تضعهم في مرتبة أدنى.

رغم أن العرب كانوا يسكنون أرض القـبط، وينعمـون بثروات القبط، ويأكلون مما يزرع القبط.. إلا أن شـعراءهم يعبرون عن ترفع العرب على سائر القبط ومهنهم، وكأنه من المسلمات الطبيعية أن يعمل القبط للعـرب؛ ويكونـون فـي

---

[٢١٣] حسين كامل: أدب مصر الإسلامية، ص ١٦٩.

مرتبة الخدم... فكيف يخرق القبط هذه النواميس ويزاحمون العرب في مكانتهم الشرفية...!!!

ويمكن أن نتعرف من خلال تلك القصيدة علـى أنـواع الحِرف التي يقوم بها قبط مصر ما بين الحياكـة والحـدادة، والشاعر يخصص الحداد الذي يصنع نوعًا من القيود تستخدم في ربط العبيد وجرهم، وهو هنا يعيـرهم بحقـارة عمـل الحدادة، لكنه من ناحية أخرى لا يدين إليه تحويل الأحـرار إلى عبيد ولا يدين التجارة فيهم؛ وهي التجارة التي نشط فيها الكثير من العرب، فقط يدين صناعة الطوق بصرف النظـر عمن يقوم باستخدامه وفي أي الأغراض يفعل ذلك.

ومن الحرف الأخرى التي يعير الشاعر العربـي القـبط لقيامهم بها: النجارة وصناعة الطعام ودباغة الجلود والعمـل بالبريد – كما يذكر أسماء رجال من القبط هم على ما يبـدو أسطوات الحرف المشهورين في كل مهنة مثل: (أبو الزنباغ – بن تدراق – ابن بكار – أبو الروس المريسي – ابن لقيط – وابن سهم).

وشهرة حِرفي القبط لم تكن محصورة بربوع مصر فقط؛ بل كانت تنتشر في آفاق هذا الزمان من قبل الفتح العربي..

ومنتجات القبط كانت إحدى عجائب ذلك الزمـان، فشـكلت بملامحها الخاصة سمات الحضارة القبطية لقرون طويلـة.. وبنيت على أساسها دعائم الحضارة الإسلامية فـي مصـر، فأخذت كل سماتها وطوتها بين أجنحتها... ولازالـت حتـى الآن شواهد الحضارة القبطية حاضرة في المتحف الإسلامي في فن النسيج الذي عرف باسم القبـاطي، ويـرى بعـض الباحثين أنه قد وجدت مصانع نسيج تخصصت في صـناعة ملابس الأغنياء أو الخاصة، ومصانع أخرى لإنتاج ملابـس العامة (أطلق عليها اسم طراز الخاصة). ولا زالت توقيعات نساجي القبط على العمائم الإسلامية في المتحـف، وتشـهد وحدتها الزخرفية بسمات الحضارة القبطية المحبـة لرسـوم الطيور والحمام والأعناب وغيرها من السـمات المصـرية الخالصة.

ويصف د. "حسن الباشـا" فـي كتـاب فـن التصـوير الإسلامي: (عمامة من الكتان الأبيض يزخرفها شريط أفقـي منسوج بالصوف الملون به رسوم طير، يعلوه شـريط مـن الكتابة العربية بالخط الكوفي ينسب العمامة إلـى صـاحبها سويل بن موسى، ويؤرخ صناعتها بسنة ٨٨ هـ. وتتـألف

زخارف الشريط الحمراء من مناطق، وفي كل منهـا رسـم حمامةٍ محورة عن الطبيعة يفصل كل منطقة عـن الأخـرى رسم هندسي)[٢١٤].

وسنجد بصمات الحضارة القبطية في عمـارة المسـاجد نفسها، في المحراب المجوف المأخوذ عن محراب الكنيسـة، وفي المئذنة القبطية، ويذكر "البلاذري" فـي كتـاب (فتـوح البلدان) أن الوليد قد استعان بالقبط في إعـادة بنـاء مسـجد المدينة. وفي بناء مسجد دمشق والمسجد الأقصى؛ بالإضافة إلى قصر أمير المؤمنين، (ولما أعاد عمر بن عبـد العزيـز بناء الجامع النبوي في المدينة عهد بذلك إلى معماريين مـن القبط بنوا فيه أول محراب مجوف في الإسلام وقـد أخـذوا شكله من حنية الكنيسة)[٢١٥].

وقد تعود الأكاديميون أن يذكروا في تلـك المواضـع أن الحضارة القبطية تركت بصماتها على الحضارة الإسلامية..

---

[٢١٤] د. حسن الباشا: فن التصوير في مصر الإسلامية، دار النهضـة م، ١٩٦٦

ص ٢٤.

[٢١٥] د. حسن الباشا: فن التصوير في مصر الإسلامية.

ولكن: هل سألنا أنفسنا عن ماهية الحضارة الإسـلامية فـي القرنين الأول والثاني للهجرة.. وفيم تجلت...؟

في هذا الوقت يمكننا الحـديث عـن اسـتمرار وجـود الحضارة القبطية في مصر، وتجليها في شتى مناحي الحياة.. واستمرار ازدهار مراكز صناعية متنوعـة مثـل: مراكـز صناعة نسيج الكتان الأبـيض الشـهير المشـغول بخيـوط الصوف الدقيقة والبديعة الألوان وبخاصة اللون الأرجـواني في مدن نشـا ودلاص وأنصـنا وأشـمون، أمـا صـناعة المنسوجات الصوفية فكانت تنتشر في مدن مصر العليا مثل أخميم وقرية الشيخ عبـادة وأسـيوط واهنـاص والبهنسـا والفيوم.. وقد ذكر المقريزي مدينة تنـيس كأحـد مراكـز صناعة القباطي... ونجد في المتحف القبطـي ثـروة مـن الوبريات ذات الزخارف الهندسية والرسوم الحيوانية.. كمـا نجد نماذج للأغطية والوسائد والمفارش تعود إلـى القـرن السابع والثامن الميلادي/ الأول والثاني الهجري، وغيرها من لوازم الحياة المستقرة الآمنة داخل البيوت، مما يضفي عليها مسحة من ترف الحضارة.. حتى ولو كانت بيوتًـا بسـيطة لواحد من عامة الشعب.

وما بقي لنا حتى الآن من الآثار هـي مجـرد علامـات لحضارة غطت تفاصيلها شتى مناحي الحياة وتجلت في علوم الطب والصيدلة والكيمياء والحساب، كما تجلت فـي فنـون العمارة والبناء والزخرفة والخشب المطعم بالصدف؛ والـذي أخذه العرب فيما بعد، واشتهر باسم الأرابسك، بالإضافة إلى صياغة المعادن وصناعة أدوات النجـارة وأدوات الزراعـة التي لازالت تستخدم حتى الآن، كما هي في أعماق الريـف المصري مثل الساقية والشادوف والمنجـل وغيرهـا مـن الأدوات.

ويرى سليمان نسيم أنه مما ساعد على ازدهار الصناعات في العصر القبطي؛ انتقالها من المنـازل والمصـانع إلـى الأديرة أيضًا، حيث (انتقلت إلى الراهب المصـري براعـة الصانع المصري وفنه الدقيق، فـنهض بصـناعات النسـيج والخشب والتجليد والخزف والمسارج والأوانـي المعدنيـة والشمعدانات والمباخر والتحف المعدنية والزجاج)[٢١٦].

---

[٢١٦] سليمان نسيم، تاريخ التربية القبطية.

وقد أجاد الأقباط صناعة سبعة أصناف من الورق للكتابة مما يدل على مدى ازدهار العلوم الكتابية التي اهتمـت بهـا الكنيسة على وجه الخصوص.

وكان مجيء العرب في القرن السادس المـيلادي وقـت ازدهار الحضارة القبطية بشتى فروعها المدنية والحياتيـة.. وإن كان صفوة العرب المشتغلين بالتجارة قد عرفوا مظاهر الحضارات المختلفة، ولكنهم تعاملوا معهـا جمعيًـا تعامـل التاجر والمستهلك لا تعامل الصانع والمبدع.. ينقلون قباطي مصر كما ينقلون حرير الشام وعطور الشرق وتوابله إلـى بلادهم، فيستهلك السادة تلـك المنتجـات ويـزدادون ثـراءً بالتجارة فيها، مما جعل استهلاك تلك المنتجات الحضـارية قاصرًا على دوائر ضيقة في المجتمعات العربية فـي مكـة بالذات وخصوصًا قريش، وبعض زعماء القبائل الكبيرة، أما فلول العرب وأعدادهم الغفيرة فلم تكن تستمتع بتلك المظاهر الحضارية لا منتجة ولا مستهلكة، ومن هنا كانـت الدهشـة الكبرى التي لفت الجيش العربـي بغلالتهـا أثنـاء دخـول الإسكندرية ورؤية القصور الشـاهقة والشـوارع اللامعـة ومظاهر الترف الواضحة في أحياء الرومان.. وعلى طـول

الطريق قبل الوصول إلى الإسكندرية كان الأفـق الأخضـر الوافر بالمحصولات المختلفة يملأ العيون، والميـاه العذبـة تجري بلا عوائق، والفلاحون من الرجال والنساء ينطلقـون في الحقول.

كانت تجليات الجنة ونعيمها كما حلم بهـا العربـي ابـن الصحراء تقابله في كل مكان وتأخذه بسـحرها. وإن كـان يفصله عنها بحر من الدم خاض فيه حتى قضى على أعدائه، وامتلكها... وأصبح كل ما في الجنة مسخرًا لخدمته: الفواكه والأعناب.. الأشجار والطيور.. الأنهـار الجاريـة.. اللـبن والعسل.. الرجال والنساء.. الذهب والفضة – مثـل معـادن جبال العلاقي التي نزحت إليها قريش وسـيطرت عليهـا – حتى الخمر التي وعد الله بها المؤمنين فـي الجنـة كانـت متوفرة. وكثير من الحكايات التاريخية تشـير إلـى إقبـال المسلمين الفاتحين على العب من كل الشهوات؛ بمـا فيهـا الخمر، وحادثة شرب ابن الخليفة عمر بن الخطاب للخمر لم تكن استثناءً وحيدًا؛ كما يروى عن القاضي البكـري الـذي حكم ضد قبط مصر في قضية أهـل الحـرس. إنـه كـان لا يجلس للقضاء إلا بعد الغذاء وبعد أن يشرب عدة أقـداح

من الخمر، ونجد في أخبار دعبل بن علي الذي حكم أسـوان بعض الوقت أنه كان يشرب النبيذ[٢١٧].

ويشير بعض المؤرخين إلى أن القبط كانوا يدفعون مقرر ضرائب الخمور مساويًا لمقرر ضرائب المنتجات الأخـرى كالخل والعسل. والحالات التي قرر فيها بعض الولاة تكسير دنان الخمور تؤكد أن صناعة الخمر واستهلاكه ظلت قائمـة طوال فترات الحكم العربي لمصر، إلا في استثناءات حـادة قليلة لبعض الحكام الذين كانوا يأمرون بالتضييق عليها.

* * * * *

وظلت صورة الجنة كما تخيلها العربـي تغلـف رؤيتـه لمصر، ويروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قـال: (لما خلق الله آدم، مثّل له الدنيا: شـرقها وغربهـا وسـهلها وجبلها وأنهارها وبحارها وعامرها وخرابها، ومن يسـكنها من الأمم، ومن يملكها من الملوك فلما رأى مصـر رآهـا أرضًا سهلة ذات نهرٍ جار، مادته من الجنـة تنحـدر فيـه البركة، ورأى جبلا من جبالها مكسوًا نورًا لا يخلو من نظر الرب عز وجل، فأومىء إليه بالرحمة. في سـفحه أشـجار

---

[٢١٧] انظر الأغاني للأصفهاني: الجزء العشرون، ص ١٥٩.

مثمرة، فروعها في الجنة تُسقى بماء الرحمة، فدعا آدم فـي النيل بالبركة، ودعا في أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى، وبارك على نيلها وجبلها سبع مرات. قال:

يا أيها الجبل المرحوم، سفحك جنة وتربتُك مسكة تـدفن فيها عرائس الجنة، أرض حافظة مطبقة رحيمـة، لا خَلَتْـك يا مصر بركة، ولا زال بك حفظة ولا زال منك ملك وعز، يا أرض مصر، فيك الخبايا والكنوز ولك البر والثروة. سال نهرك عسلا، كثر الله رزقك، ودر ضرعك، وزكا نباتـك، وعظمت بركتك وخصبت، ولا زال فيك يا مصر خير ما لم تتجبري وتتكبري أو تخوني، فإذا فعلت ذلك عداك شـر ثـم يغور خيرك)[٢١٨].

وكثيرًا ما كانوا يقولون: إن (نيلها يخرج من الجنة علـى حسب ما ورد به خبر للشريعة)[٢١٩]. فهي صورة الجنة على الأرض، وجمالها مشروط بمدى الخضوع للسيد العربي، فإذا تمردت عليه انقلب الجمال إلى شر مطلق.. خصوصًـا وأن ملامح هذا الجمال ومفرداته هي الخبايـا والكنـوز والبـر

---

[٢١٨] ابن ظهيرة: النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة.

[٢١٩] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص ٣٤٦.

والثروة، كما أن أهم شروط الإحساس بهـذا الجمـال؛ هـو استمرار سيلان الثروة في أيدي السيد العربي كمـا يسـتمر حلب اللبن من ضرع بقرة حلوب خصبة، وسـنجد تشـبيه البقرة الحلوب كثير التكرار فـي حـديث ابـن عمـر "در ضرعك"؛ بمعنى الدعاء لها بزيادة الثروة، ومرة يأتي علـى شكل حثّ مجنون لنهب الثروة؛ كما جاء في وصية الخليفـة سليمان بن عبد الملك لأسامة بن زيد التنوخي؛ متولي خراج مصر، فقال له:

(احلب حتى ينقيك الدم. فإذا أنقاك الدم حتى ينقيك القـيح! لا تبقيها لأحدٍ بعدي)[٢٢٠].

وجنون الاستنزاف الذي سيطر على الخليفة، جعله لا يقنع بمجرد حلب اللبن، فطالب متولي الخراج بحلب الـدم، ثـم لا يكتفي بحلب الدم فيطالبه بحلب صديد الجروح العميقـة، حتى يترك البقرة جثة هامدة ليس فيها شيء لأحد بعده.. وهو جنون لا يوازيه إلا نهم الخليفة إلى الطعام الذي كان يسيطر عليه ليل نهار حتى صار مضرب الأمثال في الشره. ويحكي الدميري في (كتاب حياة الحيوان الكبرى) أن سليمان بن عبد

---

[٢٢٠] المقريزي: المقفى الكبير، ص ٣٩.

الملك (كان نهمًا في الأكل وقد نقل عنه ... أشـياء غريبـة فمنها أنه اصطبح في بعض الأيام بأربعين دجاجـة مشـوية وأربعين بيضة، وأربع وثمانين كلـوة بشـممها، وثمـانين جردقة، ثم أكل مع الناس على السماط العام.)

ومنها أنه دخل ذات يوم بستانًا له، وكان قد أمر قيمـه أن يجني ثماره، ويستطيب له، وكان معه أصحابه فأكل القـوم حتى اكتفوا، واستمر هو يأكل فأكل أكلا ذريعًا، ثم اسـتدعى بشاة مشوية فأكلها، ثم أقبل على الفاكهة فأكل أكلا ذريعًا، ثم أتى بقعب يقصد فيه الرجل مملوء سمنًا وسويقًا وسكرًا فأكله أجمع، ثم سار إلى دار الخلافة وأتى بالسماط)[٢٢١].

وقد تمسك "أسامة بن زيد التنوخي" متولي خراج مصـر، بنصيحة الخليفة الشره إلى الطعام والثروات، وعمـل علـى جمع كل ما يستطيع من الأمـوال، وبعثهـا إليـه. ويعلـق المقريزي على أفعال أسامة بن زيد بأنه أتى بأفعـال تفـوق ما عمله فرعون واشتد على نصارى مصر وأمر بقتلهم وأخذ أموالهم ووسم أيدي الرهبان بحديدة تدل على اسـمه واسـم

---

[٢٢١] كمال الدين الدميري: كتاب حياة الحيوان الكبرى، الجـزء الأول، ص ٤٠٤.

ديره وتاريخه، فكان من وجد بغير وسـم ضـرب عنقـه.. وكتب إلى الأعمال بأن من وجد من النصارى ولم يكن بيده منشور يؤخذ منه عشرة دنانير)[٢٢٢].

وقد كان وصف مصر بالبقرة الحلوب شائعًا بين العرب، نجده لدى الخليفة عمر بن الخطاب في حديثه إلى عمرو بن العاص، وفي حديث الخليفة عثمان بن عفـان لعمـرو بـن العاص (لقد درت اللقحة بعدك يا بن العاص).

وبخلاف وصف البقرة أو اللقحة؛ نجد آخرين يصـفونها بسلة الخبز، لأنها كانت تبعث بالقمح إلى مكة والمدينة وتمير – أي تُعيش – الخلافة وتعطيها ما تحتاج له من الطعام.

أما أبو بصرة الغفاري فيشبهها بخـزائن الأرض كلهـا، وابن العاص كان يؤكد أن خلافة مصر تعدل الخلافة كلها!

وسواء كانت بقرة أو سلة أو خزانة فجميعهـا تشـبيهات تفصح عن معاني الاستنزاف التي تعرضت لها مصر علـى يد الفاتح العربي لأنها (معدن الذهب والجـواهر والزمـرد والأموال ومغارس الغلات)[٢٢٣].

---

[٢٢٢] المقريزي: المقفى الكبير.

[٢٢٣] السعودي: مروج الذهب.

فاستحاب العرب – كما يقتضي الغزو لدى كل الجيوش – ذهبها وجواهرها وأموالها وغلاتها، ونظروا إلى أهلها نظرة التعالي المطلق.

فكان القبط يزرعون للعرب، ويبنون للعرب، ويصـنعون للعرب.. ثم يحتقرهم العرب وينظرون إليهم من علٍ.

في ذات الوقت الذي كان يبالغ فيه العرب في مدح ثروات مصر، كانوا يبالغون أيضًا في ذم شعبها وتحقير شأن الرجال والنساء حتى وسموهم بكل علامات الشر المطلق، فيقول من يصفها بأنها معدن الذهب إلا أن في (أهلهـا مكـر وريـاء وخبث ودهاء وخديعة)[٢٢٤].

ويقول ابن عباس: إن المكر عشرة أجزاء؛ تسعة منها في القبط وواحد في سائر الناس.

أما الخليفة معاوية بن أبي سفيان الذي يقسم (أهل مصـر ثلاثة أصناف فثلث ناس وثلث يشبه الناس وثلـث لا نـاس، فأما الثلث الذين هم الناس فالعرب والثلث الـذين يشـبهون

---

[٢٢٤] المسعودي: مروج الذهب.

الناس فالموالي والثلـث الـذين لا نـاس المسـالمة يعنـي القبط)[٢٢٥].

ويبدو أن التعبير عن نظرة العرب الدونية لقبط مصر كان ضروريًا لاستمرار منطق العنجهية العرقيـة البـالغ فيهـا، واستمرار منطق الاستنزاف والسيادة لصالح الفارس العربي الذي يجب أن يحتل المكانة العليا في المجتمع بمقتضى حـد السيف، فيحتكر معها كل الصفات النبيلة الرفيعة بحد السيف أيضًا.

أما الشعب المحكوم والخاضع كليًا لمنطق الغـزو؛ فـإن السادة العرب يرونه من زاوية عـدم اسـتحقاقه للخيـرات المحيطة به: من زرع وماء وثروة وفي بعض الأحيان يرونه من زاوية عدم الاستحقاق للحياة نفسها.

والنتيجة الطبيعية في نظر الناس، أو الأشراف من العرب أن القبط أو اللا ناس ينتجون الثروة، والعـرب أو "النـاس" يستهلكونها ويغرقون في الاستمتاع بها. والصواب الوحيد في عين العربي الحاكم هو ضمان استمرار خضوع القبط للعرب لضمان استمرار استحواذ العربي على الثروة، ولـذلك فـإن

---

[٢٢٥] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ص ٥٦.

الحكام العرب نظروا إلى الثورات القبطية على أنها خـروج "اللا ناس" على ناموس الطبيعة.. وربما من هـذه الزاويـة تجاهل معظم المؤرخين العـرب أحـداث ثـورات القـبط، وتعاملوا مع مصر أثناء ذكر أخبار الفتح وكأنها أرض بـلا شعب. واستمروا على هذا النهج إزاء أحداث عام ١٠٧ هـ وتصاعدتها حتى بلغت ذروتها عام ١٣٢ هـ مـع نهايـة الدولة الأموية.

ومن المدهش أن نجد ثنائية الإشـادة بمصـر – الأرض والثورة والخيرات من ناحية، وذم الشعب ووصـفه بشـتى الصفات السلبية من ناحية أخرى – لـدى مـؤرخ مرهـف الشعور الاجتماعي مثل "المقريزي" الذي فطن إلى تفاصـيل الحياة الاجتماعية والسلوكية والعقائدية لدى الشعب، كما فطن إلى التمردات القبطية الكبرى، وخصص لهـا فصـولا فـي "كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطـط والآثـار"، بعكـس الآخرين الذين كتبوا عن مصر وكأنها أرض بـلا شـعب.. فتحها العرب بعد سلسلة معارك ضد الرومـان فانتصـروا عليهم وتمكنوا من تثبيت أقدامهم فيها وفرض الجزية علـى سكان يسمون في العموم بالأقباط.

أما المقريزي، فقد سجل صورة تمتلئ بالتفاصيل الحيوية عن حياة الشعب المصري في ظل الحكم العربي، ورغم هذا الحس الاجتماعي المرهف إلا أننـا **نجـد نفـس الثنائيـة المتعالية على الشعب.. ولم لا..؟ وهو المؤرخ المصـري؛ المولد والإقامة، العربي الثقافة والتكوين، رباه جده لأمـه، ويدعى ابن الصائغ، على المذهب الحنفي، ثم انقلب شافعيا بعد وفاته. وقد تولى عددا من الوظائف في ديوان الحكومة حتى أصبح محتسبا**؛ وهو منصب له مكانته العالية في شئون الحكم.

ونجد في كتابات المقريزي – شأنه شأن مؤرخي مدرسة التاريخ المصرية التي أسست على يد ابن عبد الحكم – فكرة العرب عن أنفسهم؛ وهم الحكام والغالبين، ونظرتهم للشـعب المصري؛ وهم المحكومين المغلوبين، ونتعرف مـن خلالـه على كل الأساطير السائدة وخرافات العرب عن المصريين.

ومن الغريب أن يفيض المقريزي في وصف المصـريين بالجبن والاستحذاء مؤكدًا – غير مرة – أنها صفات طبيعية منحتها لهم الطبيعة فالتصقت بهم جميعًا، وفي المقابل يصف

العرب بالشجاعة والإحساس بالكرامة كصفات أصلية، فيقول إن أهل مصر يغلب عليهم:

(الدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر والرغبة في العلم وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكذب والسعي إلى السلطان وذم الناس بالجملة فيغلب عليهم الشر والدنية التي تكون من دناءة النفس. وليست هذه الشرور عامة فيهم، ولكنها موجودة في أكثرهم ومنهم من خصه الله بالفضل وحسن الخلق وبرأه من الشرور، ومن أجل توليد أرض مصر الجبن والشرور الدنيئة في النفس لم تسكنها الأسد، وإذا دخلت ذلت ولم تتناسل، وكلابها أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان، وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره في البلدان الآخرى ما خلا ما كان منها في طبعه ملايمة لهذه الحال كالحمار والأرنب)[٢٢٦].

وهكذا يلصق المقريزي – نموذج العقل العربي المتعالي على المصريين – كل الصفات السلبية بالشعب المصري، ويختمها بطابع الأزلية والثبوت، حينما يدعي أنها صفات طبيعية تنبع من طبيعة الأرض ونوع المياه ولون السماء،

---

[٢٢٦] المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ص ٤٣.

ولا أحد يعلم كيف تولد الأرض الجبن والشرور الدنيئة في النفس، وكيف تولد أرض أخرى الشجاعة والخير والفضيلة...؟!

وكيف تولد الخضرة والمياه الجارية وتوافر المحصولات الشر والدناءة، بينما تولد الصحراء وحياة الندرة الشجاعة المطلقة...؟!

إنها فكرة العربي الذي ينشأ على الإغارة والحرب والغزو، فيعتقد أنه السلوك الأرقى طالما يمكنه من الحصول على احتياجاته وزيادته، ويضعه على رقاب الناس في مكان السيادة.. فيسمى القتال فروسية، والغزو جهاد في سبيل الله.. والقتل شجاعة...!!

وتأخذ عصبية العقل العربي حدًا لا يكتفي فيه بوسم المصريين فقط بتلك الصفات السلبية؛ بل إنه يذهب إلى وصف حيوانات المكان بنفس الصفات في تشبيه واضح يؤكد طابع الأزلية الكونية، فيؤكد أن مصر لا تصلح لسكنى الأسود، وإذا دخلت فأنها تذل ولا تتناسل، وحتى كلاب مصر تكون أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان ونباحها أضعف،

وأكثر الكائنات انسجامًا مع طبيعة تلك البيئة هـي الحمـار والأرنب!

وينسى المقريزي – ومن خلفه العقل العربي بأجمعه – أن الجزيرة العربية موطن السادة الأشراف والفرسان المغـاوير تخلو أيضًا من الأسود رغم اختلاف بيئتها عن بيئة مصـر. ورغم إفاضة العقل العربي في مقارنة النفس بالأسـود فـي الشجاعة والقوة في أشعارهم ومواطن فخرهم.

كما ينسى المقريزي أن مصر لم تخلُ تمامًا من الأسـود التي استخدمها الحكام العرب في عقاب الأقبـاط الخـارجين عن طاعة الحكام مثلما حدث في نهاية الدولة الأموية؛ حينما قبض الخليفة مروان بن محمد على رجال الكنيسة وسـجنهم وسلم (أغناطيوس القديس الشهيد إلى عشرة من الأسد)[٢٢٧].

وتذكرنا تلك الحادثة بتاريخ القبط الدامي مع الأسود منـذ العصور الرومانية، حيث كان يتسـلى الأبـاطرة والحكـام بمشاهدة الأسود تهاجم المعارضين في حلبـة المصـارعة، وتفتك بهم وسط صيحات الفرح والتشجيع.. وقد أعاد بعض الحكام العرب نفس التقليد ضد مخالفيهم من القبط.

---

[٢٢٧] ساويروس بن المقفع: ص ١٩٨.

وقد ترك هذا التاريخ الدامي أثرًا قاتمًا في استخدام القـبط لتشبيه الأسود، على عكس العرب الذين يتخذونه مضربًا في الشجاعة ومثالا لها.

وفي كثير من النصوص القبطية القديمة؛ نجد أن استخدام تشبيه الأسد يدل على الشراسة وحب سفك الدماء كمـا فـي وصف ساويروس بن المقفع لأحد الحكام العرب بأنه (كـان باغضًا للنصـارى سـفاك الـدماء رجـل سـوء كالسـبع الضاري)[٢٢٨].

ويقول في موضع آخر عن (ملك اسمه مروان ثار مثـل الأسد إذا خرج من الغابة جائعًـا يأكـل ويـدوس البـاقي برجليه)[٢٢٩] بعكس العرب الـذين يقـرون صـفة الأسـد بالشجاعة ويتيهون بأنفسهم حينما يقرنون أنفسهم به.

وعلى عكس فكرة المقريزي السابقة عن خلو مصر مـن الحيوانات الضارية لعدم صلاحية أرضـها المولـدة للجـبن والأخلاق الدنية، نجد في مصـر الكثيـر مـن الحيوانـات الضارية التي لا تسكن الجزيرة العربية مثل أنواع التمسـاح

---

[٢٢٨] ساويروس بن المقفع: ص ١٣٩: ص ١٢٢.

[٢٢٩] ساويروس بن المقفع: المصدر السابق.

والنمس وذئاب البراري والأفـاعي وغيرهـا، والحضـارة القبطية أبدعت في إدخال تلك الضواري ضمن أنساقها الفنية، كما أن العقل المصري حفظ الكثير من الحكايات عن حـب المصريين للحيوانات ومعاملتها برأفة وشـفقة وهـي عـادة موروثة عن الفراعنة الذين كانوا يكتبون على مقابرهم أنهـم لم يؤذوا حيوانًا في حياتهم تقربًا إلى الإله خالق الطبيعة.

وهناك منظر جميل لملاح محفور في الخشب، والمـلاح يداعب تمساحاً[٢٣٠] بيده؛ والتمساح من الحيوانات الضـارية التي تآلف خيالُ الفنان القبطي وصـورها بأسـلوب محبـب بجوار الحيوانات الأليفة مثل: الطيور والأسماك والأرانـب والغزلان، وهو يرى فيها جميعًا (الأليف والضاري) وداعـة ورقة مفرطة.

* * * * *

إلى جانب صفات الشر والدنية السابقة؛ نجد العقل العربي يلصق صفات المكر والكيد والخبث والدهاء بقبط مصر، مع التأكيد مرة أخرى على أنها صفات طبيعية لا شك فيهـا... وكثيرًا ما تأتي على لسان صحابة لهم شأن في الفكر العربي

---

[٢٣٠] مراد كامل: حضارة مصر في العصر القبطي، ص ١٤٢.

مثل ابن عباس الذي ينسب إليه قوله: (المكر عشرة أجـزاء تسعة منها في القبط وواحد في سائر الناس)[٢٣١].

وقول عبد الله بن عمرو بن العاص: (لما هـبط إبلـيس وضع قدمه بالبصرة وفرخ بمصر)[٢٣٢]. والأحاديث السابقة تضع صفات الكيد والمكر على كاهـل المصـريين وكأنهـا قدرهم الأزلي الذي تقتضيه نواميس الطبيعة، فكمـا تشـرق الشمس كل صباح يولد المصري ماكرًا أو شبيهًا بالشـيطان في أخلاقه وصفاته.

وهذه الصفات إن وجدت فهي بالضـرورة تنـتج عـن أوضاع اجتماعية معينة تضطر الإنسان إلى حمايـة نفسـه بوسائل الضعفاء... فنحن، إذن، أمام أمراض العلاقـة بـين العرب الحاكمين والقبط المحكومين، ولسـنا أمـام صـفات وراثية، فهي علاقة لا يمكن أن يكتنفها الإسلام، ولا أن يكون الحب والرضى أساسًا فيها.. وما حدث بين العرب والقبط في حاجة إلى دراسة من أكثر من زاوية، حيث إن هناك جانبًـا

---

(٢٣١) المقريزي: الخطط.

(٢٣٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار.

مسلحًا ومتفرغًا لشئون الحرب والقتـال وجمـع الأمـوال، والآخر أعزل ويدور في ساقية عمل قاسية.

طرف يشرع القوانين المستنزفة ويفرضها بقوة السـلاح، والآخر ظهره للحائط ويضطر إلى الدفاع دائمًا، وفـي تلـك الثنائية لا يمكن أن يحب الأعزل قاتله.

وفي الأوقات التي لم تصل الأمـور فيهـا إلـى لحظـة التمردات الكبرى، اضطر القبط إلى تجريب كـل الوسـائل السلبية لحماية النفس؛ فتـرددوا بـين الصـمت والتلطـف والاسترضاء، وحتى محاولات الفرار الجماعي من العمل في الأرض وتركها إلى الأديرة البعيدة حتى فطن الحـاكم إلـى ذلك، وسدوا تلك الثغرة بتشـديد القـوانين حـول الرهبـان والكنيسة.

وقد حدثت الثورات في أوقات كثيرة طغى فيها الجانـب العربي، وظن أن القبط خانعين دائمًا وخاضعين حتى الموت، فأتت نتائج الأحداث على عكس ما يتوقعون.

ويعود المقريزي إلى التأكيد عدة مـرات علـى أن كـل الصفات الرذيلة هي صـفات طبيعيـة، وإن تلطفـوا فيهـا

وحاولوا إخفائها تحت غلالة النفاق والبشاشة، ويستشهد فـي ذلك بأبيات أبي نُواس الذي يوجه حديثه إلى أهل مصر قائلا:

محضتكم يا أهلَ مصـر نصـيحتي ... ألا فخذوا مـن ناصـح بنصـيبِ

رمـاكم أميـر المـؤمنين بحيـةٍ ... أكـول لحيـات الـبلادِ شَـروبِ

فإن يك باقٍ إفـك فرعـون فـيكم ... فإن عصا موسى بكـف خصـيبِ

ثم يربط المقريزي بين نوع الطعام الذي يتناولـه أهـل مصر وبين أخلاقهم تبعًا للقاعدة التي تقول: (إن كل قوم قـد ابتنت أبدانهم من أشياء بعينها وألفتها ونشأت عليها) فيكـون طبعها وأخلاقها موافقًا لنوع الطعام الذي تأكل.

ولكن كيف تكون مصر بلـدًا كثيـر الخيـرات، وفيـر المحاصيل، ولا يأكل الشعب إلا الأغذية الرديئة (مما يؤكـد أمرهم في السخافة وسرعة الوقوع في الأمراض)، كما يقول المقريزي...؟!

إن سوء غذاء الناس وسوء حالهم وغلظة طبـاعهم يـدل على عدم انتفاع أهل مصر بخيرتها، واقتصارهم علـى مـا تبقى من الفتات الخشنة، فهي بلاد ذات وجهين أو ذات نوعين من المعيشة... وجه يرى ويحـس أنهـا (معـدن الـذهب والجواهر والزمرد والأموال ومغـارس الغـلات)، أو كمـا وصفها عمرو بن العاص للخليفة بن الخطاب:

(فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلـؤة بيضـاء، إذا هـي عنبرة سوداء، فإذا هي زمردة خضراء، فإذا هـي ديباجـة رقشاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء)[٢٣٣].

ويصفها آخر بأن (نيلها عجب، وأرضها ذهب، وخيرهـا جاب، وملكها لمن ساب، ومالها رغب، وفي أهلها صـخب، وطاعتهم رهب، وسلامهم شغب، وحروبهم حرب، وهي لمن غاب)[٢٣٤].

وهناك مفارقة واضحة بين شدة الإعجاب بالأرض وشدة التحقير لسكان الأرض؛ فمصر التي يراها عمرو بن العاص شجرة خضراء، أو لؤلؤة بيضاء، أو عنبـرة، أو زمـردة، وجميعها تشبيهات مستمدة من الجـواهر النفيسـة الخلابـة للعيون والساحرة للنفوس، يكون أهلها من وجهة نظره: (أهل ملة محقورة وذمة مخفورة يحرثون بطون الأرض ويبذرون

---

[٢٣٣] أبو المحاسن بن تغري بردي الأتابكي: النجوم الزاهرة، الجـزء الأول: ص ٣٢.

[٢٣٤] الحسين بن علي المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، تحقيق يوسف أسعد داغر، ص ٣٧٤.

بها الحب يرجون بذلك النماء من الرب، لغيرهم ما سعوا من كدهم)[٢٣٥].

وأهلها المحتقرون في هـذا الوصـف يحرثـون الأرض ويمارسون شتى أعمال الفلاحة والزراعة من أجل "غيرهم"، وليس لهم رأي في شئون السياسة، وهم في وضع الخسيس، وفي نفس الرسالة يقرر عمرو بن العاص سياسة السـيطرة على البلاد:

(ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها، وألا يستأدى خـراج ثمرة إلا في أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فـي عمـل جسورها وترعها. فإذا تقرر الحال مع العمـال فـي هـذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال)[٢٣٦].

ونجد ذات هذه الفكرة في الوصف الثاني الـذي يمتـدح أيضًا أرضها الذهب، ويذم أهلها الذين تكون طاعتهم رهب؛ أي خوفًا وجبنًا، في ثنائية تبرر فعل السـيادة نفسـها لقـوم

---

[٢٣٥] أبو المحاسن بن تغري بردي الأتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء الأول، ص ٣٢.

[٢٣٦] ابن تغري بردي الأتابكي: المصدر السابق.

يلهثون خلف الثروة، ويجبرون أهل الـبلاد علـى إنتاجهـا باستخدام شتى دروب العنف.

* * * * *

إنها الأرض التي يخرج نيلها من الجنة في نظر العربي، وتسير المرأة فيها "والمكتل فوق رأسها فيمتلئ ثمـاراً"؛ دون أن تبذل جهدًا في جمعه.

وهي التي تمتد ضياعها أينما وقعت العين علـى طـول الطريق من الفسطاط إلى الإسكندرية، ومن الفسـطاط إلـى رشيد، بطول الدلتا والنيل... فكانت الغلات والكروم في كل القرى. حتى أن ابن ظهيرة يصف كورة أسيوط بقوله: (لمـا صورت الدنيا كلها للرشيد لم يستحسن منها إلا كورة أسيوط لأن مساحتها ثلاثون ألف فدان في استواء الأرض. لو وقعت فيها قطرة ماء واحدة انتشرت في جميعهـا لا يظمـأ منهـا زرع، فيها يزرع الكتان والقمح (والقرطم) وسـائر أنـواع الغلات.

ومنها بلاد الأشمونيين: وما يعمل فيها من الأرز والكتان، ومنها مناسج الأرمني والـديبقي، والمثلـث، وبهـا الخـس والسفرجل والليمون.

ومنها أخميم: بلد عظيم وفيـه مـن العجائـب والآثـار والبرابي والطلسمات ما لا يعرف، وبـه الإهلـيج الكـابلي والأصفر (صنوبر)، وبها يعمل الطراز الصـوف الشـفاف والمطارف والمطرز والمقلم الأبيض والملون.

وقوص: فيها سائر أصناف التمر والخل والحطب الكاري الذي لا رماد له، والفحم الجافي وسـائر أنـواع الأرطـاب والكروم ومعادن الذهب والجواهر.

أما دمياط وتنيس فهما (حاضرتا البحر وبها من صيد البر والبحر من الحيتان والطير ما ليس في بلد في هذا الزمـان. ويزرع بها من قصب السكر والموز شيء كثير.

ولقد أخبرني من أثق به من أهلها أن الفدان منهـا مـن القصب يخرج منه السكر أربعون قنطارًا بالفُوي وهو مائـة قنطار بالمصري.

ومنها الفرما وبها البشر الفرماوي والرطـب والتمـر إذا فرغت أرطاب الدنيا وبسرها وجد هو.

وما بين عين شمس والفرما تربة وسيعة يزرع فيها الأرز والأترنج الأحمر الجافي وبها الحصر السـاماني والعبـداني ومنابته والكتان.

وبوصير وسمنود وفيها من الكتان الذي يحمل إلى بـلاد الإسلام والكفر وأقاصي ما لا يحصر، وبها الأترج الجـافي والإوز الذي لا يرى في خلقته ولا وزنه مثيل له وربما كان وزن الطير الواحد أربعين رطلا)[٢٣٧].

حتى العريش والجفار، وصف المسعودي مـا فيـه مـن الطير والجوارح (والمأكول والصيد والنمورة)، كـل هـذه الخيرات تركزت في بلد واحد قال عنه العـرب إنـه يميـز غيره، أي يعطي البلاد الأخرى الطعام بينمـا أهـل البلـد لا يأكلون إلا الرديء والسيئ من الطعام، فنجد (أهل الصعيد يغتذون كثيرًا بتمر النخل والحلاوة المعمولة من قصب السكر ويحملونها إلى الفسطاط وغيرها فتنباع هناك وتؤكل، وكثير من أهل مصر يكثرون أكل السمك طريًا ومالحًا ويكثـرون أكل الألبان وما يعمل منها، وعند فلاحيهم نوع مـن الخبـز يدعى كعكًا يعمل من جريش الحنطة ويجفف وهو أكثر أكلهم السنة كلها، وبالجملة فكل قوم منهم قد ابتنـت أبـدانهم مـن أشياء بأعيانها وألفتها ونشأت عليها إلا أن الغالب على أهـل

---

[٢٣٧] ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصـر والقـاهرة، ص ٥٣. فصل في ذكر كور مصر المشهورة.

مصر الأغذية الرديئة وليست تغير مزاجهم مادامت جاريـة على العادة)[٢٣٨].

أما أهل البشمور الذين كانوا كالشوكة في ظهر العـرب؛ الكثيرو الثورات، والمشهورون بالشدة والقوة: فإن (طبـاعهم أغلظ والبله عليهم أغلب وذلك أنهم يستعملون أغذية غليظـة جدًا ويشربون من الماء الرديء)[٢٣٩].

أما إسكندرية وتنيس وأمثال هذه المدن فقربها من البحـر وسكون الحرارة والبرد عنهم وظهور الصبا فيهم مما يصلح أمرهم ويرق طباعهم ويرفع هممهم ولا يعـرض لهـم مـا يعرض لأهل البشمور من غلظ الطبع والجمادية، وإحاطـة البحر بمدينة تنيس توجب غلبة الرطوبة عليهـا ممـا يسـر أخلاق أهلها)[٢٤٠].

والمقارنة بين أخلاق البشـموريين وأخـلاق المـدينتين المطلتين على البحر – إسكندرية وتنـيس – تـأتي لصـالح المدينتين؛ دون البشمور... فيم استحق أهل البشمور صـفات

---

[٢٣٨] المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ص ٤٤.

[٢٣٩] المقريزي: المصدر السابق.

[٢٤٠] المقريزي: المصدر السابق.

البله والغلظة وهم ثوار القـبط الأشـداء، واسـتحق أهـل الإسكندرية وتنيس صفات رقة الطبع ورفع الهمة وليس فـي تاريخهم تحت الحكـم العربـي ثـورات تعـادل ثـورات البشموريين؟!

وسبب ثورات البشموريين التي جلبـت علـيهم صـفات الغلظة والبله من وجهة نظر الحكام، هي أسباب اجتماعيـة ومعيشية قاسية دفعتهم إلى الثورة؛ ولا شأن هنا لمـا يهـب عليهم من رياح البحر أو غيرها.

سنجد الفقر المدقع في بلاد يسكنها مزارعـون وصـيادون وطحانون. يعانون البلايا الشديدة من متولي الخراج: أحمـد ابن الأسبط وإبراهيم بن تميم؛ فكانوا (يعذبونهم بعذاب شديد مثل بني إسرائيل إلى أن باعوا أولادهم في الخراج من كثرة العذاب، لأنهم كانوا يربطونهم في الطـواحين ويضـربونهم حتى يطحنوا مثل الدواب، وكان الذي يعذبهم رجـل اسـمه غيث وتمادت عليهم الأيام وانتهوا إلى الموت)[٢٤١]؛ فسـبب ثورة البشموريين – لدى ساويروس – هـو عسـف جبـاة

---

[٢٤١] ساويروس بن المقفع: ص ٢٦٨ (في زمن الأنبا يوساب).

الخراج، وإهانتهم لسكان البلاد، وتحميلهم مـا لا يطيقـون، وبالتالي لم يكن أمامهم بد من المقاومة.

أما المقريزي ومن خلفه العقل العربي: فيـرى أن سـر ثورات هؤلاء القوم يرجع إلى غلاظتهم الناتجة عن خشـونة الطعام وخشونة المياه والبيئة الجافة؛ وكلها عوامل طبيعيـة انطبقت على أماكن أخرى ولم تؤد إلى تفجير الثورة.

وعلى أية حال، إذا كانت خشونة أهل البشمور لا تعجـب العرب؛ فإن سهولة أهل تنيس لا تعجبهم أيضًا، ولكن لأسباب أخرى عكسية؛ فالمقريزي يصف أهلها بالميوعـة وانتفـاء الرجولة والتخنث؛ حينما يقول:

(أخلاق أهلها سهلة منقادة وطبائعهم مائلة إلى الرطوبـة والأنوثة قال أبو السري الطبيب أنه كان يولد بها في كل سنة مائتا مخنث)[٢٤٢].

وإن شئنا الدقة سـنجد أن ميوعـة الخلـق لا يقصـرها المقريزي على أهل تنيس فقط؛ بل إنه يصف أهـل مصـر جميعًا بقلة الغيرة على نسائهم في محاولة لتصوير المصري بارد الدم والأعصاب، لا يحرك ساكنًا للدفاع عن بيته ونسائه

---

[٢٤٢] المقريزي: ص ١٧٧.

ضد الغرباء، في مقابل دماء العرب الحارة وغيرتهم الشديدة على النساء التي تصل إلى حد منعهن من الخروج والاختلاط بالرجال وتحجيبهن عن جميع الأنظار. مما يعكـس وجهـة نظر السادة العرب – النافية للرجولة عن المصـريين فـي مقابل تأكيد رجولة وفحولة العربي الذي يضع نسـاءه فـي مرتبة واحدة مع ممتلكاته السرية؛ حيـث تتعـايش جميـع الأمراض السلوكية والنفسية خلف الأستار، وأي إخلال بهذا السد المنيع يقتضي الغضب وسوء الظن بالنساء.

ويحكي المقريزي حكاية أسطورية عـن هـلاك جميـع الرجال المصريين زمن قدماء المصريين مع فرعون أثنـاء عبوره البحر، حتى لم يعد إلا العبيد، ولـم تسـتطع النسـاء الصبر على الحياة دونما علاقات مع الرجال (فطفقت المرأة تعتق عبدها وتتزوجه، وتتزوج الأخرى أجيرها، وشـرطن على الرجال ألا يفعلوا شيئًا إلا بإذنهن فأجابوهن فـي ذلـك فكان أمر النساء على الرجال)[٢٤٣].

من يومها ونساء مصر يسيطرون على الرجال، أو كمـا يقول يزيد بن حبيب؛ أحد رواة الحديث: إن نساء القبط على

---

[٢٤٣] المقريزي: ص ٣٩.

شرطهن القديم حتى زمن كتابة تلك الحكاية في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، فهن على سنة أسـلافهن يقهرن الرجال ويخضعهم حتى أن الرجل لا يبيع ولا يشتري إلا بأمر زوجته.

وبذلك نجد العقل العربي يقلب الأوضاع ويصور الأمـر وكأن شخصية المرأة المصرية تطغى على الرجل فيكون هو الأضعف.. الأعجز عن التصرف في شـيء إلا بـالرجوع إليها، في مقابل صورة العربي الفحل قـاهر النسـاء كثيـر الزواج.. كثير الجواري والحريم، الذي يتفاخر بقدرته علـى كثرة الجماع، وتمتلئ كتب التـاريخ العربـي بمثـل هـذه الحكايات التي تنافس حكايات الأدب المكشوف، وتفوقها، كما تحفل السير الشخصية للكثيرين منهم بكم هائل مـن وقـائع التزوج والتسري و التعامل مع النسـاء باعتبـارهن مجـرد أدوات للذة الحسية.

وهكذا كتب المؤرخون العرب تاريخ مصر مـن وجهـة نظرهم، ونعتوا فيه المصريين بأشد الصفات سـوءًا حينمـا تحدثوا عن أخلاق وعادات وصفات المصـريين؛ ففسـروا

سمرة المصريين (بأنهم أولاد العبيد السود الذين نكحوا نساء القبط بعد الغرق واستولدوهن)[٢٤٤].

وذموا أخلاقهم بدعوى أنه: (يغلب عليها الاستحالة والتنقل من شيء إلى شيء والدعة والجبن والقنـوط والشـح وقلـة الصبر والرغبة في العلم وسرعة الخوف والحسد والنميمـة والكذب والسعي إلى السلطان وذم الناس، وبالجملـة فيغلـب عليهم الشر والدنية التي تكون من دناءة النفس)[٢٤٥].

بينما يرى العرب أنفسهم أنهم: (أتم الناس عقولا وأحلامًا وأطلقهم ألسنة وأوقرهم أفهامًا. واستتبع ذلك لهم كل قضـية وأورثهم كل منقبة جليلة)[٢٤٦].

أما نساؤهم فيقدمون صورهن على أنهن: (أعف النسـاء ولباسهم أفضل اللباس)[٢٤٧].

---

[٢٤٤] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ص ٤٩.

[٢٤٥] المقريزي: المواعظ والاعتبار.

[٢٤٦] الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، الجـزء الأول، ص ١٤٤.

[٢٤٧] الألوسي: المصدر السابق.

وفي المسافة بين الصورتين – صورة السادة الأشـراف العرب الحاكمين وصورة الشـعب المصـري المحكـوم – تراوحت اللغة العنصرية وصارت سجينة مشـتقات "أفعـل التفضيل" وبموجبها احتكر العرب صفات أحسـن وأشـرف وأتم وأعقل وأبلغ وأحلم، وغيرها من الصفات التـي كانـت يوميات الحرب والحكم تترجم وجهها العكسي.

وانحصر المصريون في الوضع الدوني، والتصقت بهـم صفات الشر والدنية ودناءة النفس.

وبناءً على هذا المنطـق القـائم علـى دعـائم التفـوق والصلاحية الطبيعية: رسخ العرب سلطتهم وهيمنتهم علـى الشعب القبطي الأعزل.

وظل المصريون يعانون من هذا الوضع، أو كمـا يقـول ابن ظهيرة:

(لم تزل ملوك مصر من بعد عمرو بن العـاص/ وإلـى وقتنا هذا يجمع كل واحد منهم أموالا عظيمة لا تدخل تحـت الحصر. وكذا الأمراء والوزراء والمباشرون على اخـتلاف طبقاتهم كل منهم يأخذ أموالا لا تحصى في حياته.)

هوامش الفتح العربي لمصر

الفصل الخاص بأحداث الفتح العربي لمصر بوثيقة يوحنا النقيوسي والواردة برسالة الدكتور: عمر صابر ص ١٧٣.

سار المسلمون إلى الصحراء، وأخذوا كثيرًا من الخراف والظباء من الجبل، ولم يعرف أهل مصـر هـذا، وعنـدما ساروا إلى مدينة البهنسا جاء كل الجنود الذين كـانوا عنـد شاطئ البحر مع يوحنا، ولم يستطيعوا أن يـأتوا فـي هـذا الوقت إلى مدينة فيوم.

وسمع تاودسيوس الحاكم بمجيء الإسماعيليين وكان يسير من مكان إلى مكان ليرى ما سيكون من هـؤلاء الأعـداء. وجاء هؤلاء الإسماعيليون وقتلوا رئيس الجند وكل من معـه دون رحمة.

وفي الحال فتحوا المدينة وكل من جاء إليهم قتلـوه ولـم يرفقوا بأحد لا شيخ ولا طفل ولا امرأة. وأتوا إلـى يوحنـا الحاكم، فأخذ الأفراس واختبئوا في الحظائر والمزارع حتـى لا يعرفهم مبغضوهم ونهضوا ليلا وساروا إلى النهر العظيم في مصر عند أبويط حتى ينجوا. إن هذا كان من الرب.

وأخبر رئيس العصبة الذي كان مع أرمياس قادة الإسلام بأمر جماعة الروم الذين اختبئـوا، فقـبض هـؤلاء علـيهم وقتلوهم. وتنـاهى هـذا الخبـر إلـى تاودسـيوس القائـد وأنسطاسيوس وكانا بعيدين عن مدينة نقيوس بمقـدار اثنـي عشر ميلا فتوجها في الحال إلى حصن بابليون وبقيا هنـاك، وأرسلا لونديوس الحاكم إلى مدينة أبويط وكان هـو بـدين الجسم ليست به قوة، لا يعرف شأن الحرب وعندما وصـل وجد جنود مصر وتيودور يقاتلون الإسلام، وكل يوم يـأتي من مدينة الفيوم ليستولي على المدينة وأخذ نصـف الجنـود وسار إلى بابليون ليخبر السادة. وصار نصف الجنـود مـع تيودور. وبحث تيوديور بعناية كبيرة عن جثة يوحنا الـذي غرق في البحر. وبعد حزن شديد أخرجه بشبكة ووضعه في نعش وأرسله إلى السادة، فأرسله السادة إلى هرقل.

ومن بقي بمصر كان يهتم بأن يتحصن بحصن بـابليون. وكذلك كانوا ينتظرون تيوديـور الحـاكم ليتلاقـوا لقتـال الإسماعيليين قبل أن يرتفع ماء النهر ويكون وقت الزرع فلا يستطيعون الحرب، لئلا يتلف زرعهم فيموتون جوعًـا مـع صغارهم وحيواناتهم.

الباب السابع والأربعون

وذلك في أمر وصية الملك.

وكان هناك نزاع كبير بين الرئيس تيودور والسادة، وجاء تيودور والسادة وجاء تيودوسيوس وأنسطاسيوس كلاهما إلى مدينة أون ممتطين فرسين مع كثير من المشاة ليحاربوا عمرو بن العاص والإسلام (والمسلمين) لم يكونوا يعرفون مدينة مصر من قبل وتركوا المدينة الحصينة وجاءوا إلى مكان يدعى طندونياس وساروا بالسفن في النهر، وكان عمرو ذا اهتمام عظيم وكبير ظن في أن يستولي على مدينة مصر، وكان حزين القلب لانفصاله عن جنود الإسلام.

وكانوا منقسمين قسمين شرقي النهر، وساروا إلى مدينة تدعى عين شمس وهي (أون) التي كانت أعلى الجبل.

وأرسل عمرو بن العاص رسالة خطية إلى عمر بن الخطاب في مدينة فلسطين قائلا إذا لم ترسل عونًا من المسلمين فلن يستطيع الاستيلاء على مصر، فأرسل هذا إليه أربعة آلاف محارب مسلم، وقائدهم اسمه (والواريا) من سلالة البربر، وقسم المحاربين الذين معه إلى ثلاثة أقسام: قسم منه جعله عند طندونياس، وقسمًا آخر جعله عند شمال

بابليون مصر، واستعد هو مع القسم الثالث عند مدينـة أون وأمرهم هكذا وقال لهم: انظروا: إذا جاء جيش الروم لقتالنـا فقوموا أنتم من خلفهم، ونحن كذلك نكون أمـامهم ونـدخلهم بيننا ونقتلهم.

وعندما خرج جنود الروم من الحصـن دون أن يعرفـوا ليحاربوا الإسلام حينئذ برز هؤلاء المسلمون من خلفهم كمـا دبروا، وكان بينهم قتال عظيم.

وعندما تكاثر المسلمون عليهم فر جنود الـروم وسـاروا بالسفن، واستولى محاربوا الإسلام على مدينة طندونياس لأن الجنود التي بها فنوا، ولم يبق مـنهم سـوى ٣٠٠ جنـدي، وهؤلاء فروا ودخلوا الحصن وأغلقوا الباب عليهم، وعنـدما رأوا هذا القتل العظيم الذي حدث خافوا وفروا بالسفن إلـى نقيوس في حزن شديد وأسف. وعندما سمع لمنديوس بمدينة فيوم هذا، نهض ليلا دون أن يخبر أهل بويط بأنه سـيهرب من الإسلام، وسار بالسفينة إلى نقيـوس. وعنـدما عـرف المسلمون أن دمنيانوس هرب ساروا في ابتهـاج واسـتولوا على مدينة فيوم وبويط، وأراقوا بها دمًا غزيرًا.

الباب الثامن والأربعون

وعندما استولى المسلمون على فيوم وكل ضواحيها أرسل عمرو إلى أبي كيري في مدينة دلاس ليأتوا بسـفن الريـف لتنقل الإسماعيليين الذين كانوا غربي النهـر إلـى الشـرق، وجمع إليه كل الجنود ليشنوا كثيرًا من الحروب، وأرسل إلى جيورجيس الوالي ليشيد له قنطرة عند النهر بمدينة فيلـوب ليستولي على كل مدن مصر ومدينة أتريب كذلك وكورديس وأخذوا يعينون الإسلام، فاستولى على مدينة أتريب ومنـوف وجميع ضواحيها. وكذلك شيد جسرًا على النهر عند بابليون بمصر حتى لا تمضي السفن إلى نقيوس وإسكندرية وأعلـى مصر، وحتى تعبر الأفراس دون مشقة من غرب النهر إلى الشرق وحاز كل مدينة مصر، ولم يكف عمرو ما صنع بـل قبض على حكام الروم وكبل أيديهم وأرجلهم بأغلال الحديـد والخشب ونهب أموالا كثيـرة بعنـف، وضـاعف فـرض الضرائب على العمال وكان يسخّرهم ليحملوا طعام أفراسهم، وارتكب آثامًا كثيرة لا تحصى.

وهرب من كانوا بمدينة نقيوس من السادة، وساروا إلـى مدينة إسكندرية وتركوا دمندووس مع قليل من الجنود ليحموا

المدينة، وأرسلوا كذلك إلى دارس رئيس حكام مدينة سـمنود ليحمي النهرين.

وبعد هذا حدث خوف عظيم في كل مدن مصـر، وكـان أهل المدينة يهربون ويلجأون إلى مدينة إسكندرية، وهجـروا كل أموالهم وخزائنهم وحيواناتهم.

الباب التاسع والأربعون

وعندما وصل هؤلاء المسلمون مـع المصـريين الـذين جددوا عقيدة المسيحيين وانضموا إلى عقيدة هذا المفتـرس، احتاز الإسلام كل أموال المسيحيين الـذين فـروا، وكـانوا يدعون عبيد المسيح أعداء الله. وترك عمرو كثيرًا من آلـه في حصن بابليون بمصر وسار هو شرقًا إلى تيودور الحاكم ناحية كلا النهرين الذي بقيري وسنفري ليستوليا على مدينـة سمنود، وليقاتلا الإسلام (المسلمين) وعنـدما بلغـا مجمـع الأقوام أبى جميع الأحزاب حرب الإسلام، فجمع هذان أناسًا وقتلوا كثيرًا من المسلمين الذين كانوا معهم، ولـم يسـتطع المسلمون أن يلحقوا ضررًا بالمدن التي تقع على كلا النهرين لأن المياه كانت حاجزًا، ولم تستطع الأفراس أن تدخل إليهـا لكثرة المياه التي تحيطهم، فتركوها وساروا إلى مدينة ريف،

وجاءوا إلى مدينة بوصير، فحصنوا المدينة والطـرق التـي استولوا عليها من قبل.

ومن هذه الأيام قدم تيودور الحاكم إلى كلادجـي ودعـاه قائلا: عد إلينا وعد إلى الروم. ووهب كلادجي تيودور كثيرًا من المال خوفًا منه حتى لا يقتل أمه وزوجته المختبئتين في إسكندرية. وطيب تيودور الحاكم قلب كلادجي فنهض هـذا ليلا والمسلمون نائمون، بينما يسير على قدميه مع آله، وجاء إلى تيودور الحاكم، ومن ثم ذهب إلى مدينة نقيوس وانضـم إلى منديانوس لحرب الإسلام.

وبعد هذا فكر سبنديس فكرة حسنة فهـرب مـن أيـدي المسلمين ليلا وسار إلى مدينة دمياط حيث يوحنـا الـوالي، وأرسله هذا إلى مدينة إسكندرية مع رسالة خطيـة معترفًـا بخطئه لدى السادة مع غزير من الدموع قائلا: هكـذا هـذا العمل الذي عملته بسبب الغرور والخسران الذي أصابني من يوحنا دون خجل بعد الشـيخوخة، ولهـذا انضـممت إلـى المسلمين. وقبل هذا بذلت جهدي مع الروم.

الباب الخمسون

ومكث عمرو رئيس المسلمين اثني عشر شهرًا يحـارب المسيحيين الذين كانوا في شمال مصر ولـم يسـتطع فـتح مدنهم. وفي الشهر الخامس عشر القمري وعندما جاء السيف سار إلى مدينة سكا ونوخـود ومصـاي مغضـبًا لقتـالهم المصريين قبل أن يفيض ماء النهر ولم يستطع أن يلحق بهم ضررًا، وفي مدينة دمياط كذلك لم تـرض عنـه، وأراد أن يحرق زروعهم بالنار، وبدأ يسير نحو جنوده الذين كانوا في حصن بابليون بمصر، وأعطاهم كل الغنائم التي أخذها مـن مدينة إسكندرية، وهدم بيوت السكندريين الذين هربوا وأخـذ أخشابهم وحديدها وأمر أن يمهدوا طريقًا من حصن بـابليون حتى يصلوا به إلى المدينة ذات النهرين ليحرق هذه المدينـة بالنار، وعندما سمع أهل المدينة (هذا) أخذوا أموالهم وفـروا تاركين مدينتهم خاوية، وأحرق المسـلمون هـذه المدينـة، فخرجوا ليلا وأطفأوا النار.

وسار المسلمون إلى مدن أخرى ليحاربوها، وسلبوا أموال المصريين وألحقوا بهم ضررًا.

ولم يستطع تيودور الحاكم ولومنديوس أن يلحقا أذى بأهل المدينة لأن الإسلام كان بينهم.

وغادر عمرو المدينة بحري مصر وسـار إلـى ريـف ليحاربها وأرسل قليلا من المسلمين إلى مدينة أنصنا، وعندما رأى المسلمون متاعب الروم وكراهيتهم لملك هرقل، للنفـي الذي أحدثه في كل مدينة مصر، للعقيدة الحقة بفضل كيرس البابا الخلقيدوني تقووا وتشددوا في الحرب.

وتشاور أهل المدينة مع يوحنا رئيسهم فـي أن يحـاربوا المسلمين، فأبى هو ونهض بسرعة مع جنوده، وجمـع كـل مال الضرائب من المدينة وسار إلى مدينة الإسكندرية لأنـه عرف أنه لا يستطيع مقاومة المسلمين، وحتى لا يحدث له ما حدث لأهل فيوم، فإن كل أهل المدينـة خضـعوا للإسـلام وقدموا له الضرائب، وكل من وجدوهم من جنود الروم كانوا يقتلونهم.

وكان جنود الروم في أحد الحصون فحاصرهم المسلمون، وأخذوا منجنيقاتهم ودمروا مساكنهم وأخرجوهم مـن بـين الحصون، وحصنوا حصن بابليون واسـتولوا علـى مدينـة نقيوس وحصنوا داخلها.

الباب الحادي والخمسون

وكان هرقل حزين القلب لموت يوحنـا رئـيس القـوم، ويوحنا الحاكم اللذين قتلهما المسلمون، وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا في مدينة مصر، وبأمر الله الـذي يأخـذ أرواح حكامهم والقوة التي لدى الملوك – مرض هرقـل بمـرض الحمى ومات في العام الحادي والثلاثين من حكمه في شـهر يكابيت عند المصريين، وفي شهر فبراير عند الـروم فـي الرابع عشر من دورة القمر، وفي عـام ٣٥٧ مـن تـاريخ دقلديانوس.

وكان الناس يقولون: إن موت هرقل كان بسبب ختم دينار الذهب بصور ثلاثة ملوك، إحداهما صورته والاثنتان صورتا ابنيه، واحد من الجهة اليمنى والآخر من اليسرى ولم يجدوا مكانًا يكتبون فيه اسم مملكة الروم، وبعد موت هرقل طمسوا هذه الصور الثلاثة.

الباب الثاني والخمسون

وظل عمرو رئيس جند المسلمين خارج حصن بـابليون، وحاصر الجنود الذين كانوا به وتسلموا رسالة مـن لدنـه،

ألا يقتلوهم وأن يتركوا لهم كل عدة الحرب وهي كثيرة. ثـم أمرهم أن يخرجوا من الحصن فأخذ هؤلاء قليلا من الـذهب وساروا. وبهذا المنوال تسلم حصن بابليون بمصر في اليـوم الثاني من (عيد) القيامة وجزاهم الرب؛ لأنهم لم يكرموا آلام الخلاص لسيدنا ومخلصنا يسوع المسيح الذي وهب الحيـاة لمن يؤمنون به، ولهذا جمعهم الرب بعدهم. وفي يـوم عيـد القيامة المقدسة هذا أطلقوا المسجونين الأرثوذكسـيين ولـم يتركهم أعداء المسيح هؤلاء دون أذى، بـل أسـاءوا إلـيهم وقطعوا أيديهم وكان هؤلاء يبكون ودمعهـم يسـيل علـى وجناتهم، واحتقروهم في هذا اليوم كما هو مكتوب في شـأن هؤلاء النجسين...

الباب الثالث والخمسون

وعندما استولى المسلمون على حصـن بـابليون وعلـى نقيوس كذلك. كان لدى الروم حزن عظيم. وعنـدما أنهـى عمرو أمر الحرب دخل حصن بابليون، وجمع كثيـرًا مـن السفن العظيمة والصغيرة وربطها عند الحصن الذي صـار به.

وأما ميناس الذي كان رئيس العمال، وقسما بن صـمويل مبعوث الألوانطس فقد حاصـروا مدينـة مصـر وضـايقا الرومان أيام المسلمين، وصعد المحـاربون بالسـفن ناحيـة غرب النهر في عظمة وفخامة، وكانوا يتحركون ليلا. وكان عمرو ومحاربوا المسلمين ممتطين أفراسًا، يسيرون برًا حتى وصلوا إلى مدينة كبرياس في أباديا، ولهذا السـبب حـارب دمنديوس الحاكم. وعندما عرف أن محاربي المسلمين اقتربوا منه صعد إلى سفينة، وهرب بالسفينة وترك الجنود مع سفنهم وكان يريد أن يعبر إلى نهر صغير حفره هرقل في أيامـه. وعندما وجده مغلقًا ذهب ودخل مدينة إسكندرية. ولمـا رأى الجنود أن حاكمهم فر، تركوا عدة حربهم ونزلوا في البحـر أمام أعدائهم فقتلهم جنود المسلمين بالسيف في البحر، ولـم ينج منهم سوى رجل واحد فقط اسمه زكريـا، وهـو قـوي محارب، وعندما رأى ملاحو السفن فـرار الجنـود هربـوا ودخلوا مدينتهم. ثم دخل المسلمون نقيوس واحتلوهـا، ولـم يجدوا أحدًا من المحاربين. وكانوا يقتلون كل من وجدوه في الطريق وفي الكنائس، رجلا ونساء وأطفالا ولم يشفقوا على أحد.

وبعد الاستيلاء على المدينة ساروا إلـى أمـاكن أخـرى ونهبوها وقتلوا كل من وجدوا، ووصلوا إلـى مدينـة قصـا فوجدوا اسقوطاوس ومن معه موجودين في سـاحة الخمـر فقبض عليهم المسلمون وقتلوهم، وكانوا من أقارب تيودور، ولنصمت الآن فإنه لا يستطاع الحديث عن الإساءات التـي عملها المسلمون حين استولوا على جزيرة نقيوس في يـوم الأحد الثامن عشر من شهر جنبوت في الخامس عشر مـن الدورة.

وبتعب كثير ومشقة أسقطوا سور المدينة واستولوا عليهـا في الحال وقتلوا آلافًا من أهل المدينة والجنود، ونهبوا كثيرًا من الأسلاب وأسروا النساء والأطفال، وتقاسموهم فيما بينهم وجعلوا هذه فقيرة.

وبعد قليل سار المسلمون إلـى مدينـة قبـروس وقتلـوا إسطفانوس ومن معه.

الباب الرابع والخمسون

وكانت مصر كذلك مستبعدة للشيطان. وكان بـين أهـل (الوجه) البحري خصومة شديدة وانقسـموا قسـمين: قسـمًا انضم إلى تيودور وقسمًا آخر أراد أن ينضم إلى المسـلمين،

وفي الحال نهض قسم على آخر ونهبوا أمـوالهم وأحرقـوا بلادهم بالنار، وكان المسلمون يخشـونهم فأرسـل عمـرو مسلمين كثيرين إلى إسكندرية، واستولى على كريون وهـي خارج المدينة، وهرب تيودور مع جنوده، وكان فـي هـذا المكان، وجاء إلـى مدينـة إسـكندرية، وأخـذ المسـلمون يحاربونهم، ولم يستطيعوا الاقتراب من حصن المدينة بينمـا كانوا يقذفونهم بالأحجار من أعلى الحصن، وأبعدوهم حتـى خارج المدينة.

وكان أهل مصر يحاربون أهل (الوجه) البحري ويختلفون (معهم) كثيرًا وكان قليل عقدوا سلامًا. وعندما انتهى بغضهم أنشأ الشيطان بغضًا آخر بمدينة إسكندرية فإن دومنـديانوس الحاكم وميناس القائد تباغضا فيما بينهما من أجـل الرياسـة وأسباب أخرى.

وكان تيودور القائد يلتقي بميناس ويكـره دومنـديانوس لفراره من نقيوس وتخليه عن الجنود.

.....

ثم نهض كيرس البابا وسار إلى بابليون حيث المسلمون، راغبًا أن يعمل سلامًا وأن يؤدي لهـم الضـرائب ليـدعوا

الحرب عن بلاد مصر. فرحب عمرو بمجيئه وقال له: حسنًا فعلت بخروجك إلينا، فأجاب كيرس وقال له: ومنحكم الـرب هذا البلد، من الآن لا يكون بينكم وبـين الـروم خصـومه، وحددوا عبء الضرائب التي تـؤدى، ولـم يقـل هـؤلاء الإسماعيليون شيئًا ما. ومكثوا منفردين أحد عشـر شـهرًا. ورحل الروم الذين كانوا بإسكندرية. أخذوا أموالهم وخزائنهم وساروا بحرًا ولم يعد أحد ثانية من جنود الروم. ومن كانوا يريدون المسير برًا كانوا يؤدون الضرائب كل شهر. وأسـر المسلمون لديهم ١٥٠ من الجنود و٥٠ من أهل المدينة رهينة وعقدوا سلامًا وكف الروم عن حرب المسلمين، والمسـلمون عن الاستيلاء على الكنائس ولم يقربوا شيئًا ما مـن عمـل المسيحيين وتركوا العبرانيين يقيمون بمدينة إسكندرية.

ولما انتهى البابا سار إلى بلدة إسكندرية، وقال لتيـودور ولقسطنطين القائد أن يقولوا هذا للملك هرقل، ويؤيدوه عنده. ثم اجتمع لديه كل الجنود والسـكندريين وتيـودور القائـد. وسجدوا لكيرس البابا، وقال لهم كلهم: إنه تعاهد مع المسلمين وأرضى قلوبهم كلهم بهذا العمل. وحين صار (الأمر) هكـذا جاء المسلمون لأخذ الضرائب وأهل إسكندرية لا يعملـون.

وعندما رآهم السكندريون استعدوا للحرب غير أن الجنـود والقادة جلسوا للتشاور، وقـالوا نحـن لا نسـتطيع حـرب المسلمين، بل يكون كما قال كيرس البابا، وأراد شعب المدينة أن يثوروا على البابا وأرادوا أن يقذفوه بالأحجار، وهو يقول لهم:

إنما صنعت هذا لإنقاذكم مع أبنائكم، واستعطفهم بكثير من البكاء والحزن، فاستحى منه السكندريون وأعطوه ذهبًا كثيرًا ليؤديه إلى الإسماعيليين مع الضرائب التي حددوها علـيهم. وأهل مصر الذين فروا عادوا إلى مدينة إسكندرية خائفين من المسلمين. وسألوا البابا وقالوا له: تأخذ لنا كلمة من المسلمين أن نعود إلى بلادنا ونخضع لهم.

فعمل لهم كما قالوا، واستولى المسلمون على كـل بـلاد مصر جنوبًا وشمالا وضاعفوا عليهم الضرائب ثلاثة أمثال.

وكان رجل اسمه ميناس قد عين من قبل هرقل الملك على (الوجه) البحري، كان عنيد القلب بما لا تعرفه الكتب، يكره المصريين جدًا. وبعد أن أخذ المسلمون كل البلد أبقـوه فـي وظيفته، وعينوا رجلا اسمه سينودا في بلاد الريف، وآخـر اسمه فيليكسانوس عينوه في مدينة أرجاديا التي هي فيـوم،

وهؤلاء ثلاثتهم يحبـون الـوثنيين ويكرهـون المسـيحيين ويضـطرون المسـيحيين أن يحملـوا العلـف للحيـوان، ويضطرونهم لحمل اللبن والعسل والفاكهة والكرات وبأعمال أخرى كثيرة. وهذا كله كان مضافًا إلى الطعام هؤلاء كـانوا يفعلون هذا خوفًا دون توقف.

ونهر أندريانوس الذي انطمر منذ زمن طويـل جعلهـم يحفرونه ليجري به الماء من بابليون بمصر حتـى البحـر الأحمر. وحملوا المصريين نيرًا أثقل من نير فرعون الـذي فرضه على إسرائيل الذي حكم عليـه الـرب حكـم الحـق وأغرقه في البحر الأحمر هو مع كل جيشه بعد كثيـر مـن العقوبات التي عاقبهم بها من الإنسان حتى الحيوان.

ولما كان حكم الله على هؤلاء الإسماعيليين فقد يصنع بهم كما صنع بفرعون أولا بل بسبب خطيئتنا صيرهم ليصـنعوا بنا مثل هذا، وبالروح الطويلة لإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح يرانا ويحفظنا، ونؤمن أيضًا بأنه يهلك أعداء الصليب، كمـا يقول الكتاب.

وألحق عمرو الخسران بـبلاد مصـر، وأرسـل أهلهـا ليحاربوا أهل المدن الخمس، وبعد الانتصار عليهم لم يتركهم

يقيمون هناك، وأخذ هو منها كثيرًا من الغنـائم والأسـرى وسار أبو ليانوس والي المدن الخمسة والجنود الـذين معـه وأغنياء المدينة إلى مدينة دوشرا لأن جدارها منيع، وأغلقوا الأبواب عليهم، وسار المسلمون آخذين الغنيمة والأسرى إلى بلادهم.

وكان البابا كيرس أسيف القلب كثيرًا للبؤس الذي كان ببلاد مصر ولم يشفق عمرو على المصريين، ولـم يعمـل بمـا تعاهدوا معه لأنه كان من نسل البربر.

ولما كان يوم عيد الشعانين مرض كيرس البابا بمـرض الحمى لكثرة حزن القلب ومات في اليوم الخامس للفرح، في الخامس والعشرين من شهر مجابيت ولم يشهد عيد القيامـة المقدسة لسيدنا يسوع المسيح.

.....

وبعد هذا قام تيودور الحاكم وقسطنطين رئيس الجيـوش والجنود الباقون وكذلك الجنود الذين كانوا رهينـة فـي يـد المسلمين، وصعدوا في سفينة جاءت إلى مدينة إسـكندرية. وبعد عيد الصليب عينوا الدياقون بطـرس بطريركًـا فـي العشرين من حملي من عيد القديس تيودور الشهيد وأجلسـوه

على كرسي البطريركية وفي العشرين من شهر مكرم قـام تيودور مع كل الجنود والرؤساء وسار إلى جزيـرة قبـرس وترك مدينة إسكندرية ومن ثم دخل عمرو رئيس المسـلمين دون تعب مدينة إسكندرية واستقبله أهل المدينة بتعظيم لأنهم صاروا في فقر وبلاء شديد.

الباب السادس والخمسون

ودخل الأنبا بنيامين بطريرك المصريين مدينة إسـكندرية بعد هربه من الروم في العام ١٣ وسار إلى كنائسه وزارهـا كلها. وكان كل الناس يقولون هذا النفي وانتصـار الإسـلام كان بسبب ظلم هرقل الملك وبسبب اضطهاد الأرثوذكسـيين على يد البابا كيرس وهلك الروم لهذا السبب، وساد المسلمون مصر.

وكان عمرو يقوى كل يوم في عمله، ويأخـذ الضـرائب التي حددوها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكـب شيئًا ما سلبًا أو نهبًا، وحافظ عليها طوال الأيام. ولما استولى على مدينة إسكندرية جعل نهر المدينة يابسًا كما تعلـم مـن تيودور العاصي وزاد الضرائب قدر إثنين وعشرين عصـا

من الذهب، حتى اختبأ كل الناس لكثرة البؤس وعـدموا مـا يؤدون.

وفي العام الثاني من دورة القمر جاء يوحنـا الـدمياطي الذي عين من لدن تيودور الحاكم وعاون المسـلمين حتـى لا يدمر المدينة، ونصب في مدينة إسكندرية وقـت دخـول عمرو إليها. وأشفق يوحنا هذا على الفقراء وأعطـاهم مـالا كثيرًا من ماله. وحين رأى بؤسهم أشفق عليهم، وكان يبكـي ألمًا لما أصابهم، وأقصى عمرو ميناس وعين يوحنا بدلـه، وميناس هذا زاد على المدينة الضرائب التي حددها عمـرو ٢٢٠٠٠ (اثنين وعشرين ألفًا) دينـار ذهـب ومـا فرضـه العاصي كان ٣٢٠٥٧ (اثنين وثلاثين ألفًا وسبعة وخمسـين) دينار ذهب وجعلها للإسماعيليين ولم يستطع أحد التحدث عن البكاء والنواح الذي كان في هذه المدينة حتى قدموا أبنـاءهم بدلا من الآلاف التي كانوا يقدمونها كل شهر، وانعـدم مـن يساعدونهم وقطع الرب رجاءهم (ورد المسيحيين إلـى يـد أعدائهم) لكن رحمة الرب القادرة تلحق الخسـران بالـذين يحزنوننا[٢٤٨].

---

[٢٤٨] حذفنا هنا الفقرة الأخيرة لعدم حاجتنا إليها – المؤلفة.

هوامش الفتح العربي لمصر

رحلة الانصهار

مقدمة بعد الرحيل

حكايات الدخول، كان الجزء الأول من هـوامش الفـتح العربي لمصر، والآن، فإن رحلة الانصهار هي الجزء الثاني من هوامش الفتح. والمادة التي جمعـت، والمراجـع التـي رجعت إليها المؤلفة، تدل على أنه كان مشـروعًا طموحًـا، ولكن كان للقدر كلمة أخرى، هو الآن مشروع لـم يكتمـل، ولكنه برغم ذلك – وبحالته هذه التي ينشر بها في هذا الكتاب – بحث مهم جدًا للمؤلفة، تعتقد أن الحقيقة وحـدها ثوريـة بطبيعتها وأنها الأولى بالإتباع لكل باحث نزيه.

وقصة هذا الكتاب تبدأ بحافظة جلدية لونها نبيتي، كانـت سناء تصطحبها معها في جولتها في مكتبات مدينة القـاهرة، وتجمع فيها "كروت" بحثها، في هذه الحقيبـة وجـدنا مـادة غزيرة مسجلة على "كروت" البحث، أول ما فعلناه، هو أننـا سجلنا المراجع المهمة والعديدة التي رجعت إليها الباحثة، ثم بدأنا في قراءة "كروت" البحث حتى نكون في الصورة – كما يقولون – وكان من عادة سناء أن تكتب المسودة الأولى في أثناء جمع المادة، لذلك وجدنا كراسًا من كـراريس تلامـذة المدارس منقطًا بزهور صغيرة بنية اللون، وفي الوسط رسم

لقاب باللون الأحمر مكتوب عليـه بالفرنسـية Coeur de Provence في هذا الكراس كتبت سناء سبعين صفحة تمثل بعض فصول كتابها، ورقمتها من أول صفحة مباشرة من ١ إلى ٦٩، وعلى باطن غلاف الكراس كتبت مقدمـة قصـيرة ولكنها شافية. واضح أن كل هذا كان مسودة أولـى لـبعض الفصول وعلى أحد "كروت" البحث، تصـحح سـناء خطـأ تاريخيًا وقعت فيه الكاتبة سلوى بكر في رواية البشـموري، وعلى أربع صفحات فولسكاب وضعتها سناء وسط الكراس، كان هناك بحث عن المكان الأصلي للبشموريين. ناقشت فيه ما اختلف عليه الباحثون الجدد والمؤرخون القـدامى حـول الموضع الجغرافي للبشامرة، ووصلت لنتيجـة تحـدد فيهـا موقعهم بدقة.

في هذا الكتاب، ننشر المخطوطة الأصلية كما هـي دون أي تدخل من جانبنا، ونلحقها بملحق (١) وفيـه تصـحيحها لسلوى بكر، وملحق (٢) وفيه بحثها عن موقع البشموريين، كما ننشر الخرائط التي جمعتها سناء، وكذلك الجداول التـي جمعتها والتي وضعتها، وفي آخر الكتـاب ننشـر أسـماء المراجع التي رجعت إليها، أي أننا لم نفعـل سـوى نشـر

ما كتبته سناء، حتى الملاحظات في الهوامش هي لها، فيمـا عدا عدد قليل من الملاحظات، رأينا أن نضيفها من جانبنـا، ووقعنا بجانبها بالحرفين (و، أ).

وبرغم أن هذا المشروع لم يكتمل، فنحن نعتقد أنه عمـل رائع، ينبض بنبض كاتبة جسور، لم تهتم أبدًا بشيء في هذه الحياة سوى بالحقيقة، وكانت منسجمة مع نفسها حتى النهاية، وكل من يقرأ كتابتها، يلمـس هـذه الـروح السـارية فـي سطورها، حيث يصبح التاريخ، ليس مادة ميتة مملة، بل حياة تتخلق أمام أعيننا، تنبض وتشع حماسة، وتتألق وعيًا.

وفي النهاية، البحث أمام القارئ ليحكم عليه، ولا ننسـى هنا أن نوجه شكرنا وامتناننا إلى الآنسة مها العوضي، التـي بإخلاصها المعهود وجديتها، بذلت معنا مجهودًا كبيـرًا فـي نسخ المخطوطة الأصلية بخط واضح حتى يمكن طباعتهـا، وكذلك أسهمت في تكملة البيانات الناقصة لبعض المراجع.

وفاء المصري

إبراهيم الباز

مقدمة رحلة الانصهار

مرة أخرى، ليس هدفي من مواصلة البحث في تاريخ فتح مصر وما تلاه من الحكم العربي لمصر إبراز مساوئ الفتح والحكم كما قد يتصور البعض، ولا الانتصار للشعب القبطي كما يتصور البعض الآخر.

ولكنني قصدت البحث عن إجابة لسؤال شـغلني كثيـرًا، كيف حدث الانصهار بين العرب الوافـدين مـن الشـرق، والمصريين المقيمين في الأرض؟ فتغيـرت اللغـة والـدين والمعتقدات وأصبحا شعبًا واحدًا ممتزجًا لا تستطيع أن تميز أحد عنصريه عن الآخر إذا ما سنحت لك الفرصة ورأيتـه مجتمعًا في مكان عام.

وبالتأكيد فإن رحلة الانصهار لم تكن سهلة يسيرة، وإنمـا مرت بأطوار العنف حينًا، والمهادنـة حينًـا آخـر، القمـع والسياسة، الضغط والبحث عن طريـق للتفـاهم، الصـراع والملاينة، الرفض والقبول، ثنائيات كثيرة وطويلة اسـتغرق الصراع بينها عدة قرون لا يجب الاستهانة بها فـي تـاريخ أمة، ولذلك فإن الكتابة عن أحدها دون الآخـر هـو الظلـم بعينه، الكتابة عن غنائيات التسامح الإسلامي القـادم علـى

صهوات الجياد دون النظر إلى حالة الشعب المقيم، خلل في التفكير يؤدي غالبًا إلى نتائج ظالمة، والتأثر فقـط ببكائيـات الشعب المهزوم خلل آخر يعوق فهم الحالة ويتركنا أسـرى حالة عاطفية مشوهة ومنقوصة.

مائة سنة مقاومة

ربما أكثر من مائة عام، دخل قبط مصـر خلالهـا فـي ثورات متتالية ضد حكامهم من العرب، ولأنها كانت ثورات كبيرة لم يستطع المؤرخون العـرب إغفالهـا، وإن حـاولوا التقليل من شأنها بذكرها عرضًا في جملة أو جملتـين تبـدأ عادة بكلمة "انتقض" القبط: التي هي من نقض العهد، وكأنـه كان هناك إجماع على عهد مـا متفـق عليـه بـين القـبط المحكومين من جهة والعرب الحاكمين مـن جهـة أخـرى، ويمكننا تتبع هذه الثورات من خلال كتابات ثلاثة مـؤرخين كبار، إثنان منهما عربيان والثالث قبطي وهم على التوالي:

الكندي وابن المقفع[٢٤٩] والمقريزي، فالكنـدي هـو أول المؤرخين العرب الذين وصلت إلينـا كتاباتـه عـن هـذه الثورات، بعد أن تجاهلها ابن عبد الحكم في كتابـه "فتـوح مصر وأخبارها" كما تجاهلها غيره.

وقد ولد أبو عمر محمد بن يوسف الكندي عام ٢٨٣ هـ في الفسطاط لأسرة عربية تنتمي إلى عشيرة (تجيـب) مـن

---

[٢٤٩] تقصد ساويروس بن المقفع (و، أ).

قبيلة كندة، وأسرته لم تقطن الريف كما فعل كثير من الأسر في القرن الثالث الهجري، بل ظلت تتخذ من الفسطاط مقامًـا لها، فنشأ الكندي في كنف الأرستقراطية العربية وتلقّى علوم القرآن والحديث والفقه والسير وغيرها من علـوم العـرب كشأن جميع أترابه في ذلك الحين، وقد تتلمذ على يد ابن قديد المؤرخ الذي كان قد تولى الرواية مباشرة عـن ابـن عبـد الحكم[٢٥٠] وتوفي عام ٣١٢ هـ.

ومصادر الكندي جميعًا في كتابه "الولاة والقضـاة" مـن العرب مثل الليث وابن لهيعة ويحيي بن عثمان وابن عفيـر وغيرهم، وقد بدأ الكندي الإشارة إلى ثورات القبط منذ عـام ١٠٧ هـ في معرض حديثه عن ولاية الحر بن يوسف وما وقع فيها من أحداث، أما ساويروس بن المقفع صاحب كتاب "سير الآباء البطاركة" فهو كما رأينا فـي الكتـاب السـابق صوت رسمي للكنيسة المصرية، وحياته بدأت بـين سـنتي ٩٠٥ – ٩١٠ م وتربى تربية دينية ثم التحق بوظيفة كاتـب في بلاط الدولة الإخشيدية حتى أصبح كاتبًا ماهرًا في ديوان

---

[٢٥٠] وربما كان لابن الحكم تأثير غير مباشر في حفظ تاريخ ثـورات مصر ورواياتها شفاهة دون تدوينها.

الخليفة، ولأسباب غير معروفة ترك أبو البشر بـن المقفـع وظيفته وكل ما يتعلق بالحياة الدنيوية وترهـب فـي أحـد الأديرة، ثم أصبح أسقفًا على مدينة الأشمونيين وغير اسـمه فعرف بأنبا ساويروس، وله كتب كثيرة وقد جمع سـاويرس سير بطاركة الكنيسة من الأديـرة المختلفـة وعمـل علـى ترجمتها وصياغتها من جديد لأنه كما يقول: (إنـه لواجـب علينا الاستقصاء والبحث عن جميع سير البيعة كمـا كـان آباؤنا المتقدمون يفعلون[٢٥١]).

وقد نقل ساويرس عن: مقاره الراهب، ونقل عن يوحنـا ابن أبي مويسيس أسقف وسيم، ويوحنا ابن الرعد وغيـرهم. وسنرى عند مقارنة تواريخ الكندي بتواريخ سـاويرس بـن المقفع اتفاقهما العجيب فيما يخص أحداث الثورات القبطيـة، على الرغم من اختلاف مصادر كل منهما عن الآخر، وعلى الرغم من أن أحدهما عربي المنشـأ والأصـول والتربيـة والانحياز وقد كان يعيش في القرن الثالث الهجري – التاسع الميلادي وتوفي ٣٥٠ هـ - ٩٦١ م.

---

[٢٥١] ساويرس / المجلد الأول ص ٢١٢.

والآخر قبطي المنشـأ والأصـول والتربيـة والتفكيـر والانحياز وقد عاش في القرن العاشر المـيلادي – الرابـع الهجري.

أما ثالث المؤرخين الذين سنعتمد عليهم فهو تقـي الـدين أحمد بن علي المقريزي المولود بالقرن الرابع عشر الميلادي – الثامن الهجري في حارة برجوان في القاهرة، والمتـوفى بها سنة ١٤٤٢ م (٨٤٥ هـ) وهو في سن الثمانين.

وعلى الرغم من أن أسرة المقريزي وفدت حديثًا في حياة أبيه من موطنها في بعلبك إلى القاهرة، إلا أنه أكثـر المـؤرخين انتماءً إلى مصر؛ حيث تلقى علومه بالقاهرة وتتلمـذ فيهـا عـدة سنوات على يد ابن خلدون، ثم التحق بديوان الإنشاء بالقلعة كاتبًا. وعمل بالقضاء، ثم إمامًا لجامع الحاكم الفاطمي ومدرسًا للحـديث، ثم محتسبًا للقاهرة والوجه البحري (واستقى المقريزي مادته تباعًا من سلسلة متصلة المصادر تبدأ بابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ، وتنتهي بابن المتوج المتوفى سنة ٧٣٠ هـ مسندًا كل اقتباس إلى مؤلفه: الكندي، القضاعي، ابن بركات النحوي، الجاوني، ابن عبد الظاهر، ابن زولاق، المسبحي، ابن المأمون[٢٥٢]).

---

[٢٥٢] دراسات عن المقريزي.

وقد أفرد المقريزي في كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) فصلا بعنوان (ذكر انتقاض القبط وما كان من الأحـداث في ذلك) ينقل فيه عن الكندي في كتابه ولاة مصر.

وقد نقل عن المقريزي من أتى بعده من المؤرخين مثل ابـن تغري بردي الأتابكي وابن إياس والسيوطي وغيرهم، حتى أنـه يعتبر عمدة المؤرخين العرب المهتمين بشئون قبط مصر متمـثلا فيما كتبه عن ثوراتهم وطرق حياتهم وكنائسهم وأديرتهم وكل مـا يخصهم. ويبدو أن المقريزي لم يكتف بالاطلاع على كتابات مـن سبقوه من المؤرخين العرب، بل تيسر له الاطلاع علـى كتـاب ساويرس بن المقفع وربما كتابات قبطية أخرى، ونقطة البدء لدى المؤرخين العربيين الكندي والمقريزي هي عام ١٠٧ هـ زمـن الانفجار الأول للثورة القبطية الكبرى. أما ساويرس فيتفرد بـذكر أسبابها ومقدماتها المتمثلة في ظلم وقسوة الولاة ومسئولي الخراج وشدتهم في جمع المال بما لم يسمع بمثله من قبـل – وتقتضـي الحال هنا أن نعود إلى النظـر فـي أحـداث الدولـة الأمويـة وما وقع فيها على أقباط مصر – ومن خلال تتبعه لسـيرة البابـا الإسكندروس الثاني – البابا رقم ٤٣ – والذي انتخب بعد أن ظـل كرسي البابوية خاليًا بلا بطرك يرعى شـئون الشـعب القبطـي

والكنيسة الأرثوذكسية حوالي ثلاثة أعوام وحينما أتيحت الفرصـة اختار الكهنة والقسس الإسكندروس، وكان راهبًا في دير الزجاج: (وقد صودر مرتين أخذ منه فيهما ستة آلاف دينار نقرة، فكانـت أول جزية أخذت من الرهبان خلافًا للعهد؛ قال أصحاب التواريخ: واشتد عبد الله ابن عبد الملك بن مروان على القبط بمصر وضيق عليهم واقتدى به قرة بن شريك أيضًا في ولايته على مصر فقتلا وأحرقا وخربا وأراقا الدماء بحورًا وأنزلا بالنصارى شـدائد لـم يبتلوا بمثلها فكانت أيامهما كلها بلايا وإحنًا، ورزايا ومحنا)[٢٥٣].

ويفَصل ساويرس تلك المحن بقوله: إن قرة بـن شـريك والي مصر: (أحضر البطرك وهم بقتله بسبب يمينه أن ليس معه ذهب، ولما أخذ منهم الأربع كيزان هرب جميع أصحاب البطرك مثل الحواريين ذلك الزمان فلما أحضروا البطـرك إليه صر بأسنانه عليه، وأراد قتله فمنعه الرب عنـه فكبلـه بالحديد وطرحه في السجن فأقام سبعة أيام ثم بعد هذا ألزمه أن يقوم بالثلاثة آلاف دينار ولحقه تعب عظيم وضيق إلى أن

---

[٢٥٣] "الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث" لمؤلفه ميخائيل شاوربيم بك رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة.

تخلصت له ألف دينار)[٢٥٤].

ولم تنته محنة البطرك بدفعه الألف دينار حيث وشى بـه بعض الناس وقالوا إن: (عنده قومًا يضربون الـدنانير وإن عنده سكة) فاستشاط قرة غضبًا وأمر جنده بـالقبض علـى البطرك (فيما هو جالس في تاسع ساعة من النهار في بعض الأيام يفطر ليس عنده علم إلا وقد أحـاطوا بالأسـقوبية وأن أهل مدينة الإسكندرية والكاتب بأمر قرة قد قبضـوا عليـه وعلى أصحابه وطرحوه على الأرض وضـربوا أصـحابه وعوقبوا حتى سالت دماؤهم إلى الأرض، وكادوا يموتون من العقوبة، ووجدوا ما سعوا به عليه باطلا)[٢٥٥].

ثم جاء عيد الفصح وطلب الكهنة والشعب القبطـي مـن البابا (أن يقوم لهم برسوم وديارات في ثالث عيد الفصح، ولم يكن له شيء يدفعه لهم، وكان يقول لهم يا إخوة قد نظـرتم نهب جميع مال البيعة حتى الكاسات اللاتي يدفع فيهن الـدم الذكي جعلنا عوضًا من الـذهب والفضـة كاسـات زجـاج والدسقاب خشبًا من أجل نهب قرة لهم).

---

[٢٥٤] ساويرس ص ١٤٥.

[٢٥٥] المصدر السابق.

وظلت محنة البطرك قائمة حتى تقـدم إنسـان أرخـن، والأرخن هو كبير القوم وسيدهم ويقصد به الغني ذا الشـأن والنفوذ بين القبط، وغالبًا ما كـان أغنيـاء القـبط يحتلـون وظائف مهمة في ديوان الكتابة والخراج ويعملون لدى الولاة المسلمين لمعرفتهم بشئون البلاد وأسرارها، فكـانوا بـذلك مفتاح سيطرة الحكام العرب على الشعب القبطي في القـرى القريبة والبعيدة.

كما كانوا في نفس الوقت واسطة العلاقـة بـين الحكـام ورجال الكنيسة. ولذلك فقد تقدم هذا الأرخن (السيد) واسـمه يؤنس وقد (رزقه الله قبولا عند الولاة) ويجب ألا ننسى أنهم نفس الولاة الذين يشتدون على الشعب القبطي وعلى رجـال كنيسته ويسومونهم سوء العذاب، ويؤنس الذي ارتقى بمالـه وارتفع فوق عذابات شعبه، وكان له ذلك القبول والنفوذ عند الموالي (مضى إلى قرة وقال له يجب أن تعلم أن الرهبـان والأساقفة الذين في سائر الأماكن قد ثقـل علـيهم الخـراج وها هنا أمر سهل، منهم من هو مكثر ومنهم مـن لا يقـدر على قوته ونحن نعرف حال سائر النصارى فإن رأيـت أن

توليني أمرهم استخرجت الخراجات؛ فولاه علـى الأسـاقفة والرهبان)[٢٥٦].

ومضى هذا السيد القبطي يجمع الأمـوال مـن الأديـرة المختلفة مستندًا إلى قوة الحكم وجبروته، ويبدو أنـه كانـت تنتشر بين رهبان ذلك الحين آراء مذهبيـة مختلفـة منهـا مقالات الغايانيين والشمطيركيين فقضى عليها يؤنس مسـتندًا إلى قوة الوالي ويده الباطشة.

وبرغم ما جمعه هذا الأرخن (السيد) الموالي من الأديرة والرهبان إلا أن نهم قرة إلى المال لم يشبع، ودارت دائرتـه على أصدقائه المتعاونين معه من الأراخنة (وكان كل أرخن يموت يأخذ جميع ماله، وكان قـد مـات صـاحب ديـوان الإسكندرية وبقيرة الذي كان كاتبًـا مـن تنـيس وجماعـة لا يحصون من مصر وأخذ مالهم، حتى الأساقفة أخذ ميراث الجميع وزاد على البلاد مائة ألف دينـار سـوى خراجهـا المعروف، وكان الناس يهربون ونسائهم وأولادهم من مكان إلى مكان ولا يأويهم موضع من أجـل البلايـا ومطالبـات الخراج، وعظم ظلمه أكثر ممن تقدمه ثم أنه ولى إنسانا اسمه

---

[٢٥٦] ساويرس.

عبد العزيز من مدينة سخا وكان يجمع الذين يهربون من كل موضع ويردهم ويربطهم ويعاقبهم ويعيد كـل مـنهم إلـى موضعه وكان على الناس بلايا عظيمة)[٢٥٧] [*].

ولم يلبث قرة بن شريك أن ذاق بعض ما سـببه لأهـل مصر ومات في الوباء الذي حل بالبلاد وأباد أعدادًا ضخمة من البشر ويقول ساويرس بن المقفع إنه (من بعد موت قـرة أنفذ الوليد عوضه إلى مصر واليًا اسمه أسامة فلمـا وصـل الفسطاط التمس علام جميع الكور وكتبها بالعربي وكان كثير الفهم، فلما بدأ بذلك حدث غلاء عظيم لم يسمع بمثلـه مـن الجيل الأول ومات في ذلك الغلاء أكثر ممن مات في الوباء وأشرف جميع الأغنياء والفقراء على الموت).

---

[٢٥٧] ساويرس ص ١٤٥.

[*] عن أوراق البردي – (من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب أشـقوه فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإنك قد علمـت الـذي كتبت إليك به من جمع المال والذي قد حضر مـن عطـا الجنـد وعيالهم وغزو الناس، فإذا جاءك كتبي هذا فخذ في جمع المال فإن أهل الأرض قد حموا منذ أشهر، ثم عجل إلي بما اجتمع عندك من المال بالأول فالأول، ولا أعرفنك ما حسبتنا بما قبلك؛ فـإن أهـل الأرض قد فرغوا من الحرثة وصلحت أفراطهم).

وهنا نجد اختلافًا بين ساويرس والكندي الذي يكتب أنـه بعد وفاة قرة بن شريك عين الخليفة على ولايـة مصـر – جندها وخراجها – عبد الملك بن رفاعة بن خالـد الفهمـي ويبدو أن سبب الخلاف يعود إلى اهتمـام سـاويرس بتتبـع سلسلة المشتدين على القبط في جمع الخراج، والكندي يهـتم في الكتاب بتتبع سلسلة الأشخاص الذين تولوا منصب الولاية وبذلك يكون التالي بعد قرة هو عبد الملك بن رفاعة، والوالي يعين بعد ذلك شخصًا ينفذ سياسته في جمع الخراج. وبـذلك يكون هو المسئول أمام الخليفة في العاصمة عـن السياسـة المالية للبلاد وآخر مسئول أمامه عن التنفيذ بالداخل.

ويقدم لنا المقريزي في كتابه "المقفى الكبيـر" معلومـات أكثر عن أسامة بن زيد التنوخي الـذي يـذكره سـاويرس ويتجاهله الكندي فيقول: (كان على ديوان الجند بدمشق فـي زمان الوليد بن عبد الملك. ثم ولي خراج مصر فـي زمـن الوليد، فقدمها يوم السبت لإحدى عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين ثم نزع في شهر ربيع الآخر سـنة تسع وتسعين، وأمر على الخراج عوضه حيان بن شريح من قبل عمر بن عبد العزيز)، فظل مسئولا عن خـراج مصـر

حوالي ثلاثة أعوام وعزل في زمن الخليفة عمر بـن عبـد العزيز، (ثم أعيد أسامة إلى ولاية الخراج في سـنة إثنتـين ومائة، وصرف حيان، فأقام على الخراج إلـى سـنة أربـع ومائة)[٢٥٨].

وعاصر أسامة بن زيد أواخر زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك بالإضافة إلى زمن سليمان بن عبد الملك الذي أوصاه بقوله: (أحاب حتى ينقيك الدم. فإذا أنقاك الدم حتـى ينقيـك القيح. لا تبعها لأحد بعدي).

وقد عمل أسامة بوصية الخليفة وبدأ (عمـلا مـا عملـه فرعون، واشتد على نصارى مصر، وأمـر بقـتلهم وأخـذ أموالهم، ووسم أيدي الرهبان بحديدة عليها اسمه واسم ديـره وتاريخه، فكان من وجد منهم بغير وسم قطع يده، ثم كـبس عليهم الديارات، فوجد جماعة منهم بغير وسم فضرب أعناق بعضهم، وضرب بعضهم حتى مات تحت الضرب، وكتـب إلى الأعمال بأن من وجد من النصارى، ولـم يكـن بيـده منشور يؤخذ منه عشرة دنانير، ففعل ذلك)[٢٥٩].

---

[٢٥٨] المقريزي / المقفى الكبير / الجزء الثاني ص ٣٨.

[٢٥٩] المصدر السابق ص ٤٠.

ويقدم ساويرس بن المقفع تفصيلا أكبر للعذاب الذي نزل على قبط مصر على يدي أسامة بن زيد بقوله: (وكان في سنة ست وتسعين للهجرة قلق على الرهبان، وضيق على المؤمنين، وإذا ظهروا بهارب أو غير موسوم قدموه إلى الأمير فيأمر بقطع أحد أعضائه ويبقى أعرج ولم يكن يحصى عدد من شوه به على هذه القضية، وحلق لحى كثير بالسياط، وكان من محبته للدنانير يأمر الولاة أن يقتلوا الناس ويحضروا إليه مالهم ويكاتبهم ويقول سلمت لكم أنفس الناس فتحملوا ما تقدرون عليه من أساقفة ورهبان أو بيع أو كل الناس فاحملوا القماش والمال والبهائم وكل ما تجدونه لهم ولا تراعوا أحدًا، وأي موضع نزلتموه فانهبوه، وكانوا يخرجون المواضع ويقلعون العمد والأخشاب ويبعيون ما يساوي عشرة دنانير بدينار حتى صارت الفضة خمسة وثلاثين درهمًا بدينار، وكان من معه شيء يخاف عليه أن يظهره لئلا يعاقب، ومن الضيق والضنك هم الناس يبيع أولادهم وإذا أعلموا الأمير بهذا لم يرق قلبه ولا يرحم بل يزيد فيما هو فيه)[٢٦٠].

---

[٢٦٠] ساويرس / المجلد الأول ص ١٤٧.

ولم تنته تلك الشدة العظمى إلا بموت الخليفة سليمان ابن عبد الملك وتولى الخليفة عمر بن عبد العزيز فأمر بأن توضع (طوبة حديد في رجلي أسامة البائس وخشبة في يديه وجعله في الحبس)[٢٦١] [*].

وحل الاطمئنان مدة قصيرة (وكانوا النصارى في أمن وهدوء والِبيع، ثم من بعد ذلك بدأ يفعل السوء وكتب كتابًا إلى مصر مملوء غمًا) فماذا كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى واليه أيوب بن شرحبيل حتى يسبب هذا الغم لقبط مصر؟ لقد أمره بأن ترفع الجزية عمن يدخل في دين الإسلام على أن يحمل مقدار الجزية الذي كان يدفع من قبل، ويلزم به من بقي على دين المسيحية، ويقال إنه أمر بأن تحمل جزية موتى القبط على أحيائهم وأعلن أن (من أراد أن يقيم

---

[٢٦١] المصدر السابق ص ١٤٨.

[*] أما عن مقدار المكوس التي فُرضت في مصر في عهد خلافة عمر بن عبد العزيز فقد تناول أبو يوسف الكلام على ذلك في كتاب الخراج – (وقد فرض على المسلمين دينار واحد عن كل ٤٠ دينارًا واتبعت هذه النسبة في كل مبلغ).

في حاله وبلاده فليكن على دين محمد مثلي ومـن لا يريـد فليخرج من أعمالي)[٢٦٢].

ويضيف الكندي بأنه قد (نزعت موازيت القبط عن الكور، واستعمل المسلمون عليهم ومنع النساء الحمامات)[٢٦٣].

وأمام تلك الضغوط المادية المتمثلة في زيادة الضـرائب، والضغوط المعنوية المتمثلة في فكرة إخراج غير المتحـولين إلى الإسلام من بلادهم، أشهر بعض الناس إسلامهم حفاظـاً على أموالهم وممتلكاتهم وأراضي أجدادهم التي يقطنونها من قدم الأزل.

لكن القدر لم يمهل عمر بن عبد العزيز لينفذ تلك الأحكام ومات بعد فترة قصيرة. ويقال إن الأمـويين قـد سـموه – لأسباب أخرى لا تمت إلى سياسته مع القبط بصـلة، ولكـن لتضييقه على أفراد البيت الأموي وشدته عليهم – وتولى من بعده الخليفة يزيد بن عبد الملك فإذا به يعـود إلـى سياسـة الاضطهاد المكشوف للقبط ويلغي القوانين العمرية ويفـرض على الكنائس والأديرة والأوقاف (الأواس) والرهبان الجزية

---

(٢٦٢) الكندي.

(٢٦٣) الكندي.

والخراج مرة أخرى، ثم أمر (بكسر الصلبان في كل مكـان وكشط الصور التي في البِيع) لما تمثله تلك الصور والأماثيل من علاقة بالأفكار الوثنية.

ويذكر الكندي واقعة محو الصور بقوله: (وكتـب يزيـد ابن عبد الملك في سنة أربع ومائة يـأمر بكسـر الأصـنام فكسرت كلها، ومحيت التماثيل، وكُسر منها صنم حمام زبان ابن عبد العزيز الذي يقال له حمام أبي مرة، وله يقول كريب ابن مخاد الجيشاني:

من كان في نفسه للبـيض منزلـة فليأت أبيض فـي حمـام زبـان
عبلٌ لطيفٌ هضيم الكشـح معتـدل على ترائبه فـي الصـدر ثـديان

وانقضت أيام حنظلة التي كانت مرةً على قبط مصر كاسم واليها بانقضاء حياة الخليفة يزيد بن عبد الملـك، واستبشـر القبط خيرًا بصعود هشام بن عبد الملك إلى سدة الخلافة لأنه كتب: (يأمر بأن تدفع لكل من يزن الخراج براءة باسمة حتى لا يظلم أحد ولا يكون في مملكته ظلم فأعطـاه الله مملكـة جيدة، فأقام إثنتين وعشرين سـنة ملكًـا ولـم تقـم عليـه حرب)[٢٦٤].

---

[٢٦٤] ساويرس.

ويذكر ساويرس أن هشام بن عبد الملـك وثـق علاقتـه بالبطريركيين المسيحيين (القبطي والملكاني) وقربهمـا إليـه خصوصًا، بطرك الكنيسة الأرثوذكسية بدمشق لأن مقرهـا كان قريبًا من قصر الخليفة وهو يسعد بسماع ترانيمها ليلا.

وبرغم تلك الصداقة الفوقية عين الخليفـة مسـئولا عـن الخراج في مصر يدعى عبيد الله بن الحبحاب، في ظل ولاية الحر بن يوسف، (فلما وصل إلى مصر أمر بـأن تحصـى الناس والبهائم وأن تقاس الأراضي والكروم بحبال القيـاس ففعل ذلك، وأن يجعل طابع رصاص في حلق كل الناس من ابن عشرين سنة إلى من عمره مائة سنة، وأحصاهم وكتبهم جميعهم ودوابهم من الصغير إلى الكبير، والأراضي الوكس التي هي صعبة التي تنبت حلفًا وشوكًا، وبنى أميالا في وسط الغيطان على الحدود والطرقات فـي جميـع أرض مصـر وأضعف الخراج)[٢٦٥].

وكان (لا يبيع أحد ولا يشتري إلا من كان على يده علامة الأسد)[٢٦٦].

---

[٢٦٥] المصدر السابق.

[٢٦٦] ساويرس.

ولكن لماذا اختار العرب تلك العلامة بالذات ليسِموا بهـا القبط؟

الأسد هو الملك الذي لا يفوقه آخر في القوة والشـجاعة، إنه رمز الحاكم المسلم الذي يرى في نفسه تلـك الصـفات ويدمغ محكوميه بصورته المنتقاة إشارة إلى وقوعهم تحـت أسره الدائم وسطوته المطلقة.

ومع ذكر أعمال عبيد الله بن الحبحاب يصل ساويرس إلى ذكر ثورة عام ١٠٧ هـ التي يتفق المؤرخون العرب علـى أنها أول ثورات القبط.

ولم تكن كل تلك المظالم السابقة التي تعرض لهـا القـبط على أيدي الولاة وجباة الخراج إلا مقدمات للانفجار الكبيـر الذي حدث عام ١٠٧ هـ بعد أن كتب عبيد الله بن الحبحاب إلى جميع أنحاء مصر، (بأن تحشد له جماعة مـن النـاس يشغلهم فيما يريد)، وكأن كل إجراءات جمع الخراج والجزية ليست بكافية حتى يضيف إليهـا مظـالم السـخرة والعمـل الإجباري في عملية إعادة بناء مدينة الفسـطاط، (حتـى أن الناس هلكوا من التعب من كثرة ما أشغلهم، فلما عظم التعب والقيام بالخراج الذي أضعفه علـيهم ثـارت حـرب علـى

النصارى والمسلمين حتى سفكت دماء كثيرة بأرض مصر، أولها في مدينة بنا ومدينة صا ومدينة سمنود وما يجـاورهن ومواضع كثيرة في أسفل الأرض وكذلك كان فـي الطـرق والجبال والبحار)[٢٦٧] وكان اضطراب في كل كورة مصـر كما يقول ساويرس.

أما الكندي فيذكر أحداث هذه الثورة بقوله: (وفـي إمـرة الحر كتب عبيد الله بن الحبحاب صاحب خراجها إلى هشـام بأن أرض مصر تحتمل الزيادة، فزاد على كل دينار قيراطًا فانتقضت كورة نتُو، وتمي، وقـربيط، وطرابيـة، وعامـة الحوف الشرقي، فبعث إليهم الحر بأهل الديوان، فحـاربوهم فقُتل منهم بشر كثير)[٢٦٨].

ولم يكتف الوالي وأهل ديوانه - والمقصـود بهـم الجـيش العربي الذي يتلقى عطاءه من بيت المـال - بمحاربـة الثـوار وقمعهم في مواطنهم الطبيعية، بل إنه عمم العقاب لأن ساويرس

---

[٢٦٧] ساويرس.

[٢٦٨] الكندي ص ٩٥.

يشير إلى أن (الوالي دخل الإسكندرية ليسم الناس، فقبض على البطرك ليسمه فامتنع فلم يدعه الوالي)[٢٦٩].

وهنا ينقطع حديث ساويرس عن أحداث الثورة ومتابعة تفاصيلها وينشغل بأمر البطريرك وما كان بينه وبين الوالي: (والتمس البطرك المضي إلى الملك فلم يجبه إلى ذلك ثم بعد مدة أنفذ البطرك إلى مصر مع جند يوصلونه إلى عبيد الله، فلما حضر بين يديه عرفه سبب حضوره فلم يتركه بغير وسم)[٢٧٠].

وطلب البطرك من عبيد الله أن يمهله ثلاثة أيام فأجابه وأمهله فاستغل هذه الفرصة وحاول الهرب ليلا مع أسقف وسيم، (فلما انحدروا هاربين وصلوا إلى ترنوط عند الصبح)، لكن القدر لم يمهله فسحة أطول من الوقت حيث أدركت الوفاة البطرك هناك في ترنوط. فأنقذ من عقاب الوسم (الذي هو الختم بالرصاص أو بغيره في رقبته أو يده)، بفضل الموت محرر البشر أجمعين بعد أن ظل أربعًا وعشرين سنة ونصفًا على كرسي البطريركية، وقد استهلك عبيد الله بن الحبحاب زمن البطرك الجديد ويدعى

---

(٢٦٩) ساويرس.

(٢٧٠) ساويرس.

قسمًا، وكان لا يتجاوز الخمسة أشهر، جزءًا كبيرًا من زمـن البطرك تاودروس، وهو البابا رقم ٤٥ في تاريخ الكنيسـة، في مواصلة سياسة العنف والشدة حيث، (كان عبيد الله الملك بمصر ينزل عذابًا وبلايا وخسـارات علـى أهـل مصـر، وأضاف على كل دينار من الخراج ثُمن دينار وكان يحـدث أمورًا على الناس حتى أن الدينار قل وعز. ولما تمادى على ذلك لم يصبر عبيد الله عليه لكن أثار عليه قومًا من مقـدمي المسلمين مضوا إلى هشام وعرفوه الشرور التي يفعلها ومـا أحدثه من البلاء في مصر فامتلأ عليه غيظًا وكتب للوقـت بعزله)[٢٧١].

ويجب ألا نتمادى في حسن الظن ونعتقد أن عزل عبيـد الله عن خراج مصر جاء سهلا هكذا بمجرد شكوى بعـض مقدمي المسلمين أو رؤسائهم منه للخليفة، فهو الـذي جعـل البقرة تحلب لهذا الخليفة كما لم تحلب من قبل، ولذلك كـان من السهل عليه التضحية بالآخرين حتى لا يعكـروا علـى جابي الخراج انطلاقه في عمليات الحلب التعسفي. فنحن نفهم من الكندي أن الخليفة هشام بن عبد الملـك ضـحى بـالحر

---

[٢٧١] ساويرس.

ابن يوسف والي مصر حينما دب النزاع بينه وبين عبيد الله، (وفي سنة ثماني ومائة تباعد ما بين الحر بن يوسف وعبيـد الله بن الحبحاب صاحب الخراج، وكتب عبيد الله إلى هشـام يشتكي الحر. وكتب (الحر) يستعفي من ولايتهـا، فصـرفه هشام في ذي القعدة سنة ثماني ومائة)، وبهذا ذهب الـوالي وبقي متولي الخراج.

ثم اعترض عبيد الله على الوالي الجديد حفص بن الوليد، فلم يمكث سوى جمعتين على كرسي الولايـة وعـزل هـو الآخر، بعد أن كتب عبيد الله بن الحبحاب متولي الخراج إلى الخليفة قائلا (إنك لم تعزل الحر إذ وليت حفصًا).

واستجاب الخليفة لرغبة متولي الخـراج للمـرة الثانيـة وعزل حفصًا أيضًا، بل زاد الخليفة في إطـلاق يـد جـابي الخراج وتدعيم سطوته على مصر بأن فوضه لاختيـار والٍ جديد لمصر، فاختار عبد الملك بن رفاعة الذي انسحب مـن ميدان الصراع على السلطة بعد فترة قصيرة من الولاية لـم تتعد الخمسة عشر يومًا حيث وافته المنية، فتولى بعده الوليد ابن رفاعة أمور الولاية، وظل عبيد الله بن الحبحاب علـى الخراج ليهلك بذلك أكثر من ثلاثة ولاة من المسلمين، وثلاثة

بطاركة من القبط، وشعبًا بأكمله من المصريين ظل يصـرخ من كثرة المظالم وشدة القمع.

وظل عبيد الله يخطط وينفذ السياسة المالية، وتعدى نفوذه ذلك إلى رسم السياسات العامة لولاية مصر، وربما نلاحـظ أن ساويرس يسميه عبيد الله الملك، وليس مجـرد مسـئول الخراج، أو صاحبه كما كان يسمى السابقين عليه.

وقد رأى عبيد الله بدهائه السياسـي أن أفضـل وسـائل القضاء على الثورات القبطية في مهدها وقبل اندلاعها هـو إحلال القبائل العربية الموالية للخليفة فـي منـاطق الخطـر لتسكن وتعمل وتستقر وتغير طبيعة المكان والسـكان مـن مناطق ثورات قبطية إلى مناطق نفوذ عربي، فهو صـاحب فكرة نقل قبيلة قيس إلى مصر وخصوصًا في منطقة الحوف الشرقي التي اندلعت فيها ثورة القبط بهدف كسر شوكة القبط في مواطنهم الأصلية، وكتب بذلك رسالة إلى هشام بن عبـد الملك يشرح له فيها حال المنطقة من وجهة نظره فيقول:

(وفيها كور ليس فيها أحد، وليس يضر بأهلهـا نـزولهم معهم، ولا يكسر ذلك خراجًا، وهي بلبيس).

والنقطتان الجديرتان بالانتباه هنا هما قوله بأن المنطقـة ليس فيها أحد، إشارة إلى خلوها من العرب فقط وليس مـن البشر جميعًا والمصريين خصوصًا.

ثانيًا إن نزول قيس بها لن يضر بالخراج.

وهكذا، (وفد ابن الحبحاب على هشام فسأله أن ينقل إليها منهم أبياتًا. فأذن له هشام في إلحـاق ثلاثـة آلاف مـنهم، وتحويل ديوانهم إلى مصر، على أن ينزلهم الفسطاط)[٢٧٢].

(وبعث عبيد الله إلى البادية فقدم عليه مائة أهل بيت من بني نصر، ومائة أهل بيت من بني عامر، ومائة أهل بيـت من أفناء هوازن، ومائة أهل بيت من بنـي سـليم فـأنزلهم بلبيس، وأمرهم بالزرع، ونظر إلى الصـدقة مـن العشـور فصرفها إليهم، فاشتروا إبلا فكانوا يحملـون الطعـام إلـى القلزم. وكان الرجل يصيب في الشهر العشرة دنانير وأكثـر وأقل. ثم أمرهم باشتراء الخيول فجعل الرجل يشتري المهر فلا يمكث إلا شهرًا حتى يركب وليس علـيهم مؤونـة فـي إعلاق إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم، فلما بلغ ذلك عامـة قومهم تحمل إليهم خمس مائة أهل بيت من الباديـة، فكـانوا

---

[٢٧٢] الكندي ٩٩.

على مثل ذلك، فأقاموا سنة. وأتاهم نحو من خمس مائة أهل بيت. فمات هشام وببلبيس ألف وخمس مائة أهل بيـت مـن قيس)[٢٧٣].

وسنذهب الآن مع ساويرس لنرى نوع التماس الذي حدث بين عرب القيسية النازحين إلى المكان وبين القبط المقيمـين فيه من قبل، فيقول:

(وكانت قبيلة في الجبل الشرقي لمصر من بلبـيس إلـى القلزم والبحر من المسلمين يسمون العرب، وكان فيهم أكثـر من ثلاثين ألف فارس منتشرين في تلك البـراري والـبلاد ومنهم أمراء مقدمون عليهم فـولى علـيهم زمامًـا يسـمى أبا جراح وكانت خيامه عند دير على اسم السيدة مريم قريب تنيس وفيه جماعة من الرهبان وكهنة مزينين بأفعال حسـنة، وكان للزمام أخوان فأخذهما وصعد إلى الدير ودخل البيعـة وطرد الرهبان من البيعة ونهبوها وأخذوا كل ما في الـدير من قماش وغلة وأثاث)[٢٧٤].

---

[٢٧٣] الكندي.

[٢٧٤] ساويرس.

لكن العربيين أعادا جميع ما أخذاه بعد ذلك بسبب نـزول المرض بأحدهما فظنا أن ذلك بسبب كرامات رهبان الـدير وخافا خوفًا عظيمًا.

ويذكر ساويرس أن واقعة نهب الدير هذه حـدثت زمـن تولي القاسم بن عبيد الله بن الحبحاب مكان أبيه على خـراج مصر، وأن القاسم كان أشد قسوة من أبيه وأنه قد (صار فيه الشر أكثر من أبيه)، وأنه كان صبيًا محبًا للشر ومحبًا للنساء وقد (جعل له سراري من كل جنس ليس لهن عدد، وكان قلبه ملتهبًا بهن جدا)، (وأنه لم يتخل عن طريقة السوء ومحبتـه جمع الذهب)[٢٧٥].

ثم يذكر قصة دخول هذا القاسم مع خليلته إلى الدير.

وفي الحقيقة إننا لا نجد ذكرًا لهذا القاسم بـن عبيـد الله ابن الحبحاب لدى الكندي أو المقريزي أو حتى لـدى ابـن تغري بردي الأتابكي صاحب كتاب "النجوم الزاهـرة فـي ملوك مصر والقاهرة".

---

[٢٧٥] ساويرس.

مما يدل على أنه لم يكن يتولى أمر جباية الخراج رسميًا بقرار من الخليفة أو من والي مصر، وإنما كان يعمل تحـت مظلة نفوذ أبيه الممتدة في ربوع الأراضي المصرية.

تلك المظلة التي حدت بساويرس وبالرهبان الذين اسـتقى منهم تاريخه إلى الظن بأنه كان مسئولا عن كل خراج مصر حيث يقول: (وكان القاسم سالكًا في طريق الجهل كل حـين، تضاعف الظلم في أيامه على الناس، وولى ولاة فـي كـور مصر أشر منه، قومًا يجمعون أموال الغرباء من أسوان إلى الإسكندرية، وألقى على الناس بلاءً عظيمًا في كـل الـبلاد والكور الكبار والصغار، وكان الكبير يأكل الصغير والقـوي يأكل الضعيف مثل سمك البحر، وبعد ذلك عمر مراكب مثل قصور الملوك وزينها، وكان يركب فيهـا نسـاءه وعبيـده ويخرج في بلاد مصر ويمضي بهن إلى الإسـكندرية معـه وتنيس ودمياط فيخذ أموال التجار والناس والمقيمين في تلك المواضع ويصعد إلى صعيد مصر وينتهي إلى أسوان يفعـل ذلك، وكان يسير صحبته من الجند والعسكر ويدخلون إلـى ملعب أنصنا)[٢٧٦].

---

[٢٧٦] ساويرس.

وربما كان هذا القاسم مسئولا عن خراج منطقة الحـوف الشرقي فقط وليس على عامة خراج مصر، وزاد نفوذه وبدأ في ممارسة أعمال الإغارات على المناطق الأخـرى حتـى (أنفذ إليه الخليفة من قبض عليه وحمله إليه تحـت الحوطـة والضيق، ولما سار على بلبيس مع الموكلين والسائرين بـه إلى الخليفة لحقوه الأساقفة وجماعة من النصارى إلى بلبيس.

ثم سيروه الموكلون به ولم يعد إلى مصر بل أخذ جميـع ماله وهو في العذاب والاعتقال وأنفذ إلى مصر وأخذ عبيـده وسراريه ومضوا بهم إلى الخليفة)[٢٧٧].

والكندي لا يذكر ما يخص رجلا يسمى القاسم بن عبيـد الله، ولكنه يهتم بالحديث عن الولاة حسب ترتيبهم الرسـمي، حيث تولى عبد الرحمن بن خالد ولاية مصر بعد وفاة الوليد ابن رفاعة، ثم تولى حنظلة بن صفوان، وفي عهده (انـتفض أهل الصعيد، وحارب القبط عمالهم في سنة إحدى وعشرين ومائة فبعث حنظلة بأهل الديوان، فقتلوا من القبط ناسًا كثيرًا، وظفر بهم)[٢٧٨].

---

[٢٧٧] ساويرس.

[٢٧٨] الكندي.

ويقول ابن تغري بردي إن: (حنظلة بن صفوان دام بها إلى سنة إحدى وعشرين ومائة)، وفيها انتفض عليه قبط مصر، فحاربهم حنظلة المذكور حتى هزمهم)[٢٧٩] ولا يذكر ساويرس تلك الثورة المهمة في سلسلة الثورات القبطية لانشغاله بتتبع الخلافات بين رجال الكنيسة قبل تولى البابا خائيل وهو البابا رقم ٤٦، وهو حينما يذكر أن والي مصر بعد القاسم هو إنسان اسمه حفص بن الوليد الحضرمي، فإنه يخالف بذلك المؤرخين العرب الذين ذكروا أن السابق على حفص كان حنظلة بن صفوان الذي حدثت ثورة القبط في زمنه، فهل كان بأوراق ساويرس بعض الخلط في تلك الفترة الزمنية؟

أم أن القاسم كان مجرد مسئول خراج في منطقة الحوف الشرقي في أثناء ولاية حنظلة بن صفوان.

المهم أنه بعد اختيار البابا خائيل قام رجال الكنيسة وكهنتها:

(ومضوا إلى القصر وعرفوا حفصا الذي جرى وما كانوا فيه، وسألوه كتب كتاب إلى شيوخ وكهنة وادي هبيت ليسلموا

---

[٢٧٩] الأتابكي: النجوم الزاهرة، الجزء الأول، ص ٢٨١.

لهم أنبا ميخائيل المذكور وكتب لهم الكتب وأخذوها وخرجوا من عنده)[٢٨٠].

ويختلف الكندي وساويرس في موقف كل منهما من حفص بن الوليد، فعلى حين يمدحه الكندي لأنه أعاد أرزاق المسلمين إلى مقدار الإثنى عشر إردبًا لكل رجل، فإن ساويرس يذمه بسبب الإحصاء الذي أجراه رؤساء القبط في ذلك الحين واكتشافهم أن حوالي أربعة وعشرين ألف إنسان قد انتقلوا إلى الإسلام في عهده، وربما كانت هناك أسباب أخرى للكراهية مثل أن حفص قد أمر بقسم مواريث أهل الذمة على قسم مواريث المسلمين وكانوا قبل حفص يقسمون مواريثهم بقسم أهل دينهم)[٢٨١].

وبعد أن كان البنون والبنات ... لا فرق بينهم بل هن مساويات
والزوج إن مات بلا أولاد ... للزوجة النصف بلا عناد
والزوج والزوجة في الحكم سوى ... والنصف للأهل فدع عنك الهوى
والأم إن كانت مع الأعمام ... تحوز ثلثيه بلا كلام

كما تقول أرجوزة الأسعد أبي الفرج هبة الله.

---

[٢٨٠] ابن تغري بردي الأتابكي / النجوم الزاهرة / الجزء الأول ٢٩٤.

[٢٨١] ساويرس.

وبذلك نزع الوالي المسلم حفص بن الوليـد اختصـاص دعاوي المواريث من القضاء الذمي وأسندها إلـى القضـاء الإسلامي الذي يخسف حق المرأة إلى نصف منزلة الرجـل عمومًا.

كما أعلن حفص بن الوليد أن (كل من يتخلى عـن دينـه ويكون مسلمًا لا تؤخذ منه بعد جزية).

وبالفعل فقد جاء رؤساء القبط يشكون للبطرك بقولهم:

(يا أبانا صلي علينا واجتهد فقد أحصينا من انتقل إلى دين الإسلام من إخوتنا من بني المعمودية من مصـر وأعمالهـا على يدي هذا الوالي أربعة وعشرين ألف إنسان).

وبرغم هذا المدح العربي لحفص إلا أننا نجد أنـه عـزل ثلاث مرات: كانت المرة الأولى التـي عـزل فيهـا بعـد أسبوعين فقط من الحكم بفضل رفض عبيد الله بن الحبحـاب له، والمرة الثانية التي أعاد فيها أرزاق المسلمين إلى نصابها القديم وتصادف في أثنائها موت الخليفة هشام بن عبد الملـك وتولي الوليد بن يزيد بن عبد الملك بعده، ولم يلبث أن قتـل وتولى ابنه مقاليد الخلافة ثم توفي أيضًا وبويع إبراهيم بـن الوليد، ثم جاء مروان بن محمد فخلع الخليفة إبراهيم.. وهنا

كتب حفص بن الوليد والي مصر للخليفة الخامس في فترة ولايته الثانية أن يستعفيه فأعفاه من الولاية التي استمرت ثلاث سنين إلا شهرًا، ولكنه لم يلبث أن عاد إليها كرهًا بناء على إصرار قواد الفروقي حتى عزله الخليفة مروان وأرسل الجوثرة بن سهل الذي سارع بقتل حفص بن الوليد سنة ثمان وعشرين ومائة، وبذلك تنقضي ولاية رجل شهد حكم خمسة خلفاء، وتولى هو نفسه الولاية ثلاث مرات حدث في أثنائها كثير من الفتن العربية.

ويذكر الكندي ثورة قبطية أخرى حدثت في زمن الوالي عبد الملك بن مروان بن نصير حيث (خرج رجل من القبط يقال له يحنس بسمنود فبعث إليه عبد الملك بعبد الرحمن بن عتبة المعافري، فقتل يحنس في كثير من أصحابه)[٢٨٢].

وليس هناك ذكر لهذه الثورة القبطية أيضًا في كتاب ساويرس بن المقفع، مع أن ساويرس يذكر عن الوالي ابن نصير هذا أنه (كان يبغض النصارى جدًا ومعه تكبر عظيم وأنزل تعبًا عظيمًا على أهل مصر وأظهر أمورًا عظيمة بمصر وأخذ لمروان الذهب والفضة والنحاس والحديد وكل

---

[٢٨٢] الكندي ص ١١٦.

شيء يجده وكان يفعل ذلك بمشورة رجل سوء تعلـم هـذه الأفعال من الشيطان، وكان رئيسًا على جميع صنائع مصـر وأمور المملكة اسمه عبد الرحيم)[٢٨٣].

فهل هناك علاقة بين عبد الرحيم المذموم لدى ساويرس، وعبد الرحمن بن عتبة المعافري قـاهر ثـورة القـبط فـي سمنود....؟ وربما يكونان شخصًـا واحـدًا خصوصًـا أن الخلاف اللفظي بين عبد الرحيم وعبد الرحمن لـيس كبيـرًا بالإضافة إلى ربط الاسمين بحدث واحد.

وربما لم يدقق ساويرس في الاسم بسبب اهتمامـه هنـا بذكر تفاصيل الخلاف بـين بطريـرك الكنيسـة اليعقوبيـة (القبطيـة) وبطريـرك الكنيسـة الخلقيدونيـة (الملكانيـة) وتنازعهما على ملكية كنيسة أبي مينا بمريوط، وتصـعيدهما أمر الخلاف إلى الولاة والقضاة.

على أية حال فساويرس الذي جمع مادة كتابه وصـاغها لتسجيل تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية لا يلتفت في كثير من الأحيان إلى تفاصيل حياة الشعب القبطي وعذاباته وثوراتـه ولذلك تسقط منه تواريخ بعض الثورات كما سـقطت ثـورة

---

[٢٨٣] ساويرس ص ١٦٩.

يحنس السمنودي. ولولا حديث الكندي عن ثورتي سنة ١٢١ هـ، ١٣٢ هـ القبطيتين لضاع تاريخ مقاومة الشعب القبطي في تلك الفترة وطواه السنين. وقد ذكر الكندي بالتوازي مع ثورة القبط الأول عام إثنين وثلاثين ومئة، ثورة أخرى قام بها العرب في منطقة الحوف الشرقي حينما (خالف عمرو ابن سهيل بن عبد العزيز بن مروان على مروان أمير المؤمنين وتابعه على ذلك الرماحس بن (عبد) العزى الكناني في جمع من قيس فنزلوا الحوف الشرقي وأظهروا الفساد، فبدر عبد الملك بن مروان أهل الديوان إليهم، وجعل على جماعتهم موسى بن المهند بن داود بن نصير. فساروا في سبعة آلاف إلى بلبيس فلما التقوا دعوا إلى الصلح، على أنهم يخرجون عمرو بن سهيل والرماحس إلى أي أرض شاءا. فأجابهم موسى بن المهند إلى الصلح وانصرفوا. ثم ظُفر بعد ذلك بعمرو بن سهيل فحبس في الفسطاط)[٢٨٤].

---

[٢٨٤] الكندي ص ١١٦.

أما ثورة القبط الثانية[٢٨٥] لعـام ١٣٢ هـ ـ والموازيـة لأحداث سقوط الدولة الأموية فيذكرها الكندي باختصار قائلا: (وخالفت القبط برشيد فبعث إليهم عثمـان بـن نشـعة فـي المصعتة فهزمهم)[٢٨٦].

أما ساويرس بن المقفع بعد أن نسى ذكر أحداث الثـورة الأولى فيقول: (عصى على عبد الملك قـوم مـن البشـمور ومقدمهم مينا بن بقيرة وقوم أخر من شبرا بسنبوط، ومسكوا تلك الكورة ولم يعطوه خراجًا، ولا لصاحب ديوان مصر إلى أن افتقدهم الرب وكان يعطيهم الظفر فخرج إليهم عبد الملك بعسكر فهزموه بقوة الله وقتلوهم، ولما وصل مـروان إلـى مصر عرفوه جميع ذلك فكتب لهم كتابًا وأمانًا فلـم يقبلـوه، فأنفذ لهم عسكرًا كثيرًا من مسلمي مصر ومن فـي وصـل صحبته من الشام فلم يقدر العسكر أن يصل إلـيهم بالجملـة لأنهم تحصنوا في مواضع الوحلات التي لا يقدر أن يصـل

---

[٢٨٥] الكلام عن ثورة القبط الأولى وثورة القبط الثانية خـاص بعـام ١٣٢ هـ حيث اندلعت ثورتان في نفس ذلك العام كانـت الثانيـة منهما هي المواكبة لأحداث سقوط الدولة الأموية (و، أ).

[٢٨٦] الكندي ص ١١٨.

إليها سوى رجل رجِلا، فإذا زلت رجله عن الطريق غطـس في اللوث وهلك، وكانوا العسـاكر يحرسـونهم مـن بـرا فيخرجون لهم في الليل البشـامرة مـن طـرق يعرفونهـا يتلصصون عليهم ويقتلون من قدروا على قتلـه ويسـرقون أموالهم وخيلهم فيطول عليهم الأمر فيرحلون عنهم)[٢٨٧].

وقد انتصر البشموريين على جيش الوالي الأمـوي عبـد الملك بن مروان عدة مرات في نفس الوقت الذي خرج فيـه ملك النوبة بجيش جرار ليحارب الوالي بعد أن سـمع عـن سجن البطريرك القبطي في سجن مصر ومعه طائفـة مـن رهبان الكنيسة لذلك، (سار الملك من بلاد النوبة يريد ديـار مصر في عسكر عظيم فيه مائة ألف فارس بمائة ألف فرس ومائة ألف جمل...)، وكان ملك النوبة قد بعث رسولا يطلب من الوالي إطلاق سراح البطرك فقبض الوالي على رسـول ملك النوبة وحبسه هو الآخر مع البطرك، لكنه اضطر إلـى إطلاق سراح الجميع حينما (علم مجيء الملك ووصوله إلـى مصر ولم تكن له قدرة على محاربته)[٢٨٨].

---

[٢٨٧] ساويرس.

[٢٨٨] ساويرس.

ثم لم يلبث أن جاء مروان بن محمد الخليفة الأموي فـارًا أمام جيوش العباسيين و(كان يطرح النار في كـل موضـع يصله وهو منهزم)، وقد وصـل مـروان مصـر وثـورة البشموريين ما زالـت مشـتعلة فكتـب الرسـائل لتهدئـة البشموريين حتى يجد سبيلا للخروج مـن محنتـه وحتـى لا يتعقد الموقف أكثر من تمـرد المصـريين مـن ناحيـة ومطاردة العباسيين له من ناحية أخرى.

لكن البشموريين رفضوا عرضه واستمروا في ثورتهم.. فاستمرت بالتالي حروب مروان في اتجاهات عديدة.. وبعـد دخول جيش مروان الإسكندرية بقيادة الجوثرة بـن سـهيل الباهلي والذي يسميه ساويرس (كوزارا) ويصفه بأنه (كـان يشبه الوحش في خَلقه وخُلقه).

(ودخل عسكر مروان المدينة مع كوزارا وملكهـا وقتـل منها جماعة ونهب أراخنتها واستأسر أولادهم ونساؤهم وأخذ كل مالهم وأخذ الأب أنبا ميخائيل وقال له كيف مكنت أولادك النصارى أن يقاتلوا – يعني البشامرة -).

وكما قبض على البطريرك الأنبا خائيل بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية قبض على بطريرك الملكانية أيضًـا (وجعـل

رجليه مع رجلي أبينا البطرك في الحديد فبعد خمسـة أيـام أحضر قسما "بطرك الملكية" من شعبه وبيعته ألـف دينـار ودفعها لكوزارا فخلاه، وأنفذ إلى أبينا وقال له افعـل هكـذا وأخليك، فأجابه أن ما في بيعتي شيء وأنـا أجعـل نفسـي عوض المال)[٢٨٩].

وإزاء رفض البطريرك القبطي دفع الألف دينـار للقائـد العسكري كوزارا أسوة بالبطرك الملكاني استمر حبسه تسعة أيام وحينما هم بإعدامه فكر في استخدامه كواسـطة لتهدئـة ثورة البشامرة بدلا عن قتله، وكان تفكيره مع نفسه هكذا:

(نحمله معنا إلى رشيد وندعه أيضًا أن يكتب لهم ويقـول إن كل ما حل بي لأجلكم فأمر بتخليته. فلمـا بلـغ الخبـر البشامرة، خرجوا لأولئك الذين كانوا يحاصرونهم فقتلـوهم وطردوهم وهم مسيرة يومين، والذي خلـص مـن المـوت مضى إلى مروان وعرفه الذي جرى عليهم ووصل الخبـر إلى مروان بأن أعداءه قد قربوا منه)[٢٩٠].

---

[٢٨٩] ساويرس.

[٢٩٠] ساويرس ص ١٨٩.

وانتصر البشامرة على جيوش الخليفة الأموي عدة مرات، وكان مروان بن محمد في أسوأ أوضاعه ويفر هاربًا أمـام جيوش العباسيين من الناحية الأخرى ولا يجد أمامه سـبيلا للنجاة، ومن شدة يأسه يحرق كل ما يقابله: مخازن الغـلال والسلاح ويحرق الفسطاط... وقد (عزم مروان الحمار على تعدية النيل فعدى إلى الجيـزة وأحـرق الجسـرين والـدار المذهبة، وبعث بجيش إلى الإسكندرية فاقتتلوا مع من كـان بها بالكريون، وبينما هو في ذلك خالفت القبط، فبعث إلـيهم مروان قاتلهم أيضًا وهزمهم)[٢٩١].

وهذه الثورات القبطية والضعف الواضح فـي صـفوف الخليفة الذي يفقد عرشه تدريجيًا ويخسر مواقعه واحدًا إثـر الآخر أمام الجيوش العباسية يجعلنا نحار في شأن البطـرك القبطي الذي لا يفضل سبيل الاستمرار في المقاومة ويكتـب لشعبه البشموري الثائر والمنتصر في ثورته، عـدة مـرات ينصحه بأن يلقي سلاحه ويسلم لجيش مروان المهزوم (مـع أن مروان هذا اضطهد القبط اضطهادًا كبيرًا وخـاض فـي دمائهم – بعد أن ذبح أكثر من مائة راهب ذبح النعـاج فـي

---

[٢٩١] ابن تغري بردي / النجوم الزاهرة.

دير المحرق – واضطهد البطرك نفسه وبعض الرهبان المصاحبين له حينما اعتقلهم ورمى في رجليه خشبة عظيمة وطوق حديد ثقيل في رقبته حتى يوفي خراجه كاملا ثم أطلقه إلى الصعيد يجمع له المال من القبط، (وكانت كورة مصر قد هلك أهلها من الظلم والخسائر والخراج)[٢٩٢].

ومعظم عرب مصر يتخلون عن الدولة الأموية ويعلنون موالاتهم للجيوش العباسية. كل ذلك وأبو الكنيسة المصرية ماض في سياسته القديمة المتوارثة والقاضية بعدم المقاومة، وإن شئنا الدقة فلنسمها المقاومة السلبية والانتظار في صمت مع تحمل كل أصناف التعذيب البدني والمادي والمعنوي حتى تتغير الظروف وتنقشع سحابة الشدة بفعل عوامل أخرى لا تكون لهم فيها أياد ظاهرة. وقد كان البطرك ورجال كنيسته يضعون آمالهم على ركائب خيل العباسيين القادمة من الشرق ويتمنون خلاص البلاد والعباد على أيديهم، لكنهم لا يظهرون الانحياز مع أن لحظة سقوط الدولة الأموية لم تكن سهلة وخصوصًا حينما (أمر مروان أن يضرب البوق بمصر الفداء ثلاثة أيام، ويقول إنه بعد ثلاثة أيام إن وجدت

---

[٢٩٢] ساويرس ص ١٧٨.

بمصر إنسانًا أو دابة متخلفة قتلتـه لأنـي أضـرب جميـع الفسطاط بالنار، وعدوا الناس كلهم إلى الجيـزة والجزيـرة وغيرها، وهرب جميع الناس في المراكـب حتـى البنـات المخدرات اللاتي لم يخرجن قط خرجن إليها مـع أهـاليهن وترك الناس جميع أموالهم وضرب النار من قبلي مصر إلى بحريها حتى انتهت إلى الجامع الكبيـر الـذي للمسـلمين – يقصد جامع عمرو – ووقع في البحر من النـاس والبهـائم ما لا يحصى عدده بحسب أنهم لم يجدوا من يعدو بهم لمـا هربوا من النار وكان الأخ يهرب من أخيه والصـديق مـن صديقه والأعمى لا يجـد مـن يقـوده والمقعـد والمفلـوج والضعيف والشيخ الفاني والعجوز التي لا نهضة لها جميـع هؤلاء احترقوا بالنار وكانوا الناس مطروحين في الشـوارع والأزقة والغيطان في أعمال الجيزة كالأموات مما حلّ بهـم تحت شقاء عظيم وجوع وعطش ولا يجدون ما يقتاتون بـه من كثرة الخلق وكانت الغلات التـي بمصـر قـد أحرقهـا مروان)[٢٩٣].

---

[٢٩٣] ساويرس ص ١٩١ ، ١٩٢.

وبينما الفسطاط تحترق كان الخليفة الأموي ينتـف ذقـن البابا شعرة شعرة والبابا لا ينطق ولكن صوته الداخلي يردد في صمت: (هذه المملكة تبيد وجميع جيوشها وتكون بعدهما مملكة جديدة).

وشمل التعذيب بعضًا من الأساقفة المصاحبين للبابا حتى أن سياف مروان بن محمد (طرح الأب أنبا مويسيس علـى ركبته ورفعوا رجليه إلى فوق وضربوه بدبابيس نحاس على أجنابه وعلى رقبته وكانوا يقولون له أعطنا برطيلا ونخليك)، وكان الأنبا مويسيس لا يعـرف اللغـة العربيـة ولا يفهـم ما يقوله هؤلاء المتوحشون بينما تلميذه يترجم له (كلمة بعـد كلمة). وكان العباسيون على الضفة الأخرى للنيل يشـاهدون وقائع التعذيب ومعهم من انضم إليهم من نصارى مصر وقد قالوا للعباسيين: (هنا أبونا البطرك عند مروان الكـافر ومـا ندري ما يصنع به. وكانوا البشامرة قد لقوهم مـن الفرمـا وقالوا للخرسانيين أن بطركنا قد أخذه مروان ليقتله بسبب أننا قاتلناه وقتلنا عسكره قبل مجيئكم).

ولم ينشغل الخليفة الأموي المهزوم المحاصر عن إنـزال مزيد من العقاب برجال الكنيسة، بل أمر جنوده بالإبقاء على

بطرك الكنيسة القبطية ورجاله في الأسر والتعـذيب تحـت الشمس، (حتى ظننت أن أبي ما يعيش إلى مغيب الشمس من شدة العذاب)، كما يقول أحدهم.

وفي اليوم التالي أمر مروان بن محمد حراسًا آخـرين أن يتولوا مهمة حراسة البطرك ورجاله العشرة، (فجعل مع كل واحد منا ثلاثة من الجند، وضيقوا علينا جدًا فلمـا حميـت الشمس أعد لنا ذلك الأمير آلات العذاب مختلفات لأنهم لـم يتفقوا على قتلة يقتلونا بها).

واستطاع العباسيون في ذلك الوقت أن يـدبروا مراكـب يعبروا بها النيل إلى ناحية مروان.. وكان مـروان يرتـب أموره ليهرب إلى صعيد مصر، فنصحه أحد أبنائه أن يفـك أسر البطرك ورجاله حتى يستطيع المروانيون أن يهربوا إلى بلاد النوبة والسودان ويطلبون الأمان هناك من ملك النوبـة الذي يتبع للكنيسة القبطية وقال لأبيه: (إن قتلته – البطرك – فما يقبلونا بل يقومون علينا هم أيضًـا ويقتلونـا)، فتراجـع مروان عن فكرة قتل البطرك ولكن مع إبقائه في الحبس مع رجاله العشرة وفي (رجل كل واحد منا طوبة حديد ثقيلة جدًا

يكون وزنها نصف خنجور وجعلونا خلف ثلاثة أبواب خشبية ليس ضوء ولا هواء ولا راحة).

وتذكر بعض الدراسات القبطية الحديثة كراهيـة مـروان الشديدة للمسيحيين مشوبة ببعض الأخطاء التاريخية فيقـول الأنبا غريغنوريوس أسقف عام الدراسات العليـا اللاهوتيـة والثقافية القبطية والبحث العلمي في كتاب عن الدير المحرق: (جاء عهد محمد بن مروان آخر خلفاء بني إميـة (٧٤٢ – ٧٥٠م) وكان شديد الكره للمسيحيين فأحرق عددًا من الأديرة وقتل الكثير من الرهبان فهرب عدد منهم إلى دير المحـرق، فتبعهم إلى هناك وذبح أكثر من مائة راهب منهم، حتى لقـد قال المؤرخون أن البابا مرقس الثالث وهو التاسع والأربعون من باباوات الإسكندرية (٧٩٩ – ٨١٩) مات متأثرًا بهـول هذا الخراب الذي حل بالأديرة والكنائس)[٢٩٤].

وهكذا يذكر أسقف البحث العلمي اسم الخليفة مقلوبًا فاسمه مروان بن محمد وليس العكس، كما أن بابا الكنيسة القبطيـة كان في ذلك الحين البابا خائيـل وهـو البطـرك السـادس

---

[٢٩٤] الأنبا غريغوريوس / الدير المحرق تاريخـه، ووصـفه، وكـل مشتملاته.

والأربعون في تـاريخ بطاركـة الكنيسـة ولـيس التاسـع والأربعين كما يقول. لكن الثابـت والمحفـور فـي أذهـان المصريين هو الكراهية غير المسبوقة التـي جسـدها آخـر الخلفاء الأمويين تجاه القبط ليس فقط بسبب ثوراتهم ضـده، بل لأن هذه الثورات العنيفة كانت إحدى علامـات انهيـار دولته وزوالها إلى الأبد...

فقد كان مروان خليفة الانهيار الذي اعتلى عرش الخلافة لحظة تقوض دعائمها.. فأخذها وتهاوى بها إلـى السـقوط الرهيب.. وقبل رحيله أشعل الحرائق في كل مكان.. ولـذلك كان الاضطهاد عامًا للمسلمين وغيـر المسـلمين.. للعـرب وغير العرب، الأحرار والموالي وأهـل الذمـة.. للرجـال والنساء.. للشباب والشيوخ والأطفال.. الجميع.. الجميع كانوا أعداءه الذين انتقم منهم لأنهم شهود سقوطه العظيم.. في حين كان العباسيون يبنون أسس دولتهم الجديدة فقسموا جيوشـهم على أربعة أجزاء: الأول بقيادة صالح بن علي والثاني بقيادة أبي الحكم والثالث توجه إلى أسفل شطنوف ونواحيها والرابع بقيادة أبي عون، وكانوا يسيطرون علـى نـواحي مصـر ويطاردون مروان وأبنائه.

أما من بقي في الجيزة – في النزهات – من أهلها فأطفأوا النار التي أشعلها ابن مروان قبل هروبه وفكوا وثاق البطرك (الله يشهد أن قومًا من المسلمين كانوا ركاب خيلهم نزلوا من عليها وفكوا الحديد عنا وأخذونا نحن مضوا بنا إلى مـاري بطرس في الجيزة وكان يمشي معنا قوم مؤمنون وكانت ليلة الأحد الأول من سرى).

وأمام انتصار العباسيين الذين امتد جيشهم من الجبل إلـى البحر (طلب جوثرة أمانًا فلم يقبلوه) وطالبوا بتسليم مـروان، ومضى جوثرة إلى مروان يحتال عليه. فبادر مـروان إلـى جوثرة وقتله.. لكن عسكر صالح بن علي العباسي ما لبثـت أن أدركت آخر الخلفاء الأمويين وقتلته.

وأظهر العباسيون سياسة اجتذاب القبط بـأن نـادوا فـي البلاد: (من كان نصرانيًا يعلق مثال الصليب مـن الـذهب والفضة والنحاس على جبهته وعلى ثوبه وعلى بيته ومن لم يعمل ذلك فلا ذنب علينا منه، وكانوا إذا وجدوا قومًا علـيهم علامة الصليب يخففون عنهم الخراج ويرفقون بهم ويعملون معهم الخير في جميع البلاد....).

كما أطلقوا سراح أنبا ميخائيل (وأكرموه كرامة عظيمة)، (ولما التمس الأب أنبا ميخائيل من الملك رزق البيـع فـي جميع الكور فعل له ما طلبه منه).

(وأما البشامرة فإنه سامحهم بالخراج ودفع لهـم خراجًـا آخر).

لكن فرحة القبط لم تدم كثيرًا، فبعد أن اسـتتبت الأمـور للعباسيين ودانت البلاد وخضعت (ومضى كل واحد منا إلى موضعه وأبو عون تولى مصر)، بعـث الخليفـة العباسـي رجلين من أصحاب الدواوين هما: عطا بن شرحبيل والآخر سفر، فأعادا الخراج إلى ما كان عليه وكل الضرائب السابقة وكشفا عن (بغضهما لنا نحن النصارى ومحبتهما للفضة).

وفي السنة الثالثة لحكـم العباسـيين (أضـعفوا الخـراج وأكملوه على النصارى.. ولم يوافوا لهم بما وعدوهم).

ورأى كثير من الأقباط التحول إلى الإسلام حـلا وحيـدًا للتخلص من عبء الخراج، ويمضي الأنبا ميخائيل إلى أبـي عون مناشدًا إياه برفع الخراج عن بِيـع الإسـكندرية وهنـا ينشغل ساويرس بذكر ما يخص البطرك والكنيسـة كعادتـه دائمًا وينسى ما يخص الشعب القبطي.

لكن الكندي يسجل في كتابه أنه في أثناءه ولاية أبي عون ثاني الولاة العباسيين، وبعد حدوث الوباء في مصـر سـنة خمس وثلاثين ومائة لم يترفق مسئول الخراج؛ عطـاء بـن شرحبيل – مولى مراد – بالناس فخرج أبو مينـا القبطـي بسمنود ثائرًا وبعث إليه الوالي بجيش بقيادة عبـد الـرحمن ابن عقبة فقتل أبا مينا وخمدت ثورة القبط[٢٩٥].

وطلب الخليفة من أبي عون التفرغ لقيادة جيوش المغرب وترك ولاية مصر لصالح بن علي.

ولم تكد تمر ستة أعوام حتى هبت ثورة قبطية جديدة عام ١٤٨ هـ في أثناء ولاية يزيد بن حاتم وفي خلافة أبي جعفر المنصور حيث (خرج القبط على يزيد بن حاتم بسخا ونابذوا العمال وأخرجوهم. وكان أميرها عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي، وذلك في سنة خمسين ومائة وصاروا إلـى شـبرا سنباط، فقاتلوا ابن عبد الرحمن.

وانضم إليهم أهل البشرود والأوسية والبجوم. فأتى الخبر يزيد بن حاتم فعقد لنصر بن حبيب المهلبي على أهل الديوان ووجوه أهل مصر. فخرجوا إليهم فبيتهم القبط. فطُعن محمد

---

[٢٩٥] الكندي ص ١٢٣.

بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج حتى سقط وطُعن نصر ابن حبيب طعنتين وقتل عبد الجبار بن عبد الرحمن وألقـى توبة الخولاني النار في عسكر القبط. وانصرف الجيش إلـى الفسطاط منهزمين)[٢٩٦].

ولا يذكر لنا الكندي كيف انتهت ثورة القبط هذه بعـد أن حققوا تلك الانتصارات على جيش الوالي العربـي وقتلـوا عيون رجاله وقادته وقتلوا والي سخا نفسـه ممـا اضـطر الجيش العربي للعودة إلى الفسطاط مهزومًا، ويستمر الكندي في تتبع سلسلة الولاة دون أن يذكر شيئًا عـن نهايـة تلـك الثورة وكيف خمدت ومن الذي قام بإخمادها، لكنه يـذكر – بعد قليل – نشوب ثورة جديدة في أثناء ولاية موسى بن علي ابن رباح اللخمي عام ١٥٦ هـ ـ فيقـول: (خـرج القـبط ببلهيب.. فعقد موسى لعبد الله بن المهاجر بن علي، حليـف ابن عامر بن عدي بن تجيب، فخرج في الجند ببلهيب فهزم القبط)[٢٩٧].

---

[٢٩٦] الكندي ص ١٣٧، ١٣٨.

[٢٩٧] الكندي ص ١٤١.

ونجد في كتاب "النجوم الزاهرة" لابن تغري بردي ذكـرًا لهذه الثورة حين يقول عن ولاية موسى بن علي (وفي ولايته خرج عليه قبط مصر وتجمعوا ببعض البلاد فبعث موسـى هذا بعسكر فقاتلوهم حتى هزموهم وقتل منهم جماعة وعفـا عن جماعة، ومهد أمور مصر)، وبعد كل ذلك يقول: (وكان فيه رفق بالرعية وتواضع)[٢٩٨].

ولا يذكر ساويرس بن المقفـع ثـورة عـام ١٥٦ هـ ـ وخروج القبط ببلهيب، كما أنه يقع في خطأ يخص ولاية ابن عبد الرحمن، حيث تولى مصر واليان يـدعيان ابـن عبـد الرحمن، وكانا أخوين أولهما عبد الله بن عبد الرحمن وقـد توفي في أثناء ولايته في صفر عام ١٥٥ هـ والآخر هـو محمد ابن عبد الرحمن الذي توفي وهو والٍ عليها أيضًا في شوال ١٥٥ هـ، أي بعد أخيه بحوالي ثمانية أشهر ونصـف فأيهما كان يقصد ساويرس وهو يقول: (عزل الوالي ابن عبد الرحمن عن مصر وأنفذ غيره إلى مصر)؟

وإذا دققنا النظر في تفاصيل الثورات السـابقة سـنلاحظ تغييرًا واضحًا في طريقة إعلان القبط عن غضبهم في القرن

---

[٢٩٨] ابن تغري بردي ص ٢٦.

الثاني للهجرة حيث أصبحت ثوراتهم أكثر تنظيمًا عـن ذي قبل، فالكندي يحدثنا عن عسكر القبط الذين هزمـوا عسـكر الوالي المنظمين والمتفرغين للقتال والتدريب والإعداد – كما سنلاحظ نشوب ثورات مشتركة فيما بعد يتعاون فيها عـرب وأقباط بعض المناطق ضد جيوش الوالي والخليفة..

وخصوصًا بعد انقضاء عهد الخليفـة هـارون الرشـيد واندلاع ثورات عربية في الحوف والصعيد فقد ثار أهل نتو وتُمي ضد الوالي حاتم بن هرثمة بن أعين في عهد الأمـين، وكما نعلم أن منطقتي نتو وتُمي كانتا منطقتي ثورات قبطيـة متتالية. وفي ولاية السري بن الحكم الثانية عام ٢٠٣ هـ ـ حينما اندلعت ثورة القبط بسخا ضد قـوات عبـد العزيـز الجروي، نجد قبيلة بني مدلج وهي نحو الثمانين ألفًا تناصـر قبط سخا. فخرج إليهم الجروي فهزمهم وهربت بنو مدلج.

وسنجد إشارة عارضة لطلب الجروي مقابلة البابا يعقوب وبينما لا يذكر ساويرس شيئًا عن خروج القبط في سـخا – ثورة قبط سخا – فإنه ينشغل بتتبع محنة البابا يعقوب وموته وتولي الأنبا سيمون ثم البابا يوساب رقم ٥٢ فـي كرسـي البطريركية.

وهنا نتوقف كثيرًا، حيث اندلعت في عهده أحداث الثورة الكبرى عام ٢١٦ هـ في ربوع مصر كلها واشـترك فيهـا قبط مصر وعربها – جميعًا – المضطهدون.. وربما تكـون أسباب الاضطهاد مختلفة لدى الطـرفين: فـالعرب كـانوا يثأرون لعنجهيتهم القبلية المهـدرة بعـد أن فضـل علـيهم العباسيون أجناس الفرس والديلم والأتـراك وأكثـروا مـن شرائهم وجعلهم دعامة الجيش والحكم؛ فنزلت بذلك مرتبـة العرب من أصحاب الديوان ومقاتلي الدولة الـذين يفـوزون بالغنائم والأموال ويتحكمون في البلاد والعباد.. إلى مجـرد رعايا يقطنون الأرض حينًا.. أما القبط فقـد كـان يـزداد اضطهادهم كلما زاد شره الولاة ومسئولي الخـراج لجمـع مزيد من المال، (وكان متوليا الخـراج فـي ذلـك الزمـان رجلين، أحدهما اسمه أحمد بن الأسـبط والآخـر إبـراهيم ابن تميم، هذين مع ما كانوا الناس عليه من البلايا لا يراعوا طلب الخراج بغير رحمة، وكانوا الناس فـي ضـيق زايـد لا يحصى وأصعب ما عليهم مـا يطلبـوه مـنهم متـوليين الخراج، وطلب ما لا يقدروا عليه وبعد هذا أنزل الله الكريم بأحكامه الحق غلاء عظيمًا على كورة مصر، حتى أن القمح

بلغ خمس وبيات بدينار، ومات بالجوع خلق كثير من النساء والأطفال والصبيان والشيوخ والشبان، ومن جميع الناس مـا لا يحصى عدده من شدة الجوع)[٢٩٩].

فالغلاء والموت جوعًا من جهة.. وقسوة جامعي الخـراج من جهة أخرى كانا سبب انفجار الثورات القبطية. والضغط يأتي من أعلى إلى أسفل، فيرتد ثورة من أسفل إلى أعلى...

وخزائن الخليفة المأمون تطالب واليه أبا إسحاق المعتصم بحقها في أموال الجباية، وخزائن المعتصم تلح على نائبه في مصر للإسراع في توريد المال اللازم.. ونائب الوالي يشـتد على رجاله، ورجاله يأججون نار قسـوتهم ضـد الشـعب القبطي؛ دافع الجزية والخراج.. حتى كان عـام ٢١٦ هـ ـ فانفجر أتون الغضب في مصر كلها شرقها وغربها.. شمالها وجنوبها... واشترك في إشعاله عربها وقبطها... ولأول مرة منذ الفتح العربي لمصر يجتمع العرب والقـبط فـي عمـل مشترك كبير في بداية القرن الثالث الهجري، بعد أن جـرى الدهر على العرب، وتغيرت أحوالهم وهبطوا مـن منزلـة الحكام الظالمين إلى أرض المحكومين المظلومين.. لا أقول

---

[٢٩٩] ساويرس ص ٢٦٧.

إن الرؤوس قد تساوت تمامًا... ولكـن اقتربـت المسـافات وتزامنت الأحداث وإن لم تنصهر العناصر تمامًا... وربمـا كانت أحداث تلك الثورة قد شكلت لبنة أساسية على طريـق انصهار قبط وعرب ذلك الزمان.

ويقدم ابن إياس صورة للتحالف المشترك بـين العـرب والقبط بقوله:

(وانضم الأقباط عليهم – يقصد على عرب أسفل الأرض أو عرب الوجه البحري – وذلك في جمادى الأولى، وحشدوا وجمعوا فكثر عددهم وساروا نحو الديار المصرية – فتجهز عيسى وجمع العساكر والجند لقتالهم فضـعف عـن لقـائهم وتقهقر بمن معه فدخلت الأقبـاط وأهـل الغربيـة مصـر، وأخرجوا منها عيسى هذا على أقبح وجـه لسـوء سـيرته، وخرج معه أيضًا متولي خراج مصر، وخلعوا الطاعة)[٣٠٠].

وهكذا لم يكتف قبط مصر بالثورة في مواطنهم الطبيعيـة بالقرى كما كانوا يفعلون من قبل، بل خرجوا وساروا إلـى العاصمة في تحالف مسلح مع العرب الثائرين ضد الحـاكم الرسمي المعين من قبل الخلافة العباسـية ويـدعى عيسـى

---

[٣٠٠] ابن إياس.

ابن منصور الرافقي، ولما عجزت قوات الوالي عـن صـد الثورات الزاحفة إليها في عقر دارها فضلا عن فشلها فـي حفظ الاستقرار السياسي للبلاد، استنجدت بالخليفة في بغـداد الذي أمر الأفشين بالتوجه على رأس جيوشه من برقة إلـى مصر على وجه السرعة، فقدم الأفشين حيدر بـن كـاوس الصفدي تحت الراية السوداء للعباسيين ليؤدب أهـل مصـر ويقمع ثورتهم.

ووصل الأفشين في أوان الفيضان حينما تكون قرى مصر ومدنها كالنجوم السابحة من شدة إحاطة الماء بهـا، فيتعـذر الانتقال من بلدة إلى أخرى إلا بالسـفن، ووصـل الأفشـين بجيشه إلى الفسطاط في جمادى الآخرة وعسكر بهـا حتـى انتهاء الفيضان الذي يأتي بالخير حينًا وبالدمار أحيانًا أخرى.

وهكذا، تزامن فيضان النيل مع فيضان ثورة الشعب بينما الجيش الفاتك القادم تحت الرايـة السـوداء للخليفـة يقـيم (بالفسطاط لأن النيل في مده قد حال بينه وبينهم، ثم خـرج الأفشين وعيسى بن منصور جميعًا، فعسكروا في شوال سنة ست عشرة، فحاربه أهل تنو وتُمي، وقد اجتمعـوا بأشـليم، وعقدوا عليهم لابن عبيدس الفهري من ولد عقبة بـن نـافع

فواقعهم الأفشين بإشليم، فهزمهم وأسر منهم كثيـرًا فقـتلهم. ورجع عيسى بن منصور إلى الفسطاط ومضى الأفشين إلى الحوف فقلّ جماعتهم، وبعث الأفشين عبد الله بن يزيد إلـى الغربية، فانهزم إلى الإسكندرية واستجاشت عليه بنو مـدلج فحصروه في حصن الإسكندرية، وذلك في شوال سنة سـت عشرة. ومضى الأفشين إلى شرقيون، فلقى من هناك بمحلـة أبي الهيثم، فاقتتلوا. فظفر بهم الأفشين وقتل صاحبهم أبا ثور اللخمي ومضى الأفشين أيضًا إلى دميرة فحـاربهم فـي ذي القعدة سنة ست عشرة، فظفر بهم، وخرج عيسى بن منصور من الفسطاط إلى تُمي، فقاتل أهلها، فانهزم أهل تُمي. وأقبـل الأفشين في جنوده إلى الإسكندرية فلقيه طائفة من بني مدلج بخربتا، فهزمهم وأتوه أيضًا بمحلة الخلفاء، فهـزمهم وأسـر أكثرهم، فنزل بهم قُرطسا، فضـرب أعنـاقهم بهـا وأتـى الإسكندرية، فدخلها وهرب منه رؤساؤهم، وهم بحر بن علي اللخمي، وابن عقاب اللخمي. وكان رئيس جماعتهم معاويـة ابن عبد الواحد بن محمد بن عبـد الـرحمن بـن معاويـة ابن حديج.

وكان دخول الأفشين الإسكندرية لعشـر بقـين مـن ذي الحجة سنة ست عشرة، ومضى الأفشين بعد فتح الإسكندرية على أهل البشرود، فكان موافقًا لهم وقد امتنعوا حتـى قـدم المأمون)[٣٠١].

ونلاحظ أن نتائج معارك الأفشين لم تكن نهائية وحاسـمة منذ الجولة الأولى في القضاء علـى ثـورات كثيـر مـن المناطق، ففي منطقة تمي اندلعت الثورة عدة مـرات ففـي المرة الأولى خرج فيها أهل تنو وتمي من بلادهم وعسكروا بإشليم حيث قاتلهم الأفشين وبدا هناك منتصرًا.. ويبدو أنـه وثق بقوة جيشه حينما كسب تلك الجولة فأعاد عيسـى بـن منصور إلى الفسطاط خوفًا على أمـن العاصـمة، واقتطـع جزءًا من جيشه وبعثه إلى الغربية ومضى هو إلى الشرقية، لكن العرب الثائرة من بني مدلج هزموا رجله عبـد الله بـن يزيد وطاردوه حتى اضطر للفرار إلى الإسكندرية والاحتماء بحصونها، وظل محاصرًا هناك.

وبينما جيش الأفشين يتجول في الناحية الشرقية ويقاتـل من موقع إلى آخر (من محلة أبي الهيثم إلى دميـرة قـرب

---

[٣٠١] الكندي ص ٢١٤.

دمياط)، عادت ثورة تُمي مرة أخرى فخـرج إلـيهم جـيش الوالي عيسى بن منصور من الفسطاط وهـزمهم الهزيمـة الثانية.. ولم تسلم منطقة الحوف الشرقي للخلافـة العباسـية بسهولة.. وخصوصًا زمن الخليفة المأمون فسـنجد ثـورات عقب ثورات، وحروبًا تلي حروبًا بسـبب زيـادة الخـراج ورفض العرب القيسية واليمانية لهذه الزيادات كما حدث في ثورة ١٩٤ هـ، فقدم حاتم بن هرثمة والي مصر على رأس ألف رجل ونزل ببلبيس، (فصالحه أهل الحـوف علـى أداء الخراج ولكنهم ما لبثوا أن نقضوا صـلحهم وثـاروا عليـه واجتمعوا على قتاله.

فبعث إليهم جيشًا قاتلهم وأخمد ثورتهم. وانتقل حاتم مـن بلبيس إلى الفسطاط فـي شـوال ١٩٤ هـ ومعـه مائـة من الرهائن من أهل الحوف. وولى المعتصـم – المسـئول الأول عن مصر في ذلك الحـين – صـالح بـن شـيرزاد الخراج، فظلم الناس وزاد وعسف فانتفض عليه أهل الحوف واجتمعوا وعزموا على قتاله فبعث عيسى بن يزيد الجلودي والي مصر ابنه في جيش لنصرة صاحب الخراج، فلقيه أهل الحوف ببلبيس في صفر ٢١٤ هـ، فهزموه وقتلوا أصحابه،

ونجا هو هاربًا، فلما بلغ الخبر المعتصم عظم عليه وعـزل الوالي وولى عوضه عمير بن الوليد التميمي فاستعد عميـر للحرب، وأراد التفريق بين القيسية واليمنية من أهل الحـوف فأرسل إلى القيسية عبد الله بن حليس الهلالي ليـردهم إلـى الطاعة ويبعدهم عن اليمانيين. ولكن ابن حليس انضم إلـيهم وزادهم تحريضًا على الوالي حتى جعلوه رئيسًا عليهم. فسار إليهم عمير في جيوشه لليمنية ينصحانهم ويرغبـانهم. فلـم ينههم ذلك عن الحرب وزحفوا إلى عمير).

وهكذا كان الحوف الشرقي في ثورات متتالية، فبعد ثورة ١٩٤ هـ التي أخمدها الوالي حاتم بن هرثمة سـنجد ثـورة ٢١٤ هـ ثم ثورة ثالثة في شعبان ٢١٤ هـ في أثناء ولاية عيسى بن يزيد الجلودي الثانية، مما اضـطر المعتصـم – المسئول الأول عن مصر – إلى المجيء بنفسه (فقتلهم وقتل أكابرهم ووضع السيف في القيسية واليمنية حتى أفناهم)[٣٠٢].

وأخيرًا، كانت ثورة ٢١٦ هـ التي اضـطرت الخليفـة المأمون إلى المجيء بنفسه (فسخط على عيسى بن منصور، وأمر بحل لوائه بلباس البياض، وقال – لم يكن هذا الحـدث

---

[٣٠٢] لمزيد من التفاصيل انظر حسين نصار، ثورات مصر الشعبية.

العظيم – يقصد أحداث الثورة – إلا عن فعلك وفعل عمالـك حملتم الناس ما لا يطيقون، وكتمتوني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد).

فهل كان المأمون لا يعلم بأوضاع مصر غير المسـتقرة وهو الذي غير ولاتها حوالي عشر مرات في مدة قصيرة؟! وإذا كان لا يعلم، أفلم يسمع عن جيوشه التي جاءت لتحارب الثوار عدة مرات...؟

أم أن الأمر لا يتعدى كون الخليفة كان يريد كبش فـداء يضحي به أمام محكوميه، صحيح أن الخليفة المأمون كان قد ولى أخاه أبا إسحاق والذي سنعرفه فيما بعد باسم المعتصم – الشام ومصر – وأن أبا إسحاق المعتصم هو الذي كان يعين ولاة مصر بعد أن أصبحت إقطاعة المهدي إليه من الخليفة، ولذلك ربما يرى البعض أن الخليفة قد قطع وشائج اهتمامـه بالأمور الداخلية لولاية مصر بعد أن أعطاها لأخيه طُعمه.. ولكن ضخامة الأحداث واتساع حجـم الثـورات ومجـيء الجيوش من الشرق عدة مرات لإخمادها ينفي أن تكون ثورة ٢١٦ هـ مفاجئة للخليفة الذي ادعى بأنهم كتموا عنه الأخبار حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد.. فكيف لا يعلم الخليفـة أن

والي مصر قد تغير عشر مرات وأن الثـورة انـدلعت فـي ربوعها أكثر من خمس مرات، وأنها شملت الحوف الشرقي وعمت الإسكندرية في الغرب وزحفت إلـى الصـعيد فـي الجنوب...

وهكذا تصدت ثلاثة جيوش لثورات مصر –

فكان جيش المأمون يقاتل أهل الحوف.

وجيش الأفشين يحاصر أهل البشرود.

وجيش موسى بن إبراهيم ابن عم الخليفـة يقاتـل أهـل الصعيد.

ونجحت الجيوش الثلاثة في إخماد الثورات المصـرية.. وكان حكم المأمون في القبط يقضي (بقتـل الرجـال وبيـع النساء والأطفال، فبيعوا وسبي أكثرهم)[٣٠٣].

ويقال إن المأمون كان قد استفتى في قبط مصر فقيهًا يقال له الحارث بن مسكين، وهو على مذهب الإمام مالك: (فقـال إن كانوا خرجوا لظلم نالهم فلا يحل دماؤهم وأموالهم، فقـال المأمون [أنت تيس ومالك أتيس منك] هؤلاء كفار لهم ذمة إذا ظُلموا تظلموا إلى الإمام وليس لهم أن يستنصروا (بأسيافهم)

---

[٣٠٣] الكندي ص ٢١٦.

ولا يسفكوا دماء المسلمين في ديـارهم، وأخـرج المـأمون رؤساءهم فحملهم إلى بغداد)[٣٠٤].

ويقول ابن إياس: (سبو القبط وقتلوا مقـاتلتهم وأبـادوهم وقمعوا أهل الفساد من سائر أراضي مصر بعـد أن قتلـوا مقتلة عظيمة)[٣٠٥].

وسياسة المأمون القاضية بضرورة قتل كـل الخـارجين على حكمه دون هوادة كانت عامة وشاملة؛ فبعـد أن حكـم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال من الأقبـاط، وبعـد أن انتصر جيشه الذي كان قد أرسله إلى الصعيد بقيادة ابن عمه موسى بن إبراهيم، أمر بأن يأتوا له بقائد ثورة الصعيد ابـن عبيدس الفهري من طحا بصعيد مصر إلى سخا فـي أسـفل الأرض وقتله هناك (وتتبع كل من يومأ إليه بخلاف فقتلـه، فقتل ناسًا كثيرا)[٣٠٦].

ويروي الكوفي في كتاب "الفتوح" لحظة القـبض علـى عبيدس الفهري بقوله: (أحدقت به الخيل مـن كـل جانـب،

---

[٣٠٤] اليعقوبي ص ١٩٢.

[٣٠٥] ابن اياس / الجزء الثاني ص ٢١٥.

[٣٠٦] الكندي ص ٢١٦.

واشتعلت النار حواليه، فلما نظر إلى ذلك خرج هاربًـا هـو وأصحابه، فأخذ أسيرًا ومعه أصحابه).

وعومات البشرود معاملة البلاد المفتوحة عنوة، حتـى أن الطبري يتحدث عنها كما لو كانت من بلاد الأعـاجم التـي يدخلها جيش المسلمين للمرة الأولى فيقول – (قُـرئ كتـاب فتحها لليلة بقيت من شهر ربيع الآخر)[٣٠٧].

ويبدو أن رياح الفتن قد انتقلت إلى حاشية الخليفة نفسـه، حيث وشى محمد بن أبي العباس الطوسي وأحمد بـن أبـي داود بيحيي بن أكثم قاضي الخليفة ومفتيه، وبعد أن اسـتمع المأمون إلى وشاية الواشين وأدرك مدى غضب أخيه أبـي إسحاق المعتصم على هذا القاضي (فسخط عليـه المـأمون وأمر بنفيه من عسكره ونزع السواد عنه وأخرجه إلى بغداد وأمره أن لا يخرج من منزله فأخرج مـن مصـر وأرسـل موكلين به وسخط أيضًا على عيسى بـن منصـور القائـد الرافقي وأخرجه من عسكره، وكان السخط عليهما في يـوم واحد، وكان مقام المأمون بمصر سبعة وأربعين يومًـا قـدم

---

[٣٠٧] الطبري / الجزء السابع ص ١٩٠.

لعشر خلون من المحرم وخرج لثلاث بقين من صفر سـنة ٢١٧ هـ)[٣٠٨].

وسكنت مصر على بحيرة الدم التي أريقت طـوال هـذه المدة... ولم يعد بها من مناوئ أو معارض (فلما خمدت هذه الفتنة، سرح المأمون في ضواحي مصر، فكان يقيم في كـل قرية يومًا وليلة، ثم يرحل عنها، فكـان إذا نـزل بقريـة، يضرب له سراديق من حرير، ويجلس على دكة من الأبنوس مطعمة بفضة، وينصب له عليها لواء من حرير أسود مرقوم بالذهب وتحاط به الوزراء والأمراء من كل جانب)[٣٠٩].

مارية الثانية حقيقة أم خيال؟

بعد كل هذه الثورات الناتجة عن قسوة الجباة فـي جمـع الضرائب والفاقة والبـؤس الشـديدين المحيطـين بـالفلاح المصري، تحدثنا بعض كتب التاريخ عن مارية أخـرى... قبطية أيضًا... عاصرت وقت نزول الخليفة المأمون مصـر في بداية القرن الثالث الهجري، وكان لها ولقريتها الصغيرة، المسماة طاء النمل أو طاه أنمل حكاية معه... وربما لا نجـد

---

[٣٠٨] اليعقوبي ص ١٩٢.

[٣٠٩] اليعقوبي، ص ١٩٢.

لهذه القرية أثرًا في خرائط الجغـرافيين المهتمـة بالأقـاليم والمدن والقرى الكبيرة فقط، كما لا نجد لها ذكرًا لدى ياقوت الحموي في "معجم البلدان" القديم، أو عند محمد رمزي فـي "قاموس البلدان المصرية" الحديث، ولضآلة هذا الشأن مر بها الخليفة المأمون، (فلم يدخلها لحقارتها)، كما يقول المقريزي في كتاب "المواعظ والاعتبار": (فلما تجاوزها خرجت إليـه عجوز تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية وهـي تصـيح فظنها المأمون مستغيثة متظلمة فوقف لها).

ولأنه لا يعرف لغتها فلم يفهم سـبب صـياحها... إنهـا تتحدث باللغة القبطية على الرغم من كونها تعيش في القرن الثالث الهجري والخليفة العربي ورجال دولتـه يعرفـون أن شعب مصر القبطي وخصوصًا في القرى ما يزال متمسـكًا بلسانه القبطي، ولذلك فقد كان المأمون يحتـاط للأمـر (ولا يمشي أبدًا إلا والتراجمة بين يديه من كـل جـنس، فـذكر التراجمة له أن القبطية قالت يا أمير المؤمنين نزلت في كـل ضيعة وتجاوزت ضيعتي والقبط تعيرني بذلك وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفني بحلوله في ضيعتي ليكون لي الشـرف

والعقبى ولا تشمت الأعداء وبكت بكاءً كثيـرًا؛ فـرق لهـا المأمون وثنى عنان فرسه إليها ونزل)[٣١٠].

عاد المأمون أدراجه ودخل قريتها هو ورجـال دولتـه، ولكن هل تقدر تلك العجوز القبطية على استضـافة الخليفـة والجموع المصاحبة له؟ هذا ما لمح به المـأمون لحاشـيته حينما قال: (إن قريتها صغيرة لا تحمل العسكر، ولا تطيـق هذه العجوز كلفتنا).

وكانت القرى المصرية تضج قبل ذلك من كلفة الضـيافة الإجبارية للجنود العرب، فما بالنا بكلفة استضـافة الخليفـة وحاشيته ورجال دولته وعساكره وهو الذي يبنى لـه (بكـل قرية دكة يضرب عليها سرادقه والعساكر من حوله وكـان يقيم في القرية يومًا وليلة)، كما يقول المقريزي، أو حسـب تفصيل ابن إياس بأنه (كان إذا نزل بقرية يضرب له سرادق من حرير، ويجلس على دكة من الأبنوس مطعمة، وينصـب له عليها لواء من حرير أسود، مرقوم بالذهب وتحـاط بـه الوزراء والأمراء من كل جانب).

---

[٣١٠] المقريزي.

وبرغم هذه الحشود الرسمية وضآلة حجم القرية بالنسـبة لها فقد أصرت العجوز على التمسك بالدعوة قائلة:

(لا سبيل أن يتجاوز أمير المؤمنين قريتي، فعند ذلك ثنى المأمون عنان فرسه ونزل بقريتها، وضرب بها خيامه).

فهل تستطيع أن تقوم بواجب الضيافة وتوفر له ما كانـت تقدمه القرى الأخرى (من الغنم والدجاج والفـراخ والسـمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفـة وغير ذلك؟).

وكالعادة تقدم رواية ابن إياس تفاصيل أكثر فيقول:

(فلما استقر بها ومن معه من المعسكر، جاء ولـد تلـك العجوز إلى صاحب المطبخ وقال له: اذكر لي ما تحتاج إليه من غنم، وبقر، ودجاج، وأفـراخ السـمك، وأوز، وسـكر وعسل، وفستق، ولوز وفاكهة، وحلوى، ومسك، ومـاورد، وشمع، وبقولات وغير ذلك مما جرت به عادة الخلفاء.

فلما ذكر له صاحب المطبخ ما تحتاج إليه فغاب سـرعة يسيرة وأحضر له جميع ما يحتاج من تلك الأصـناف التـي

ذكرها له، ثم أحضر لأقارب المأمون لكل واحد منهم ما يخص به على انفراده)[٣١١].

وأقارب المأمون المصاحبون له في تلك الجولة هم: (أخوه المعتصم وابنه العباس وأولاد أخيه الواثق والمتوكل ويحيي ابن أكثم – قبل أن يغضب عليه الخليفة ويبعده – والقاضي أحمد بن داوود)[٣١٢].

ومع كل واحد من هؤلاء حاشيته وأتباعه الكثيرون.

ومارية العجوز القبطية أحضرت لكل فيلق (ما يخصه على انفراد ولم تكل أحدًا منهم ولا من القواد إلى غيره، ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذة شيئًا كثيرًا حتى أنه استعظم ذلك.

فلما أصبح وقد عزم على الرحيل حضرت إليه ومعها عشر وصائف مع كل وصيفة طبق، فلما عاينها المأمون من بعد قال لمن حضر قد جاءتكم القبطية بهدية الريف الكامخ والصحناه والصبر، فلما وضعت ذلك بين يديه إذا في كل طبق كيس من ذهب فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته، فقالت:

---

(٣١١) ابن إياس.

(٣١٢) المقريزي.

لا والله لا أفعل، فتأمل الذهب فإذا به ضرب عام واحد كلـه فقال: هذا والله أعجب، بما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلـك، فقالت: يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا، فقال: إن في بعض ما صنعت لكفاية ولا نحب التثقيل عليك فردي مالك بارك الله فيك، فأخذت قطعة من الأرض وقالت يا أمير المؤمنين هذا - وأشارت إلى الذهب - من هذا وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض ثم مـن عـدلك يـا أميـر المؤمنين، وعندي من هذا شيء كثير، فأمر به فأخـذ منهـا وأقطعها عدة ضياع وأعطاها من قريتها طاء النمـل مـائتي فدان بغير خراج وانصرف متعجبًا من كبر مروءتها وسـعة حالها)[٣١٣].

تلك هي قصة مارية القرن الثالث الهجري التـي ذكرهـا المقريزي ونقلها عنه ابن إياس بتفصيل أكبـر فـي بعـض المواضع... أما المؤرخون الأقرب عهدًا من زمن حـدوث الحكاية والمهتمون بالإشارة إلى ما يخص ثـورات الأقبـاط وخصوصًا أحداث عام ٢١٦ هـ وزيارة المـأمون لمصـر مثل الكندي المتوفى عام ٣٥٠ هـ فلا نجد لديه أي أثر عن

---

[٣١٣] المقريزي.

هذه الحكاية الشبيهة بحكايات ألف ليلة وليلة. كما لا نجد لها أثرًا أيضًا لدى المتأخرين من المؤرخين مثل السيوطي فـي كتابيه "تاريخ الخلفاء" و"حسن المحاضرة في تـاريخ مصـر والقاهرة" أو لدى ابن تغري بردي الأتابكي في كتابه المهـم "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة".

وفي الحقيقة إن القصة التي ذكرها المقريزي وأفاض فيها ابن إياس تحتاج إلى بعض التأمل. فحكاية ماريا القبطية التي لم تخرج من قريتها، ولم تذهب إلى الحكام بل جـاء إليهـا الخليفة تجعلنا نتساءل: كيف يعقل أن تمتلك كل هذا القدر من المال والذهب والمؤن في نفس الوقت الذي كانت كل القرى الأخرى تشكو الجوع والفاقة وفداحة استنزاف الجباة لثرواتها أولا. .. بأول؟

هل كانت قريتها قطعة منتزعة مـن خريطـة العـذاب والواقع على القرى الأخرى...؟ أم أن العجوز وجدت كنـزًا قررت بذله لرجال الدولة عن طيب خاطر...؟

ولكنها تقرر في النص السابق أن هذا مشيرة إلى الـذهب من هذا مشيرة إلى الطينة التي تناولتها مـن الأرض.. ممـا ينفي فكرة العثور على كنز مفاجئ.

فهل أخرجت مدخراتها وخبيئة زمانها؟ وأنى لها الادخار في ظروف جعلت أقرانها يبيعون أولادهم نظير ما عليهم من خراج. ويكفي أن نقـرأ وصـف البطريـرك ديونيسـيوس بطريرك كنيسة إنطاكية والذي كان يحظى بمنزلة عالية لدى الخليفة المأمون فاصطحبه معه فـي رحلتـه إلـى مصـر وليساعده في التقرب إلى أقباط مصر وتهدئة ثورتهم.

ويحكي ديونيسيوس عن مدينة تنيس وهي مدينـة كبيـرة نسبيًا فيقول: (ومع أن مدينة تنيس عامرة بالسـكان كثيـرة الكنائس فإني لم أر من البؤس في بلد أكثر من بؤس أهلهـا، وقد سألتهم عن مصدر هذا البؤس فأجابوني:

إن مدينتنا محاطة بالماء فلا نستطيع زرعًـا ولا تربيـة ماشية، والماء الذي نشربه يجلب لنا من بعيد، ونشتري الجرة منه بأربعة دراهم، ولا شغل لنا سوى نسيج الكتان، فنسـاؤنا تغزله ونحن ننسجه، ونعطي على ذلك نصف درهم في اليوم من تجار الأقمشة، ومع أن أجرتنا لا تكفي لإطعام كلابنا فإن على كل منا أن يدفع ضريبة مقدارها خمسة دنانير، ومع ذلك نضرب ونسجن ونلزم بإعطاء أبائنا وبناتنا رهائن، فيلزمون بالعمل كالعبيد سنتين لأجل كل دينار، ولو ولـدت عنـدهم

امرأة طفلا فإنهم يأخذون قسمنا بألا نطالب به، وقد يحدث أن تحل ضرائب جديدة قبل إطلاق هـؤلاء النسـاء، فأجـابهم البطريرك بأنه بحسب قانون العراق عليهم متى طلبت مـنهم الجزية أن يدفع الغني منهم ثمانية وأربعين درهمًا والمتوسط أربعة وعشرين والفقير اثني عشر درهمًا.

وكانت الجزية تؤخذ مقسطة على ستة أجزاء أو خمسـة أو أربعة أو ثلاثة أو إثنين)[٣١٤].

ومأساة مدينة تنيس تكررت في البلاد المصرية الأخـرى مما دفع إلى الثورة العارمة، فكيف تسـتثني قريـة ماريـا القبطية من تلك الظروف العامة وحتى إذا سـلمنا بملكيتهـا لتلال الذهب في الحكاية، لأسـباب خارجـة عـن منطقنـا المحدود أو بمقتضى التسليم بمبالغات المؤرخين فكيف تبـذل ما تملك بتلك السهولة لملوك أبادوا إخوتها القبط في مواضع ثوراتهم، فليس سرًا أن الخليفة المأمون لم يكن يتنـزه هـو وعساكره ورجال دولته في ربوع مصر من أجـل التمتـع بالخضرة الوارفة وتنسم الهواء العليل، ولم يكن فـي رحلـة صيد كالتي نسمع عنها في حكايات ألف ليلة وليلة.. وإنمـا

---

(٣١٤) انظر آدم متز / الحضارة الإسلامية ص ٩٧.

كان في جولة تأديب للقطر المنشق عن طاعته في ثـورات متتالية فشلت جيوش قواده في إخمادها فاضطر إلى أن يأتي بنفسه على رأس جيش كبير، بل ثلاثة جيوش بعث بأحـدها إلى الصعيد والآخر إلى البشرود وتزعم الثالث بنفسه للقضاء على ثائري سخا.

وتفاصيل حكاية ماريا وخلفياتها غير المنطقية تدفعنا إلـى التساؤل:

هل كان كرمًا من ماريا..؟ أم هي الحيلة والدهاء...؟

هل هي مبالغات المؤرخين وما أكثرها...؟

أم هو عدم صحة الحكاية من الأصل...؟

وأيا كانت الإجابة فغرابة القصة تأتي من مفارقتها للواقع القبطي العام في ذلك الحين وابتعادها عنه كل الابتعاد.

الكنيسة مع من... وضد من....؟

أموال الكنيسة قيود للشعب

كنيسة ضد الشعب

ويظل موقف الكنيسة القبطية من ثورة الشـعب القبطـي يشكل علامة استفهام كبرى بلغت ذروتها في عام ٢١٦ هـ مع ثورة البشموريين حيث لم يكتف البابا يوساب بأن (كتـب

إليهم كتبًا مملوءة خوفًا ويذكر لهم ما يحـل بهـم ليعـودوا ويندموا ويرجعوا عن خلافهم ويدعوا مقاومة السلطان فلـم يرجعوا فلم يفتر من مكاتبتهم كل يوم وكـان يكتـب إلـيهم فصولا من الكتب ويقول: "قال لسان العطر بولس كـل مـن يقاوم السلطان فهو يقاوم حدود الله والذي يقاومه يدان)[٣١٥].

ولم يكتف البابا بهذه المكاتيب المحطمة لروح الشعب بل كان في طليعة المستقبلين للخليفة المأمون وجـيش التأديـب الوافد تحت إمرأته، فيقول ساويرس بن المقفع: (لمـا علـم الأب البطرك أنبا يوساب بوصول المأمون وصحبته بطـرك أنطاكية جمع الأساقفة وسار إلى فسطاط مصر ليسلم عليـه كما يجب للملوك.. فلما عرفوه بوصول أنبا يوسـاب تقـدم بدخوله إليه فلما حضر عنده قبله بفرح بنعمة الله الهالة عليه، ثم عرفه أنبا ديونوسيوس – بطرك أنطاكيـا المقـرب إلـى المأمون والقادم معه من بغداد – إن أبانا لـم يتـأخر عـن مكاتبته البشموريين وأردعهم أن لا يقاوموا أمـرك، ففـرح المأمون بهذا الأمر، ثم قال للبطرك أنبا يوساب هو ذا أمرك أنت ورفيقك البطرك ديونوسيوس أن تمضيا إلى هؤلاء القوم

---

[٣١٥] ساويرس.

وتردعاهم كما يجب في ناموسكما ليرجعـوا عـن خلافهـم ويطيعوا أمري، فإن أجابوا فأنا أفعل معهم الخير فـي كـل ما يطلبونه مني وإذا تمادوا على الخلاف فنحن بريئون مـن دمائهم.

ففعل أبوانا البطركان وسارا إلى البشموريين وسألاهم ثم نصحاهم ووبخاهم ليتخلوا عن أفعالهم فلم يجيبوا ولا قبلـوا سؤالهما فعادوا وأعلما المأمون بذلك فأمر حينئـذ المـأمون الأفشين الأميـر بـأن يسـير إلـيهم بعسـكره وأن يقاتـل البشموريين).

ومن الغريب ألا يسجل لنا التاريخ أي دفاع يفهم منه مـن قريب أو بعيد شبهة انحيـاز البابـا يوسـاب إلـى شـعبه البشموري، بل إننا نجد دفاعًا صريحًا عنهم يأتي على لسان بطرك الكنيسة الأنطاكية وصمت مطبق من بابـا الكنيسـة المصرية حينما تجرأ وذكـر أمـام المـأمون بـأن ثـورة البشموريين كانت بسبب (ظلم متـولي الخـراج وعنتهمـا وأعتابهما).

فلما سمع منه المأمون هذا الكلام قال له:

(اعف نفسك ولا تقم بمصر بعد هذه السـاعة، إن سـمع أخي إبراهيم فهو يقتلك).

فالمأمون لم يبعثهما للتفاوض مع الشعب، وسماع شـكواه ومظالمه لنقلها إليه... وإنما بعثهما بهدف استخدام سطوتهما الدينية لإخراس الناس... وحينما تجرأ بطرك أنطاكية، وذكر سبب الظلم الواقع عليهم غضب عليه ونفاه من فوره خـارج مصر دفاعًا عن أخيه إبراهيم المسئول عـن تعيـين جبـاة الخراج الظالمين... ولم تكد ثـورة البشـموريين أن تخمـد والمأمون يرحل عن مصر، حتى انقلب الحكام على البطرك برغم تعاونه:

بعد أن جرد (أخو الأفشين سيفه ليأخذ رأس البطرك، فعند ذلك مالت يده فوقع السيف في عمود رخام وانكسر)[٣١٦].

ونجا البابا يوساب بالصدفة من محاولة القتل، ولكن أخـا الأفشين (أخذه ليمضي به إلى أخيه كما أمـره وفيمـا هـم يجذبونه ليخرجوه والشعب متعلق به فقال لهم لا تمسـكوني فما نحن مقاومون للسلطان، فخرج والشعب يتبعونه بـاكين يسجدون على رجليه ويديه ويظنون أنه يقتل، فلما نظـرهم

---

[٣١٦] ص ٢٧٢.

أخو الأمير يمسكونه غضب جدًا ورفع يده وضربه بمقرعـة على رأسه؛ فانجرحت عيناه ودخل إلى الأفشين فخاطبه بمـا ينبغي.. ولما علم المأمون الخبر من الواردين عليه أمـر أن يكتب له سجل بكرامته ورعايته أن لا يعترضـه أحـد فـي أحكامه ولا في من يوسمه أو يقطعه، ثـم بعـد ذلـك أمـر المأمون أن يطلب من بقي من البشموريين بكورة مصر وأن يسيروا إلى بغداد، فسيروا وأقاموا في الحبوس مـدة كبيـرة حتى أراد الله خلاصهم من يد إبراهيم الملك بعد أخيه. فمنهم من رجع إلى بلاده ومنهم من بقي هناك ببغداد وأنشأوا بساتين وأقاموا هناك إلى اليوم وهم إلى اليوم – يقصد يوم كتابة تلك السـطور مـن كتـاب سـاويرس – يسـمون أهـل البشروديين)[٣١٧]. وربما كانت تلك الحادثة السبب في جعـل ساويرس يفكر بأن المأمون (كان رجلا حكيمًـا فـي فعلـه ويبحث عن مذهبنا ويجلس عنده قوم حكماء يفسـرون لـه كتبنا، وبهذا الحكم كان محبًا للنصارى)[٣١٨].

---

[٣١٧] ص ٢٧٣.

[٣١٨] ص ٢٧٠.

لأننا إذا بحثنا عن سبب القول بحب المـأمون للنصـارى فلن نجد له أصلا في حوادث البشموريين الذين لاقوا العذاب على يديه من قتل وبيع وسجن حتى إن بقاياهم لم تنعتق مـن السجن إلا بعد موت المأمون. وفي تاريخه لم يكـن هنـاك تكريم لقبط مصر إلا حين أمر والي مصر بـالإفراج عـن البابا يوساب وأن (يكتب له سجل بكرامته ورعايته).

وظل البابا يوساب يدعو شعبه في المواقع الأخرى بطاعة الخليفة حتى يأمن عقابه وبطشه، فحينما بدأ يهتم بأمر النوبة والحبشة كتب إليهم كتبًا تقول:

(كانت خطيئتي تمنعني ألا أكاتبكم لأجل الحـروب التـي كانت بأرض مصر ومخالفة أهل البشروديين لأوامر الملـك إلى أن قتلهم وأخرب مواضعهم وهدم بيعهم فوجدنا الوسـيلة بهذه المكاتبة أن نعلمكم ما جرى ويجب الآن يا أحبـائي أن تتموا ما يجب عليكم لهؤلاء الملوك، وإن كـان لا يجـب أن نأمركم بشيء من هذا فقد قاسيت عذابا من أخوتي كما قاسى يوسف بن يعقوب من أخوته)[٣١٩].

---

[٣١٩] ص ٢٧٤.

ومن المفارقات الطريفة أن اسم البابا يوساب الأصلي قبل دخوله الدير واندراجه في سلك الرهبنة كان يوسـف وهـو نفس اسم المثال الذي شبه به نفسه في رسـالته إلـى ملـك الحبشة، ولكن أي عذاب هذا الذي سببه له إخوانه من القبط؟ بينما معذبوه كانوا من الحكام العرب الذين يطالـب أبنـاءه بطاعتهم.

والتمثيل يكون أصدق لو رأى أن الشعب القبطـي كلـه يوسف، وخصوصًا في حالة (يوسف) ملك النوبة المطلـوب منه أداء خراج أربع عشرة سنة للخليفة الجديد وهو المعتصم الآن بعد وفاة المأمون، وقد احتار ملك النوبة حينما وصـلته رسالة البابا التي يطالبه فيها بإعطاء المعتصم ما يريد.

وجعل يتساءل (ما الذي أصنع في ما التمس مني الملـك، من يجمع لي بقط أربع عشـرة سـنة أنفسًـا أنفـذهم إليـه ولا أتمكن من مفارقة كرسي لئلا يهلكوا البربر المخـالفون لي)[٣٢٠].

وظل الملك مهمومًا يفكر كيف يجمع بقط أربـع عشـرة سنة...؟

---

[٣٢٠] ص ٢٧٤.

ومن أين له بخمسة آلاف وأربعين رأسًا بشرية، عن كـل سنة ثلاثمائة وستين حسب الاتفاق المفـروض علـى ملـك النوبة...؟

واهتدى الملك الحيران إلى أن يبعث ابنه لمقابلة الخليفـة الجديد في بغداد مرورًا بمصر والمسئولين فيها أولا لإيجـاد وسيلة تخفف من حدة تلك الشروط.

وبعد انتهاء تلك المشكلة ظهرت مشكلة أخرى في عقـر دار البابا حينما (أنفذ الملك إبراهيم أخو سلمويه بـن بنـان طبيب المعتصم المقرب إليه إلى مصر أن تؤخذ من البيع في كل مكان العمد والرخام)[٣٢١].

وكان الرجل القادم للقيام بهذه المهمة مسيحيًا على مذهب النسطورية الخلقيدونية، فحسن له أتبـاع مذهبـه المقيمـون بمصر، أعمدة كنائس الإسـكندرية وكنيسـة مـاري مينـا بمريوط، (فلما نظر إليها وإلى زينتها رأى حسن ما فيها من العمد والرخام الملون، تعجب وبهت وقال هذا الذي يحتـاج إليه الملك)، وبدأ فعلا في تجريد الكنيسة من رخامها الملون

---

[٣٢١] ص ٢٧٧.

وبلاطها النادر، (لأنه قائم من كل لون وليس له نظير ولا يعرف له ثمن)[٣٢٢].

ولم يستطع الأنبا يوساب منع عملية تجريد الكنيسة من حليها وكل ما فعله هو الحزن والبكاء، ثم إعادة تزيينها من جديد بحلى مستعار و(أحضر صفائح مزوقة من مصر والإسكندرية وبدأ يعمر المواضع التي قلع منها البلاط بكل زينة حسنة حتى أن كل من يشاهدها ما يعلم أن قد مضى منها شيء).

ولم تكد تنتهي محنة تجريد الكنائس من زينتها حتى تصادف حدوث وباء عظيم على البهائم بمصر، (ولا يقدر أحد أن يمشي في الأزقة إلا بعد أن يسد أنفه من كثرة جيف الدواب، حتى أن الزرع انقطع وقلت الثمرة وكانت أرض مصر في حزن عظيم، ثم عاد الوباء على الناس وفنوا مثل البهائم)[٣٢٣].

وليس أمام البابا إلا أن يبكي على شعبه.

---

(٣٢٢) ٢٧٨.

(٣٢٣) ص ٢٨٠.

وكان في مصر في ذلك الوقت والٍ اسمه علي بن يحيـي الأرمني من قبل ابن إسحاق إبراهيم المعتصم بـن هـارون الرشيد أخي عبد الله المأمون. وبدأ يهدم بيع فسطاط مصـر، فأول مبتدأ جاء إلى البيعة التي في قصر الشمع التي تسـمى المعلقة فهدموا أعلاها حتى وصلوا إلى الأسطون).

والبابا يبكي بيعته بدموع مرة... لكـن الـدموع لا تفيـد شيئًا.. بل كان غضب الوالي يتزايد وتهديده للبابـا يوسـاب يتزايد أيضًا فيقول له: (ما أرفع الهدم عن البيـع إلا بثلاثـة آلاف دينار؛ فقلق الشعب والأساقفة الحاضرون معه وقـالوا: يا أبانا لا يضيق صدرك نحن نقوم بهذا المال، فقسطه علينـا لتسلم البيع ولا يلحقها شيء، فتقدموا الأراخنة إلـى الـوالي وضمنوا له القيام بثلاثة آلاف دينار فهدأ غضبه)[٣٢٤].

ولم تكد تنتهي تلك المشكلة حتى ظهرت مشـكلة جديـدة أثارها القاضي المسلم ضد البابا يوساب بسبب ثمانيـة مـن الغلمان والعبيد قبلهم البابا كهدية من ملك الحبشة، وأدخلهـم أحد كتاتيب الكنيسة ليتعلموا، فعلم القاضي، بـذلك وأخـذهم ودارت مشادة كلامية طويلة بين القاضي والبابا بشأنهم لأنهم

---

[٣٢٤] ص ٢٨٧.

مسلمون في رأي القاضي ونصارى في اعتقاد البابا... وفي كل مناسبة كان يوساب يؤكد للقاضي: (أنا مـا أقـاوم أمـر الملك ولا أقاوم كلمة صالحة)، وانتهى الأمر لصالح القاضي الذي أمر بقسمة الغلمان فاقتسمهم المسلمون. وكـان لـذلك القاضي رجل ينوب عنه بالإسكندرية وأعمالها وكـان أشـر منه وكان اسمه محمد بن بشير.. فأنفـذ القاضـي قاضـي الإسكندرية أن يحضر الأب القديس أنبا يوسـاب البطـرك ويحضر معه المطرانيين، فقال له لما حضـر عنـده: قـد أعلموني أن لك غلمانًا، الذين أمرك القاضـي أن لا تقـبلهم إليك دفعة أخرى، بعضهم عندك، وقد أعدتهم إلـى ذمتـك، فأجاب القديس وقال له: ما عندي شيء مما ذكر به، وإني لم أشاهد وجه واحد منهم من ذلك اليوم). ثـم ظهـرت محنـة جديدة في السنة الثامنة عشرة من بطركيته حينما (ولى على مدينة الإسكندرية أميرا اسمه مالك بن ناصر الحدر، وكـان إنسان سوء ظالما، فلما دخل المدينة بدأ أن يفعل سوء بكثير من الناس أكثر من الوالي الذي كان قبله فاعترض أصـحاب الصنائع والتجار الكبار والبزازين والباعة، وتقدم إلى التجار الكبار والبزازين أن لا يبيعوا ويشتروا إلا حـدًا يحـد لهـم

وعمل قياسًا كبيراً)[٣٢٥]. وقد دخل هذا الأمير الظـالم بيعـة البطرك مع سراريه، بل ودخل مخدعـه الـذي ينـام فيـه البطاركة كل زمان فطرد الأب منه وأدخل سراريه إليه وأكل معهن وشرب هناك ونام معهن فيه، ولم يكن أمام البابا إلا أن يبكي.

ثم أمر الأمير باعتقال البطرك على إثر وشاية بـه أنـه يكاتب ملوك الروم، وأنهم يبعثون إليه أموالا كثيرة، وعـول على عقوبته إلى أن يدفع له ألف دينار وهو صابر ولم يـزل يهدده إلى أن استقر الحال على أربع مائة دينار... وفي اليوم السابع لحبسه حينما كان يزن الـدنانير ليـدفع الأربعمائـة المطلوبة مات الوالي.

ولم يلبث أن اعتل البطرك بعد ذلك بحمى، وفـي اليـوم السابع من مرضه تنيح؛ أي مات... بعد سلسلة طويلة مـن التسليم بإرادة الولاة وقواد الجيوش والخلفاء حيـث عاصـر البابا يوساب أربعة خلفاء هم: المأمون والمعتصـم والواثـق والمتوكل خلال مدة إقامته على الكرسـي البـابوي، وهـي حوالي سبعة عشر عامًا وأحد عشر شهرًا... كـان طوالهـا

---

[٣٢٥] ص ٢٨٩.

مثال البابا الخاضع لأوامر الحكام وسطوتها فهل كان فريـدًا في ذلك، أم أنه سار على نفس سياسة سابقية مـن بـابوات الكنيسة المصرية منذ الفتح الإسلامي لمصر...؟

وللإجابة على ذلك سنعود إلى جذب طرف الخـيط الأول مرة أخرى وربما قبل ذلك بكثير.

فقد كانت الكنيسة منذ القـرن الرابـع المـيلادي تملـك مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية التابعة للأديرة والبيع المختلفة، وعلى سبيل المثال كانت تمتلك غالبيـة أراضـي أفروديتو ومساحات واسعة من أراضـي أكسـير نخـوس وأنطونيوبوليس، وقد ذكر المؤرخون أكثر من عشرين ديرًا وكنيسة بأنطونيوبوليس فقط.

ويقال إن أكبر الأديرة بمصر دير أنطانيوس، (وهو يقـع شرقي إطفيح من قبلي مصر، وهو على جبـل عـالٍ، ولـه بمصر وقوفات وأملاك عدة، وعليه حصن دائـر، وداخـل الحصن بستان كبير وفيه نخل مثمر، وأشجار تفاح وكمثرى ورمان وغير ذلك، وأرضه مزروعة بالبقول وله ثلاثة عيون ماء تجري دائمًا ويسقى منها البستان، ومن جملـة البسـتان فدان وسدس كرم عنب وقيل إن عدد نخيله ألف رأس نخلة،

وبه جوسق كبير وقلال للرهبان مطلة على البستان، وله بإطفيح أيضًا أملاك وبساتين)[٣٢٦].

هذا بخلاف ما كانت تملكه الكنيسة في أسفل الأرض أو بحري البلاد، وفي الإسكندرية مقر الكرسي البابوي... وقد ظلت الكنيسة حريصة على أملاكها وأوقافها، في نفس الوقت الذي كانت هذه الأملاك محط أطماع الرومان والكنيسة الملكانية ومحل تنازع مستمر فيما بينهما...

ويذكر بعض الباحثين أن الكنيسة تمتعت (في القرن السادس بحق الجباية الذاتية فقامت بجمع الضرائب من مؤجري أرضها)[٣٢٧].

وحينما دخلت الكنيسة القبطية في محنتها الكبرى في أثناء اضطهاد قيرص الروماني لها، فر البابا بنيامين إلى أديرة الصعيد وكنائسها واختفى هناك حيث كانت سلطة الكنيسة القبطية واسعة هناك.

ثم جاء الفتح العربي لمصر، وتعاون بعض أغنياء القبط مع عمرو بن العاص وجيشه، ولعبوا دور الوصل بين عمرو

---

(٣٢٦) الحضارة الإسلامية – آدم متز ص ٨٨.

(٣٢٧) ص ٨٦.

من جهة والكنيسة القبطية من جهة أخرى. ومن المعروف أن الدوقس سنوتيوس أو الرئيس شنودة (كان مـن بـين قـواد الأسطول الرومي... وكان من أنصـار الكنيسـة القبطيـة الأرثوذكسية وكان مخلصًا للبابا بنيامين. وتقـرب الـدوقس سنوتيوس أو الرئيس شنودة من عمرو بن العـاص بتقـديم خدمات كثيرة له ولجيشه من إصـلاح الطـرق والجسـور وإمدادهم بالمراكب اللازمـة للعبـور وتعـريفهم بأسـرار الخريطة المصرية...

(فلما استقر الحكم العربي في الإسـكندرية قربـه القائـد عمرو إلى مجلسه فانتهز سنوتيوس فرصة... وأخذ بتمهيـد السبيل لإعادة البابا بنيامين إلى كرسيه... ولما اطلع عمـرو على جلية الأمر كتب أمانًا للبابا بنيامين وأقر عودته ليكـون حر التصرف مطلق اليد في جميع بيعه وأديرته وأوقافه بـل أعطاه إلى جانب ذلك حق التصرف في كثير مـن أمـلاك الكنيسة الملكانية وأوقفها بعد خروج الرومان من مصر.

وقد أحدث عمرو بن العاص معيارًا مزدوجًا في المعاملة واستخدمه استخدامًا سياسيًا موفقًـا حـين أعطـى للكنيسـة امتيازات لم تكن تنتظرها أو تحلم بها في نفس الوقت الـذي

طبقه قانون جباية الجزية والخراج من جموع الشعب القبطي دون هوادة..

بل إن القبضة التي استخدمها عمرو في تشديد سـيطرته على الشعب كانت قبطية بالدرجة الأولى بعد أن قرب أغنياء القبط إليه، وترك لهم أعمالهم على جاري عـاداتهم، فظلـوا الأعيان وسماهم (مقدمي القبط) واستخدم موازيـت القـرى أو المشرفين على جباية ضرائبها من القبط... وبذلك خلقـت تلك الازدواجية التي قسـمت الشـعب القبطـي ورسـخت انقسامه...

* * * * *

الأراخنة... الأراخنة... سامحهم الله.

وظل أغنياء القبط حلفاء للحكـام العـرب يلعبـون دور التهدئة وتمرير السياسات... وإذا ما تتبعنـا تجليـات هـذه العلاقة المعقدة بين الثالوث المقدس: الحكام العرب والكنيسة وأغنياء القبط من خلال كتابات ساويرس بن المقفـع، فلـن يصيبنا الحزن إلا على فقراء الشعب القبطي وقود الثـورات وضحاياها في نفس الوقت. فمقدمو القبط عملوا في الدواوين والموازيت تحت عباءة الحكم العربي ورايته...

والكنيسة ظلت بحكمتها الأزلية القائلة:

(أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله.) وحكمـة القـديس بولس القائلة (أعطوا الجميع حقوقهم، الجزية لمن له الجزية، الخوف لمن له الخوف، الإكرام لمن له الإكرام.)

وكل تعاليم الرسل القاضية بضـرورة الصـلاة "لأجـل الملوك والذين لهم منصب" وفي أوقات تأزم العلاقـة بـين الكنيسة والحكام العرب يتدخل أغنياء القبط لحل الأزمة، ولما كانت محنة البابا الإكسندروس الثاني مع قـرة بـن شـريك و(نهبه جميع مال البيعة حتى الكاسات اللاتي تدفع الدم الذكي جعلنا عوضًا من الذهب والفضة كاسات زجاج والدسقسـات خشبًا.)[٣٢٨]

ولحل هذه المشكلة تقدم أرخن ذلك الزمان واسمه يـؤنس وهو أحد أغنياء القبط و(رزقه الله قبولا عند الولاة) وطلـب يؤنس من قرة أن يوليه أمـر النصـارى ليسـتخرج مـنهم الخراجة فولاه على الأساقفة والرهبان.

وعمل هذا الأرخن على قمع الاتجاهات المذهبية المخالفة للكنيسة القبطية.

---

[٣٢٨] ص ١٤٤.

وكان اختلاف الآراء الدينية شائعًا في أوساط بعض الرهبان فانتصر لرأي الكنيسة القبطية (وجمع كورة مصر جعلها إحادًا واحدًا وأمانة واحدة وأبطل سائر المقالات النجسات) كما يقول ساويرس بن المقفع.

وما لبث أن تلاشى الهدوء بتلاشي المال المدفوع إلى قرة ابن شريك، وزادت شراهته فأحدث بدعة الاستيلاء على ميراث الأراخنة فكان (كل أرخن يموت يأخذ جميع ماله، وكان قد مات صاحب ديوان الإسكندرية وبقيرة الذي كان كاتبًا من تنيس وجماعة لا يحصون من مصر. وأخذ مالهم حتى الأساقفة أخذ ميراث الجميع)[٣٢٩]. والأكثر من ذلك هو صدور أمر نهب الثروات المعمارية للكنيسة (بأن تقلع من البيع العمد الملونة والرخام الذي في البيع ويحمل جميعه، وكان الأب البطرك حزينًا لأجل بيعته لأنها صارت خرابًا لأجل ما فعلوه معه وهو مع هذا يشكر الله ويصبر بشجاعة)[٣٣٠].

---

[٣٢٩] ص ١٤٥.

[٣٣٠] ص ١٤٦.

وحينما تولى أسامة بن زيد التنوخي بعد قرة أمر بتفتـيش الأديرة ومراجعة كشوفها (فوجد فيها جماعة مـن الرهبـان بغير حلق في أيديهم، فمنهم من ضربت رقبته، ومنهم مـن مات تحت السياط، ثم أنه سمر باب البيعة بالحديـد وطلـب منهم ألف دينار وجمع مقدمي الرهبان وعذبهم والتمس منهم عن كل واحد منهم دينارًا، وقال: متى لم تقوموا بذلك هدمت البيع وأخربتها وجعلتكم في مراكب الأسطول فقلقوا الشـيوخ الرهبان وتمنوا الموت)[٣٣١].

ولم تخرج الكنيسة القبطية من هـذا المـأزق إلا بمـوت الخليفة سليمان بن عبد الملك، وتولى عمر بن عبد العزيـز الذي عزل والي مصر أسامة بن يزيد التنـوخي و(أمـر أن لا يكون على أواسي البيعة والأساقفة خراج، وبدأ أن يجعـل البيع بغير خراج والأساقفة وأبطل الجبايات).

في نفس الوقت الذي أمر فيه بأن (تؤخذ الجزية عن سائر الناس الذين لا يسلمون)[٣٣٢].

---

[٣٣١] ص ١٤٨.

[٣٣٢] ص ١٤٩.

ثم تولى عبيد الله بن الحبحاب ولاية مصر فبادر إلى وسم جميع الأقباط حتى أنه قبض على البطرك نفسه ليسمه....

وكان البطرك شديد الحزن رافضًا كل الـرفض لوسـمه بتلك العلامة ومات من شدة غمه... وقـبض الـوالي علـى مساعده الذي حاول الفرار معه من الوسم وطالبه بألف دينار نظير إطلاق سراحه، وجعل عسكره يعذبونه على مرأى من الناس أمام كنيسة ماري جرجس حتى جمع له الناس ثلثمائـة دينار وتوسط له رؤساء النصارى.

وفي ولاية حفص بن الوليد ذهب أراخنـة مصـر إلـى البطرك ينعون إليه نتيجة آخر إحصاء توصلوا إليـه لعـدد القبط المتحولين إلى الإسلام لقد (حضروا عنه وهم حـزان وقالوا له: يا أبانا صل علينا واجتهد فقد أحصينا مـن انتقـل إلى الإسلام من أخواتنا بني المعمودية من مصر وأعمالهـا على يدي هذا الوالي أربعة وعشرين ألف إنسان، فقال لهـم الأب: يا أولادي آمنوا أن في هذا الشهر تنظـرون بـأعينكم هذا الوالي الكافر حفصًا يحرق جسده بالنار في وسط فسطاط مصر ويقتل رجًا بالسيف فتمت نبوءة هذا الأب سرعة)[٣٣٣].

---

[٣٣٣] ص ١٦٨.

وكما نعلم من أحداث التاريخ فقد بعث الخليفة جيشًا بقيادة حوثرة وانتصر على المتمردين وأحرق حفص وقتـل رجًـا بالسيف.

وفي نفس زمن البابـا خائيـل تحايـل بعـض التجـار الخلقدونيين ودفعوا للخليفة مروان مالا ليستردوا كنيسة أبـي مينا بمريوط بحجة أنها كنيسة ملكانية وقد انتزعتهـا مـنهم الكنيسة القبطية. وأرسل الخليفة مروان بن محمد إلى والـي مصر عبد الملك بن موسى بن نصير ليحقق في الأمر ويرى لمن تكون ملكية الكنيسة محل النزاع.

فجمع الوالي ممثلي الطرفين ليناظرهم في الأمر...

حفلة في قصر الأمير

فكان زحام شديد... أناس من كل مكان.. قبط وملكانيون قسس ورهبان... كُتاب وأراخنة (سادة ومسئولون ورؤسـاء عائلات) من الصعيد ومن بحري جموع كبيرة يحـيط بهـم عسكر وموالٍ، وهناك في المقدمة على سرير الملك جلـس والي مصر عبد الملك بن موسى بن نصير وحولـه حجابـه وعساكره ورجال دولته وكتابه وقضاته وبعض أعيان العرب في مصر...

أزياء مختلفة.. ووجوه مختلفة... ضجيج عظيم ولا أحـد يسمع شيئًا من كثرة الأصوات وتداخلها..

وقد دعا الوالي رجال الكنيستين في هذا المحفل أو تلـك المناظرة ليحل مشكلة قديمة تعود إلى بداية الفـتح العربـي لمصر، وقد سبق هذا الجمع تحقيق استمر حوالي الأربعـين يومًا، أوكل خلالهم الوالي إلى صاحب ديوانه ويدعى عيسى ابن عامر أمر الناظر في تلك القضـية الشـائكة، وحـاول الملكانيون رشوة عيسى بن عـامر وحملـوا إليـه الهـدايا ليساعدهم فيما يلتمسونه، أما البطرك القبطي البابـا خائيـل فكتب رسالة تثبت حق كنيسته في بيعة أبي مينـا بمريـوط وسلمها لعيسى، وقد مال عيسى هذا مع الملكـانيين بسـبب ما قدموه له من هدايا، ورفض البطرك القبطي دفع رشـوة، وما لبث عيسى بن عامر أن عزل عن أمور الديوان وتـولى مكانه رجل يدعى أبا الحسين فأنصف البطرك القبطي وحكم له... لكن الحكم لم يعجب الملكانيون فرفعوا أمـرهم مـرة أخرى للوالي الذي دعا الجميع إلى ذلك المحفل في قصـره. ويقول ساويرس (حضرنا جميعًا بعد هذا إلى عند الملك وكان قد كتب ذلك اليوم كتابًا إلى مصر وأعمالها يأمر أن يجمـع

إليه الكُتاب والأراخنة من كل بلاد وأحضرهم وكان القصـر مشحونًا بالناس حفلا، حتى لم يكن أحد يسمع شيئًا من كثرة الأصوات فدخلنا نحن أيضًا وحولنا خلق كثير فلمـا جلسـنا انفرد قسطنطين الأسقف عنهم – يقصد عن الجانب الملكاني – وجلس مع أساقفتنا وسألهم أن يقبلـوه ويشـركوه معهـم ويعطوه كرسيه وكانت الجموع وأهل البلاد حولنا متطلعـين لمعرفـة مـا يسـتقر وينظـرون أسـاقفة الأرثوذكسـيين والخلقدونيين فوثبوا قوم من الصعيديين – قـبط الصـعيد – على قسطنتين لما علموا أنه خلقدوني ليطردوه حتـى رمـوا الأساقفة الأرثوذكس شيئًا من لباسهم وأخلطـوه معهـم وإلا كادوا الصعيديون يقتلونه، ثم صرخوا الصـعيديون قـائلين أبعدوا الذئاب من وسط الخراف، اهربوا من السباع الضارية المفترسة للنفوس، اطردوا الثعالب الذين يهلكون كـرم رب صبآووت، أبعدوا يودس من وسط تلاميذ المسيح لا تجعلـوا ثيابكم تختلط بهؤلاء الأنجاس يا عبيد المسيح فعند ذلك اختفى قسما إلى أن زال غضبهم...

ثم حضر للوقت الأرخن متـولي الإسـكندرية إبـراهيم الماحكي لأنه كان جالسًا في ناحية من القصر ومعه جماعـة

من الهراطقة، فجروا وأرادوا الهرب، وأن رجلا مـن أهـل دمياط كان شريرًا جدًا فخاطبته أنا الخاطئ بكلمـة سـمعتها فوثب في وسط الجماعة ووقف وشتمني وجدف على الثالوث المقدس، فحينئذ شاهدته وكل الحاضرين قد انشق الثوب الذي عليه من فوق إلى أسفل على ثلث قطع فصرخ كل من فـي القصر المسلمون والنصارى لا أمانـة إلا أمانـة الأب أنبـا ميخائيل، وكان صراخا عظيما في القصر، وسـعوا النـاس لينظروا ما قد كان حتى أن الناس والعسـكرية مـن كثـرة زحامهم نالهم جراح وقتال؛ فأمر عبد الملك بإخراج كل مـن في القصر)[٣٣٤].

وهكذا فشلت المناظرة وكـادت أن تنقلـب إلـى حـرب ضروس بين الطرفين لولا سيطرة عسـكر الـوالي علـى الموقف وإخراجهم لكل من في القصر...

وقد قصدت تقديم نص ساويرس لتوضـيح صـورة أول مؤتمر يجمع بين المذاهب المتصارعة على ملكيتها للكنائس، ومن خلف كل جانب أغنياء يدفعون الصـراع ويأججونـه، وحينما أعلن أحد القساوسة الملكانيين رغبته فـي الـدخول

---

[٣٣٤] ص ١٧٤، ١٧٥.

تحت عباءة الكنيسة القبطية، أراد إبراهيم الماحكي الانسحاب ومعه فريـق مـن الملكـانيين الـذين يسـميهم سـاويرس الهراطقة... وينفض المؤتمر دون حل وتعود القضية علـى قاضي البلاد المسلم لينظر في دعاوى الجانبين بعد أن أمـره الوالي (أن يفصل النوبة، وقـال أنجـز حـالهم ودعهـم أن يمضوا).

وبعد سماع الطرفين واستقصاء مدى صحة كلامهما سلم البيعة للأنبا ميخائيل فعادت كنيسة أبي مينا بمريـوط إلـى الرعاية القبطية، ولم تكد تمضي فترة قصيرة حتـى قـبض الوالي على الأنبا ميخائيل بطريرك القبط حتى يوفي بالخراج الواجب على كنائسه، وتوالت أحداث سقوط الدولة الأمويـة ونزل الستار على آخر فصولها والخليفة ينتف شـعر البابـا ويعذبه على مرأى ومشهد من الجيش العباسي الوافد علـى الضفة الأخرى من النهر وبصحبته أراخنة القبط ومقـدموهم يفتحون لهم الطريق ويمدونهم بالسفن ويعرفـونهم أسـرار الخريطة المصرية أيضًا.

ملحق (١)

في رواية البشموري تخلط سلوى بكر بين ثورة البشموريين. التي حدثت في زمن البابا خائيل، وهو البابا رقم ٤٦ في الكنيسة المصرية، وقد جلس على كرسي البطريركية منذ ١٤ سبتمبر ٧٤٣ ميلادية وحتى وفاته في ١٢ مارس ٧٦٧ م، فكانت مدة إقامته على الكرسي حوالي ثلاثة وعشرين عامًا ونصف العام، عاصر خلالها من الخلفاء:

هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد وإبراهيم ومروان وعبد الله أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور – وبين ثورة البشامرة التي حدثت في زمن البابا يوساب، وهو البابا رقم ٥٢ في تاريخ الكنيسة القبطية، وقد تولى منذ ١٨ نوفمبر ٨٣١ م حتى ٢٠ أكتوبر ٨٤٩ م. وكانت مدة إقامته على الكرسي سبعة عشر عامًا وإحدى عشر شهرًا عاصر خلالها من الخلفاء: المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل.

وقد اختلط ثورة البشموريين على الكثير من الباحثين بسبب اشتعالها عدة مرات في نفس المنطقة والمناطق المحيطة بها.

وقد وقعت سلوى بكر في نفس الخطأ حينما جعلت مينـا ابن بقيرة زعيم ثورة البشموريين في أثناء ولاية البابا خائيل على كرسي البطريركية، وهو نفسه زعيمًا لثورة البشموريين في عهد البابا يوساب..

ولا يخفى علينا أن الأولى قد تزامنت مع أحداث سـقوط الدولة الأموية وبداية تأسيس الدولة العباسية. بينمـا ثـورة البشموريين المعاصرة للبابا يوسـاب لـم يكـن يتزعمهـا بشموري بهذا الاسم. كما اختلفت أحداثها عن أحداث الأخرى المعاصرة للبابا خائيل.

فبينما كانت ثورة البشموريين بقيادة مينا بن بقيرة في عهد البابا خائيل ضد الدولة الأموية، وخليفتها مروان بن محمـد، وقائد جيوشه المدعو كوزارا أو الجوثرة الذي قـبض علـى الأب ميخائيل وقال له: (كيف مكنـت أولادك النصـارى أن يقاتلوا – يعني عن البشامرة) وحمله نتيجة الثـورة فسـجنه وطالبه بالأموال وعذبه بأن جعل رجليه في طوبـة حديـد. ثم فكر الجوثرة بعد ذلك في استخدام البابا خائيـل لمكاتبـة البشموريين وإقناعهم بالتراجع عن الثورة، فحمله معه إلـى رشيد وأمره بأن يكتب لهم ويقول: إن كل ما حل بـه مـن

سجن وتعذيب كان بسبب ثـورتهم.. فاستشـاط البشـامرة وضاعفوا ثورتهم ضد أخر جيش أموي، في نفـس الوقـت الذي كانت انهيارات الدولة الأموية تتوالى بسرعة مذهلـة، وينتهي فرار الخليفة مروان بن محمد إلى مصـر وأحـرق الفسطاط كما رأينا.

واندفع البشامرة في مساعدة الجيش العباسـي فأمـدوهم بالمراكب وبالمعونة ليتمكنوا من القضاة على الخليفة الأموي القابض على البطرك خائيل.. (وكانوا البشامرة قد لقوهم من الفرما وقالوا للخراسانيين: إن بطركنا قد أخذه مروان ليقتلـه بسبب أننا قاتلناه وقتلنا عسكره قبل مجيئكم).

ملحق (٢)

وحينما نصل إلى ذكر البشموريين فيجب أن نتوقف قليلا قبل الخوض في تفاصيل ثورتهم لنسـأل أيـن تقـع بـلاد البشموريين على وجه التحديـد؟ خصوصًـا وقـد اختلـف المؤرخون والباحثون وتضاربوا بشأن موقعها واسم سكانها. فعلى حين يسميهم اليعقوبي – المتوفى بعد سنة ٢٩٢ هـ - أهل البشرود في موضع، وفي موضع آخر يقول إن البيمـا هم قبط البشرود... ثم يذكر البشرود ضـمن كفـور أسـفل الأرض. يذكر ابن عبد الحكم صـاحب "فتـوح مصـر" أن الخيس من البيما ظلوا يقاتلون الناس سنين بعد مـا فُتحـت مصر. الكندي أيضًا يسميهم أهل البشرود كما يتفـق معـه المقريزي في استخدام الاسم نفسه، وكـذلك سـاويرس بـن المقفع حيث يقول – ص ٢٧٣ – البشموريين وهم إلى اليوم يسمون البشروديين.

ويحدد ياقوت الحموي موقع البشمور على كورة دميـاط وأن فيها قرى وريفًا وغياضًا وفيها كباشًا ليس فـي الـدنيا مثلها عظمًا وحسنًا. ويعود في موضع آخر ليـذكرها باسـم البشرود قائلا إنها كورة من كور بطن الريف بمصر، كذلك

يفعل القزويني صاحب كتاب "أثار البلاد وأخبـار العبـاد"، حينما يقول: البشمور هي كورة بمصر بهـا قـرى وريـف وغياض بها كباش ليس في جميع البلاد مثلها عظمًا وحسنًا، ويذكرها البكري الأندلسي دون تحديد مكان لها على وجـه التحديد ولكنه ينسب إليها قول أبي تمام الشـاعر العباسـي المشهور في هجاء بعض الناس وتذكيرهم بأصل يبدو فـي رأيه وضيعًا حيث يقول:

ونسيت سوء فعالكم نسيانكم

أساسكم في كورة البشرود

ويضعها القلقشندي في الجزيرة الواقعة بين فرقتي النيـل الشرقية والغربية والحاوية خمس كور: فهي تجـاور كـورة دمسيس ومنوف وكورة طوة ومنوف وكورة سـخا وكـورة نقيرة وديصا وهي الكورة الخامسة إلى جوارها ثم يذكر أنها من الأسماء التي جهلت، أما أبو الفدا في كتاب "تقويم البلدان" فيحدد موقعها فيما بين نيل أشموم طناح، وهو الشرقي، ونيل دمياط، وهو الغربي، وما بين هذين النيلين جزيرة يقال لهـا البشمور، وفي موضع آخر يحدد عاصمة البشـمور بأنهـا أشموم طناح أو أشموم الرما، ويسميها العامة الآن أشـمون

الرمان – التي هي قصبة – أي عاصمة – كـورة الدقهليـة وقصبة البشمور أيضًا.

ويشاركه الأسعد بن مماتي في كتاب "قـوانين الـدواوين" تحديد موقع البشمور في الدقهلية. ساويرس يقول إنها علـى مسيرة يومين من رشيد ويذكر أهلها حينًا باسم البشـموريين وحينًا باسم البشروديين.

وكذلك المقريزي يسميهم أهل البشرود.

فالقدماء يجمعهم الميل إلى ذكرها ضمن الحوف الشـرقي بالقرب من بحيرة المنزلة ودمياط وتنيس عمومًـا والدقهلـة خصوصًا، أما الباحثون المحدثون فيرون مكانهـا بوضـوح أحيانًا وتغيب عنهم الرؤية أحيانًا أخرى، فيقول علـي باشـا مبارك في كتاب "نخبة الفكر في تدبير نيل مصر" فيذكر بلادًا تُعرف بالبشمور عند بحرويش وفي قبلية بقليل مدينة سمنود، وكان يمر بأسفل بلاد الغربية في بـلاد تُعـرف بالشـمور ويصب في المالح عند مدينة بوطو القديمة، وفي موضع آخر يقول إن بحرويش هذا الذي تقع عليه البشمور يسـتمر إلـى المنصورة أو قربها؛ فينقسم إلى البحر الصغير وبحر دمياط. أما محمد رمزي فيقول في "القاموس الجغرافي" بعد بحثه عن

موقع البشرود تبين له إنها كانت كفر الشيخ بمديرية الغربية ويدل عليها حوض البشرود رقم ١١ المحرف عن البشـرود بأراضي الناحية المذكورة. ثم يقول في نفس الصفحة (٣١ – القسم الأول) إن البشمور كان يطلق قديمًا على إقلـيم مـن أخصب الأقاليم في شمال مصر شرقي الدلتا ويسميه اليونان Bucolies وورد في معجم البلدان": البشمور كورة بمصـر قرب دمياط". وفي الانتصار: "البشمور من نـواحي أعمـال الدقهلية وفي تاج العروس نفسها: البشمور قرية بالدقهلية".

وبالبحث عن موقع هذا الإقليم تبين لي – محمد رمزي – أنه كان يشمل منطقة الأراضي الزراعية التي تقع اليوم بين فرع النيل الشرقي وهو فرع دمياط وبين البحـر الصـغير بمديرية الدقهلية وذلك في المسافة الواقعة على فرع دميـاط بين قرية محلة أنشاق وقرية السرو بمركز فارسكور وفـي المسافة الواقعة على البحر الصغير بين قرية القباب الكبرى وقرية برمبال القديمة بمركز دكـرنس، وفـي عهـد دولـة المماليك كان البشمور يطلق على أرض زراعية ذات وحـدة مالية وقد ألغيت هذه الوحدة وأضيف زمامها إلـى أراضـي

ناحية دكرنس بمديرية الدقهلية ويدل على موقع هذه الوحـدة حوض البشمور رقم ٣٢٢ بأراضي ناحية دكرنس المذكورة.

وبذلك يفرق محمد رمزي بين البشرود ويضعها في كفر الشيخ والبشمور ويتركها في الدقهلية قرب دميـاط بعكـس ما اتفق عليه القدماء من أنهما شيء واحد....

وقد استقى بعض المحدثين معلومـاتهم مـن "القـاموس الجغرافي" لمحمد رمزي دون تحقيق تلك المعلومات، فيذكر الدكتور: حسين نصار، على سبيل المثال في هامش كتـاب: "ولاة مصر" الذي قام بتحقيقه للكندي أن البشـرود: كـورة كانت في أراضي ناحية سيدي غازي (الكفر الغربي سـابقًا) بمركز كفر الشيخ بمديرية الغربية ويـدل عليهـا حـوض البشرود وبذلك يضع البشرود في الغرب مع من وضـعوها غربًا.. أما الدكتور حسين مؤنس فيذكر في "أطلـس تـاريخ الإسلام" أن أهل البشرود هم أهل منطقة المنزلة في الشـرق – لكننا نجد ضمن خرائط الأطلس خريطـة بهـا حـوض البشمور واقعًا بين رشيد وإسكندرية غربًا.. متفقًا في ذلك مع خريطة وردت في كتاب: "تاريخ الكنائس والأديرة في القرن الثاني عشر الميلادي" لأبي المكارم الذي ينسب خطأ لأبـي

صالح الأرمني – انظر ملحق الخرائط – ويقع جاك تـاجر صاحب كتاب[٣٣٥] في خطأ أكبر حينمـا يعـرف أراضـي البشموريين بأنها (أرض واقعة على مستنقعات يزرع فيهـا الغاب بين الإسكندرية ورشيد بالقرب من بحيرة إدكو) وربما يعود مصدر خطئه إلى الاعتماد علـى كـلام سـعيد ابـن البطريق[٣٣٦] الذي يمعن في الخطأ في حديث عـن أصـل البشموريين بأنهم (سلالة أربعين يونانيًا بقوا في مصر بعـد انتصار العرب ثم نما عددهم بـالتزاوج) ص ٩٨ وسـوف يسقط هذا الزعم عن الأصل التاريخي حينما نستعرض تاريخ ثورات المنطقة بعد قليل....

ويحاول بعض الباحثين التخلص من مأزق تحديد موقـع البشموريين في شرق مصر أو غربها بتوسيع القاعدة حتـى تشمل كلا الأرضين، فيقول حجاجي إبراهيم محمد في كتاب (مقدمة في العمارة القبطية الدفاعية).. (آثار أهل البشمور –

---

[٣٣٥] ربما تقصد المؤلفة كتاب: مسلمون وأقباط لجاك تاجر (و، أ).

[٣٣٦] سعيد بن البطريق، ولد في الفسطاط سـنة ٢٦٣ هـ / ٨٧٦، وتوفي بالإسكندرية سنة ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ م. من آثاره كتاب نظـم الجوهر.

بين دمياط ورشيد) وبذلك يجعلها تشمل كل المساحة الواقعة بين بحيرتي المنزلة شرقًا والبرلس غربًا.

وكذلك الأمر لدى الدكتور عبد المنعم ماجد في كتاب[٣٣٧] حيث يقول (البشمور قرب دمياط على ساحل الدلتا بين فرعي رشيد ودمياط) فيحدها بحدود الساحل بين البحيرتين. وصحيح الأمر هو الإجماع التاريخي الأول لساويرس بن المقفع الذي يرى أنها إلى الشرق من رشيد بمسافة يومين، وهو الزمن نفسه الذي حدده الإدريسي للمسافة بين دمياط ورشيد في السفر يومين.. والأسعد بن مماتي والأدفوي الذي فاق الجميع في تحديد عاصمتها بأشمون الرمان فيتأكد بذلك أن البشمور هي أراضي الدقهلية وما جاورها من الجمالية والمطرية...

وهي منطقة ثورات قديمة بدأت قبل دخول العرب مصر – في بحثه عن الأرض والفلاح وفي مصر الرومانية – حينما (لجأ آلاف من سكان الريف إلى الاعتصام في

---

[٣٣٧] ربما تقصد المؤلفة كتاب: "العصر العباسي الأول" والقرن الذهبي في تاريخ الخلفاء العباسيين – التاريخ السياسي – د. عبد المنعم ماجد – مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٣٧ (و، أ).

مستنقعات شمال الدلتا وأحراشها وذلك في سنة ١٧٢ م فـي عصر الامبراطور ماركوس أو يليوس، واضـطرت الإدارة الرومانية إلى الاستعانة بالجيش من أجل القضاء على الثورة التي أوشكت أن تستولي على الإسكندرية ذاتها)[٣٣٨].

ونجد في كتاب "فتوح مصر وأخبارها" لابن عبد الحكم أن البيما – وهو اسم ثالث يطلق على قبط البشـرود – ظلـوا يقاتلون الجيش العربي سبع سنين بعد فتح مصـر وسـيطرة عمرو بن العاص عليها وعلى عاصمتها. فيقول: (وأقامـت الخيس من البيما يقاتلون الناس سبع سنين بعـد مـا فُتحـت مصر مما يفتحون عليهم من تلك المياه والغياض)[٣٣٩].

---

[٣٣٨] الأرض والفلاح في مصر الرومانية: مصـطفى العبـادي، ص ١٣٦.

[٣٣٩] عن: الأرض والفلاح في مصر على مر العصـور / الجمعيـة المصرية للدراسات التاريخية / القاهرة ١٩٧٤ م.

جدول قضاة مصر في الدولة العباسية حسب كتاب الكندي

١	عبد الرحمن بن أبي سالم الجيشاني	-	تولى حتى ١٣٢ هـ
٢	خير بن نعيم "ولايته الثانية"	من قبل أبي عون	-
٣	غوث بن سليمان الحضرمي	من قبل أبي عون	١٣٥ هـ
٤	أبو خريمة إبراهيم بن يزيد	من قبل الأمير يزيد بن حاتم	١٤٤ هـ
٥	عبد الله بن لهيعة	من قبل أمير المؤمنين أبي جعفر	١٥٥ هـ
٦	إسماعيل بن اليسع الكندي	من قبل المهدي	١٦٧ هـ
٧	غوث بن سليمان	من قبل المهدي	١٦٨ هـ
٨	المفضل بن فضالة القتباني	من قبل الأمير موسى ابن مصعب	١٦٩ هـ
٩	أبو الطاهر عبد الملك بن محمد الأنصاري الأعرج	من قبل الهادي	١٧٤ هـ
١٠	عبد الملك بن محمد الحزمي	-	١٧٤ هـ
١١	المفضل بن فضالة "الثانية"	من قبل داود بن يزيد ابن حاتم المهلبي	١٧٤ هـ
١٢	محمد بن مسروق الكندي	من قبل هارون الرشيد	١٧٧ هـ
١٣	إسحاق بن الفرات	-	١٨٥ هـ
١٤	عبد الرحمن العمري	من قبل هارون الرشيد	١٨٥ هـ
١٥	هاشم بن أبي بكر البكري	من قبل الأمير	١٩٦ هـ
١٦	إبراهيم بن البكاء	من قبل الأمير جابر ابن الأشعث	١٩٦ هـ
١٧	لهيعة بن عيسى الحضرمي	من قبل عباد بن محمد	١٩٦ هـ
١٨	الفضل بن غانم	من قبل المطلب بن عبد الله الخزاعي	١٩٨ هـ
١٩	لهيعة بن عيسى "ولاية ثانية"	من قبل المطلب بن عبد الله الخزاعي	-
٢٠	إبراهيم بن إسحاق القاري	من قبل السري بن الحكم	٢٠٤ هـ
٢١	إبراهيم بن الجراج	من قبل السري بن الحكم	٢٠٥ هـ
٢٢	عيسى بن المكندر	من قبل عبد الله بن طاهر	٢١١ هـ
٢٣	هارون بن عبد الله	من قبل المأمون	٢١٩ هـ

العدد	الأسماء		الوطن	الاسم قبل	الدير	تاريخ التقدمة	
	بالعربي	اللقب المعروف به	الأصلي	البطريركية	المتخرج منه	للشهداء	تاريخ الميلاد
١	ديسقورس الأول	المجاهد العظيم	الإسكندرية	ديسقورس	..	٢ مسري ١٦٠	٢٦ يوليه ٤٤٤
٢	تيموثاوس الثاني	المعترف	الإسكندرية	تيموثاوس	..	٣ بابه ١٧٢	أول أكتوبر ٤٤٥
٣	بطرس الثالث		الإسكندرية	بطرس	..	٤ توت ١٩٤	أول سبتمبر ٤٧٧
٤	أثناسيوس		الإسكندرية	أثناسيوس	-	٢ كيهك ٢٠٦	٢٧ نوفمبر ٤٨٩
٥	يوحنا الأول	يوحنا الراهب	الإسكندرية	يوحنا	أبو مقار	أول بابه ٢١٣	٢٩ سبتمبر ٤٩٦
٦	يوحنا الثاني	يوحنا الحبيس	الإسكندرية	يوحنا	دير النجاح	٣ بؤونة ٢٢١	٢٩ مايو ٥٠٥
٧	ديسقورس الثاني	ديسقورس الجديد	الإسكندرية	ديسقورس	-	٣ بؤونة ٢٣٢	٢٩ مايو ٥١٦

العدد	الأسماء		الوطن	الاسم قبل	الدير	تاريخ التقدمة	
	بالعربي	اللقب المعروف به	الأصلي	البطريركية	المتخرج منه	للشهداء	تاريخ الميلاد
٨	تيموثاوس الثالث		الإسكندرية	تيموثاوس	-	١ هاتور ٢٣٥	٨ نوفمبر ٥١٨
٩	تاودوسيوس	القديس الرئيس المعترف	الإسكندرية	تاودوسيو	-	١٥ أمشير ٢٥٢	١٠ فبراير ٥٣٦
١٠	بطرس الرابع		الإسكندرية	بطرس	دير الزجاج	١ مسري ٢٨٢	٢٥ يوليه ٥٦٧
١١	داميانوس		الإسكندرية	داميانوس	تابوروبويط	٢ أبيب ٢٨٥	٢٦ يوليه ٥٦٩
١٢	انساطاسيوس		الإسكندرية	أنسطاسيوس	-	٢٤ بؤونة ٣٢١	١٨ يونيه ٦٠٥
١٣	أندرونيقوس		الإسكندرية	أندرنيقوس	-	٢٤ كيهك ٣٣٢	٢٠ ديسمبر ٦١٦
١٤	بنيامين الأول		بيرشوط بالبحيرة	بنيامين	دير قبريوس	٩ طوبة ٣٣٩	٤ يناير ٦٠٣
١٥	إغاثو	ولد بنيامين	مريوط	أغاثون	-	١٤ طوبه ٣٧٨	٩ يناير ٦٦٢
١٦	يوحنا الثالث	يوحنا السمنودي	سمنود	حنا	-	أول كيهك ٣٩٧	٢٧ نوفمبر ٦٨٠
١٧	إسحق	-	البراس	إسحق	-	٨ طوبه ٤٠٦	٣ يناير ٦٩٠

العدد	الأسماء		الوطن الأصلي	الاسم قبل البطريركية	الدير المتخرج منه	تاريخ التقدمة	
	بالعربي	اللقب المعروف به				للشهداء	تاريخ الميلاد
١٨	سيمون الأول	سيمون السرياني	سوريانى الجنس	سمعان	-	٢٣ كيهك ٤٠٩	١٩ ديسمبر ٦٩٢
١٩	الإكسندروس ٢	-	بوصير بالمحلة الكبيرة	الإكسندروس	أبو مقار	٣٠ برمودة ٤٢٠	٢٥ أبريل ٧٠٤
٢٠	قسما الأول	-	-	قزمان	دير الزجاج	٣٠ برمهات ٤٤٥	٢٦ مارس ٧٢٩
٢١	تاودروس	-	-	تادرس	-	أول أبيب ٤٤٦	٢٥ يونيه ٧٣٠
٢٢	خائيل الأول	خائيل الأخير	-	خائيل	-	١٧ توت ٤٦٠	١٤ سبتمبر ٧٤٣
٢٣	مينا الأول	-	سمنود	مينا	-	أول برمودة ٤٨٣	٢٧ مارس ٧٦٧
٢٤	يوحنا الرابع	-	بنا وأبوصير	يوحنا	دير الزجاج	١٧ طوب	١٢ يناير ٧٧٧

العدد	الأسماء		الوطن الأصلي	الاسم قبل البطريركية	الدير المتخرج منه	تاريخ التقدمة	
	بالعربي	اللقب المعروف به				للشهداء	تاريخ الميلاد
٢٥	مرقس الثاني	مرقس الجديد	الإسكندرية	مرقس	دير تابوروبويحلس	٢ أمشير ٥١٥	٢٦ يناير ٧٩٩
٢٦	ياكوبوس	العمود المضيء	نبروه	يعقوب	-	٤ بشنس ٥٣٥	٢٩ أبريل ٨١٩
٢٧	سيمون الثاني	سيمون السرياني	الإسكندرية	سمعان	-	٢١ أمشير ٥٤٦	١٥ فبراير ٨٣٠
٢٨	يوساب	-	منوف	يوسف	دير قبريوس	٢١ هاتور ٥٤٨	١٨ نوفمبر ٨٣١

العدد	تاريخ النياحة		مدة الإقامة	مدة الخلو	مركز الرئاسة	محل الدفن	الملوك المعاصرون
	تاريخ الشهداء	تاريخ الميلاد					
			يوم شهر سنة	يوم شهر سنة			
١	٧ توت ١٧١	٤ سبتمبر ٤٥٤	٩ ١ ١٠	- - ١	المرقسية والمنفى	جزيرة غاغرا بفلاغونيا	تيودسيوس الثاني ومارقيانوس
٢	٧ مسري ١٩٣	٣١ يوليه ٤٧٧	- ١٠ ٢١	- ١ ١	-	المرقسية بالإسكندرية	لاون الأول والثاني وزينون
٣	٢ هاتور ٢٠٦	٢٩ أكتوبر ٤٨٩	٢٩ ١ ١٢	- ١ -	-	-	زينون
٤	٢٠ توت ٢١٣	١٧ سبتمبر ٤٩٦	٢٠ ٩ ٦	١٣ - -	-	-	زينون وانسطاس
٥	٤ بشنس ٢٢١	٢٩ أبريل ٥٠٥	- ٧ ٨	- ١ -	-	-	انسطانس
٦	٢٧ بشنس ٢٢٢	٢٢ مايو ٥١٦	٢٣ ١١ ١٠	٧ - -	-	-	انسطانس
٧	١٧ بابه ٢٣٥	١٥ أكتوبر ٥١٨	١٥ ٤ ٢	٢٥ - -	-	-	انسطاس وجيستنيوس الأول

العدد	تاريخ النياحة		مدة الإقامة	مدة الخلو	مركز الرئاسة	محل الدفن	الملوك المعاصرون
	تاريخ الشهداء	تاريخ الميلاد					
٨	١٣ أمشير ٢٥٢	٨ فبراير ٥٣٦	- ٢ ١٧	٢ - -	المرقسية بالإسكندرية	-	جيستيليوس الأولى وجيستيلينوس الأول
٩	٢٨ بؤونه ٢٨٣	٢٢ يونيه ٥٦٧	١٥ ٤ ٣١	٣ ١ -	المرقسية ثم المنفى	المرقسية	جستينيانوس الأول وجستليوس الثاني
١٠	٢٥ بؤونه ٢٨٥	١٩ يونيه ٥٦٩	٢٥ ١٠ ١	٨ - -	دير الفاتية وبيعة القديس يوسف بدير الزجاج	دير الزجاج	جيستلوس الثاني
١١	١٨ بؤونه ٣٢١	١٢ يونيه ٦٠٥	١٦ ١١ ٣٥	٧ - -	دير الزجاج	دير الزجاج	جستليوس ٢ وطيباريوس ٢ وموريسيوس وفوكاس
١٢	٢٢ كيهك ٣٣٢	١٨ ديسمبر ٦١٦	- ٩ ١١	٢ - -	-	-	فوكاس وهيرقل الأول
١٣	٨ طوبه ٣٣٩	٣ يناير ٦٢٣	١٤ - ٦	- - -	الإنجيليون بالإسكندرية	المرقسية بالإسكندرية	هيرقل الأول
١٤	٨ طوبه ٣٧٨	٣ يناير ٦٦٢	- - ٣٩	٦ - -	دير متراس بالإسكندرية	-	... ...

العدد	تاريخ النياحة		مدة الإقامة	مدة الخلو	مركز الرئاسة	محل الدفن	الملوك المعاصرون
	تاريخ الشهداء	تاريخ الميلاد					
١٥	١٦ بابه ٣٩٧	١٣ أكتوبر ٦٨	٣ ٩ ١٨	١٤ ١ -	المرقسية	المرقسية بالإسكندرية	معاوية بن أبي سفيان
١٦	أول كيهك ٤٠٦	٢٧ نوفمبر ٦٨٩	- - ٩	٧ ١ -	-	-	معاوية ويزيد ومعاوية ابنه ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان
١٧	٩ هاتور ٤٠٩	٥ نوفمبر ٦٩٢	٢ ١٠ ٢	١٤ ١ -	-	-	عبد الملك بن مروان
١٨	٢٤ أبيب ٤١٦	١٨ يوليه ٧٠٠	- ٧ ٧	٧ ٩ ٣	-	-	-
١٩	٧ أمشير ٤٤٥	أول فبراير ٧٢٩	٧ ٩ ٢٤	٢٣ ١ -	-	-	عبد الملك بن مروان والرشيد بن عبد الملك وسليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك وهشام
٢٠	٣٠ بؤونة ٤٤٦	٢٤ يونيه ٧٣٠	- ٣ ١	- - -	-	-	هشام بن عبد الملك
٢١	٧ أمشير ٤٥٨	أول فبراير ٧٤٢	٧ ٧ ١١	١٣ ٧ ١	-	-	-

العدد	تاريخ النياحة		مدة الإقامة	مدة الخلو	مركز الرئاسة	محل الدفن	الملوك المعاصرون
	تاريخ الشهداء	تاريخ الميلاد					
٢٢	١٦ برمهات ٤٨٣	١٢ مارس ٧٦٧	- ٦ ٢٣	١٥ - -	-	دير الزجاج ثم المرقسية	هشام بن عبد الملك وال...
٢٣	٣٠ طوبة ٤٩٢	٢٦ يناير ٧٧٦	- ١٠ ٨	١٦ ١١ -	-	المرقسية	عبد الله أبو جعفر ومحمد منصور السيدي
٢٤	١٦ طوبة ٥١٥	١١ يناير ٧٩٩	- - ٢٢	١٥ - -	-	-	
٢٥	٢٢ برمودة ٥٣٥	١٧ أبريل ٨١٩	٢١ ٢ ٢٠	١٢ - -	-	بيعة	هارون الرشيد والأمين المأمون
٢٦	١٤ أمشير ٥٤٦	٨ فبراير ٨٣٠	٩ ٩ ١٠	٧ - -	-	تيدا	المأمون
٢٧	٣ بابه ٥٤٧	٣٠ سبتمبر ٨٣٠	١٥ ٧ -	١٧ ١ ١	-	المرقسية	-
٢٨	٢٣ بابه ٥٦٦	٢٠ أكتوبر ٨٤٩	٢ ١١ ١٢	- ١ -	المرقسية بالإسكندرية	المرقسية بالإسكندرية	المأمون والمعتصم والواثق و المتوكل

ثورات القبط (ما جاء في كتاب الكندي)

١- سنة ١٠٧ هـ، زمن ولاية الحر بن يوسف وخلافة هشام بن عبد الملك انتفضت كورة نتو وتمي وقربيط وطرابية وعامة الحوف الشرقي.

٢- سنة ١٢١ هـ، زمن ولاية حنظلة بن صفوان الثانية.

٣- ١٣٢ [*]، زمن ولاية عبد الملك بن مروان بن موسى ابن نصير، مولى لخم، خرج رجل من القبط يقال له يحنس بسمنود.

٤- ١٣٢ هـ، زمن قدوم مروان بن محمد إلى مصر خالفت القبط برشيد.

٥- شوال ١٣٥ هـ، زمن ولاية أبي عون وخلافة مروان ابن محمد[**] خرج أبو مينا القبطي بسمنود.

---

[*] إضافة التاريخ (و، أ) المصدر: الثورات الشعبية في مصر الإسلامية د. حسين نصار.

[**] إضافة اسم الخليفة (و، أ) المصدر: الثورات الشعبية في مصر الإسلامية د. حسين نصار.

٦- ١٥٠ هـ، زمن ولاية يزيد بن حاتم بن قبيصه وخلافة أبي جعفر، خرج القبط بسخا وصاروا إلى شبرا سنباط، وانضم إليهم البشرود والأوسنة والبجوم.

٧- ١٥٦ هـ، زمن ولاية موسى بن علي بن رباح اللخمي وخلافة أبي جعفر خرج القبط ببلهيب.

٨- ٢٠٣ هـ، زمن ولاية السري بن الحكم الثانية، عارضته القبط بسخا.

٩- ٢١٦ هـ، زمن خلافة المأمون، ثورة البشرود.

ولاة مصر حسب الكندي

١- صالح بن علي (١٣٢) هـ، من قبل أمير المـؤمنين أبي العباس عبد الله بن محمد ابن علي (السفاح).

٢- أبو عون عبد الله بن يزيد باستخلاف صالح بن علي ١٣٣ هـ، ثم استخلف عكرمة، وفـي ١٣٥ هـ ـ، كان الخراج لعطاء بن شرحبيل مولى مراد.

٣- صالح بن علي "الثانية" ١٣٦ هـ ـ علـى الصـلاة والخراج.

٤- ظابو عون "الثانية" ١٣٧ هـ على الصلاة والخراج.

٥- موسى بن كعب، من قبل أمير المؤمنين أبي جعفـر المنصور ١٤١ هـ.

٦- محمد بن الأشعث، من قبل أبـو جعفـر المنصـور ١٤١ هـ على الصلاة والخراج.

٧- حميد بن قحطبة، من قبل أبي جعفر علي ١٤٣ هـ على الصلاة والخراج.

٨- يزيد بن حاتم، من قبل أبو جعفر المنصور ١٤٤ هـ على الصلاة والخراج.

٩- عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حـديج ١٥٢ هـ، من قبل أبو جعفر المنصور.

١٠- محمد بن عبد الرحمن بن حديج ١٥٥ هـ.

١١- موسى بن علي بن رباح اللخمي ١٥٦ هـ.

١٢- عيسى بن لقمان الجمحي، من قبل المهدي ١٦١ هـ على الصلاة والخراج.

١٣- واضح مولى أبي جعفر من قبل المهدي على الصلاة والخراج ١٦٢ هـ.

١٤- منصور بن يزيد بن منصور الرعيني، مـن قبـل المهدي على الصلاة ١٦٢ هـ.

١٥- سحي بن داود الخرسي الشهير بابن ممدود، من قبل المهدي ١٦٢ هـ على الصلاة والخراج.

١٦- سالم بن سوادة التميمي، من قبـل المهـدي علـى الصلاة ١٦٤ هـ.

١٧- إبراهيم بن صالح، من قبل المهدي علـى الصـلاة والخراج ١٦٥ هـ.

١٨- موسى بن مصعب الخشعمي، من قبل المهدي على الصلاة والخراج ١٦٧ هـ.

١٩- عسامة بن عمرو المعافري.

٢٠- الفضل بن صالح بن علي العباسي، من قبل المهدي على الصلاة والخراج ١٦٩ هـ.

٢١- علي بن سليمان العباسي، من قبل موسى الهادي على الصلاة والخراج ١٦٩ هـ.

٢٢- موسى بن عيسى بن موسى العباسي، من قبل هارون الرشيد على الصلاة ١٧٢ هـ.

٢٣- مسلمة بن يحيي الجبلي، من قبل هارون الرشيد على الصلاة ١٧٢ هـ.

٢٤- محمد بن زهير الأزدي، من قبل الرشيد على الصلاة والخراج ١٧٣ هـ.

٢٥- داود بن يزيد المهلبي ١٧٤ هـ.

٢٦- موسى بن عيسى العباسي "الثانية" على الصلاة والخراج، من قبل الرشيد ١٧٥ هـ.

٢٧- إبراهيم بن علي صالح العباسي "الثانية" من قبل الرشيد على الصلاة والخراج ١٧٦ هـ.

٢٨- عبد الله بن المسيب بن زهير الضبي، من قبل الرشيد على الصلاة ١٧٦ هـ.

٢٩- إسحق بن سليمان، من قبل الرشيد علـى الصـلاة ١٧٧ هـ.

٣٠- هرثمة بن أعين، من قبل الرشـيد علـى الصـلاة والخراج ١٧٨ هـ.

٣١- عبد الملك بن صالح بن علي العباسـي، مـن قبـل الرشيد على الصلاة والخراج ١٧٨ هـ.

٣٢- عبيد الله بن المهدي العباسي، من قبل الرشيد علـى صلاتها وخراجها ١٧٩ هـ.

٣٣- موسى بن عيسى "الثالثة" من قبـل الرشـيد علـى صلاتها ١٨٠ هـ.

٣٤- عبيد الله بن المهدي "الثانية" من قبل الرشـيد علـى صلاتها ١٨٠ هـ.

٣٥- إسماعيل بن صالح العباسي، من قبل الرشيد علـى صلاتها ١٨١ هـ.

٣٦- إسماعيل بن عيسى العباسي، من قبل الرشيد علـى صلاتها ١٨٢ هـ.

٣٧- الليث بن الفضل، من قبل الرشـيد علـى صـلاتها وخراجها ١٨٧ هـ.

٣٨- عبد الله بن محمد العباسي، من قبل الرشـيد علـى صلاتها ١٩٠ هـ.

٣٩- الحسين بن جميل، من قبل الرشيد علـى صـلاتها ١٩٠ هـ.

٤٠- مالك بن دلهم الكلبي، من قبل الرشيد على الصـلاة ١٩٢ هـ.

٤١- الحسن بن التختاخ، من قبل الرشيد علـى صـلاتها وخراجها ١٩٣ هـ.

٤٢- حاتم بن هرثمة بن أعين، من قبل محمد بن هارون الأمين على صلاتها وخرجها ١٩٥ هـ.

٤٣- جابر بن الأشعث الطائي، من قبل محمد الأمين على صلاتها وخراجها ١٩٥ هـ.

٤٤- عباد بن محمد بن حيان، من قبـل المـأمون علـى صلاتها وخراجها ١٩٦ هـ.

٤٥- المطلب بن عبد الله الخزاعي، من قبل المأمون على صلاتها وخراجها ١٩٨ هـ.

٤٦- العباس بن موسى بن عيسى العباسـي، مـن قبـل المأمون على صلاتها وخراجها ١٩٩ هـ.

٤٧- المطلب بن عبد الله (الثانية) ١٩٩ هـ.

٤٨- السري بن الحكم على صلاتها وخراجها ٢٠٠ هـ.

٤٩- سليمان بن غالب بن جبريل البجلي على صلاتها وخراجها ٢٠١ هـ.

٥٠- السري بن الحكم "الثانية" من قبل المأمون على صلاتها وخراجها ٢٠١ هـ.

٥١- أبو النصر بن السري على الصلاة والخراج ٢٠٦ هـ.

٥٢- عبيد الله بن السري على الصلاة والخراج ٢٠٦ هـ.

٥٣- عبد الله بن طاهر ٢١٠ هـ.

٥٤- عيسى بن يزيد الجلودي، من ابن طاهر أولا، ثم من المعتصم على الصلاة والخراج ٢١٤ هـ.

٥٥- عمير بن الوليد، من أبي إسحاق بن الرشيد على الصلاة ٢١٤ هـ.

٥٦- عيسى بن يزيد الجلودي (الثانية) ٢١٤ هـ.

٥٧- عبد ربه بن حبلة من قبل أبي إسحاق على الصلاة ٢١٥ هـ.

٥٨- عيسى بن منصور، من قبل أبي إسحاق على الصلاة ٢١٦ هـ.

ملحق

خرائط رحلة الانصهار

حوض النيل عند الأدريس

خريطة العالم للإدريسي

الملتقى تاريخ الإسلام / د. حسين مؤنس / الزهراء للإعلام العربي : الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - / ١٩٨٧م

٩١

تاريخ الكنائس والأديرة في القرن الثاني عشر الميلادي لأبي المكارم
الذي نسب خطأ إلى أبي صالح الأرمني الجزء الأول الوجه البحري والقاهرة
إعداد وتعليق / الراهب صموئيل السرياني
« بدون تاريخ »

البحر
الدولة
التقسيم الإداري لدلتا مصر
فترة الكسور الصغرى

التقسيم الإداري لدلتا مصر
فترة الكسور الكبرى

مراجع الجزء الأول (حكايات الدخول)

فهرس المراجع العربية

١- ابن دقماق، الجزء الرابع من كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار، الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية الكبرى، ١٣٠٩ هـ.

٢- ابن سعيد الأندلسي: المغرب في حلى المغرب، مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣ م، تحقيق د. زكي محمد حسن، شوقي ضيف، سيدة الكاشف، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر.

٣- ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث، تحقيق: مصطفى السقا، كامل المهندس، ١٩٦٩ م.

٤- ابن الشبه أبو زيد عمر بن شبه النميري البصري: كتاب تاريخ المدينة المنورة، حققه: فهيم محمد شلتوت، الجزء الأول.

٥- ابن المأمون الأمير جمال الدين أبو علي موسى بن المأمون البطائحي، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة.

٦- ابن عبد الملك العصامي المكي: سمط العـوالي فـي أنباء الأوائل والتوالي، د. ت، د. ن.
٧- أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني، المعـروف بـابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان: طبع في مدينـة ليـدن المحروسة بمطبع بريل سنة ١٣٠٢ هـ.
٨- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الطبـري، تاريخ الرسل والملوك.
٩- أبو الفرج الأصبهاني علـي بـن الحسـين: كتـاب الأغاني، سلسلة تراثنـا، وزارة الثقافـة والإرشـاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، تحقيـق: علي النجدي ناصف.
١٠- أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشـى في صناعة الإنشا، سلسلة تراثنا، المؤسسة المصـرية العامة للتأليف والترجمة، الجزء الأول.
١١- أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: الكامل، دار نهضة مصر.

١٢- أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبـد الحكـم: كتاب فتوح مصر والمغرب والأندلس، عني بنشـره وتصحيحه: هنري ماسيه.
١٣- أبو القاسم بن حوقل، كتاب: المسالك والممالك، طبـع في مدينة ليدن المحروسة بمطبع بريل، ١٨٧٣ م.
١٤- أبو عمر محمد بن يوسف الكندي المصـري: كتـاب الولاة وكتاب القضاة، مطبعـة الآبـاء اليسـوعيين، بيروت، ١٩٠٨ م.
١٥- أبو عمر محمد بن يوسف الكندي: فضـائل مصـر، تحقيق: إبراهيم العدوي، علي محمد عمـر، الطبعـة الأولى، مطبعة وهبة، دار الفكر، بيروت ١٩٧١ م.
١٦- أبو الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس للطباعة والنشر، تحقيق: يوسف أسعد داغر.
١٧- أبو الحسن علي بـن الحسـين المسـعودي: التنبيـه والإشراف، عنـي بتصـحيحه: عبـد الله إسـماعيل الصاوي، المكتبة التاريخية / ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م.

١٨- أبو السرور الصديق الشافعي: القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب.
١٩- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: رفع الإصر عن قضاة مصر، القسم الأول، وزارة التربية والتعليم، قسم نشر التراث، ١٩٥٧ م.
٢٠- أحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاذري: كتاب فتوح البلدان، القسم الأول، نشره ووضع ملاحقه وفهارسه: د. صلاح الدين المنجد، مكتبة نهضة مصر.
٢١- أدولف جروهمان: أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، مراجعة: عبد الحميد حسن، السفر الرابع، ١٩٦٧ م.
٢٢- الألوسي: بلوغ الأرب في أحوال العرب، الجزء الأول.
٢٣- الواقدي: كتاب فتوح الشام.
٢٤- الواقدي: كتاب المغازي، تحقيق: مارسدن جونسن، مطبعة جامعة أكسفورد.
٢٥- إليعقوبي: تاريخ إليعقوبي، مطبعة العزي، النجف.

٢٦- تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، أربعة أجزاء.
٢٧- تقي الدين أبي العباس أحمد بن على المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزي، مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع، جزءان.
٢٨- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: كتاب تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد / الطبعة الرابعة.
٢٩- جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، سلسلة تراثنا / الجزء الأول، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة..
٣٠- زين الدين بن عمر بن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي)، إشراف وتحقيق: أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٣١- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، مكتبة المقدسي، ١٣٦٧ هـ.
٣٢- شمس الدين الذهبي: التاريخ الكبير، أو تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، القسم الأول الخاص بالمغازي، تحقيق: د. محمد عبد الهادي شعيرة، دار الكتب، ١٩٧٣ م.
٣٣- شمس الدين الذهبي: سير النبلاء، جزء مخصوص بأبرز امرأة في تاريخ الإسلام عائشة بنت أبي بكر الصديق، قدمه وطبعه: سعيد الأفغاني، مطبعة الترقي، دمشق.
٣٤- شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي: معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٣٥- القرشي: معالم القربة في أحكام الحسبة، د. ن، د. ت.
٣٦- كمال الدين الدميري: كتاب حياة الحيوان الكبرى، الجزء الأول، د. ن، د. ت.

٣٧- عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بـن كثيـر القرشي الدمشقي، كتاب البداية والنهاية، د. ن، د. ت.
٣٨- عمر رضا كحاله: أعلام النساء في عـالمي العـرب والإسلام، المطبعة الهاشمية بدمشق، ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م، الطبعة الثانية.
٣٩- علي باشا مبارك: الخطط الجديدة التوفيقيـة لمصـر القاهرة، الطبعة الأولى، المطبعـة الأميريـة، ١٣٠٦ هـ.
٤٠- محمد بن سعد كاتب الواقدي: كتاب الطبقات الكبيـر، تحقيق: إدوارد سخو، طبع في مدينة ليدن المحروسة، ١٣٢٢ هـ، طبعة أخـرى: دار المعرفـة للطباعـة والنشر.
٤١- محمد عبد الملك بن هشام المعافري: السيرة النبويـة لابن هشام، الجزء الثالث، مكتبة الكليات الأزهرية.

فهرس المراجع القبطية

١- الأب متى المسكين: الرهبنة القبطيـة فـي عصـر القديس أنبا مقار، دير القديس أنبا مقـار، الطبعـة الثانية، ١٩٨٤ م.

٢- ابن العسال: المجموع الصـفوي، طبعـه خاصـة لدارسي القانون الكنسي، أعدها للنشر القس: يوسف عوض تادرس، ١٩٩٠ م.

٣- الأنبا غريغوريوس أسقف عـام الدراسـات العليـا والثقافة القبطية و البحث العلمي: الـدير المحـرق تاريخه ووضعه وكل مشتملاته.

٤- إيريس حبيب المصري: قصة الكنيسة المصرية من سنة ٤٣٥ – ٩٤٨ م.

٥- ساويروس بن المقفع أسـقف الأشـمونيين: تـاريخ بطاركة الكنيسة المصـرية، المجلـد الأول: مـن مارمرقس حتى البابـا يوسـاب، أعـدها للنشـر: صموئيل السرياني.

٦- ساويروس بن المقفع: كتاب مصباح العقـل، تقـديم وتحقيق الأب: سمير خليل، التراث العربي المسيحي (١)، ١٩٧٨ م.
٧- جورج شحاتة قنواتي: المسيحية والحضارة العربية، دار الثقافة.
٨- سليمان نسيم: تاريخ التربية القبطيـة، دار الكرنـك للنشر.
٩- كامل صالح نخلة: البابا بنيـامين الأول البطريـرك الثامن والثلاثون، والفتح العربـي لمصـر. مكتبـة المحبة، ١٩٤٨ م.
١٠- لويس شيخو: شـعراء النصـرانية بعـد الإسـلام، منشورات دار المشرق، بيروت.
١١- مراد كامل: حضارة مصر فـي العصـر القبطـي، مطبعة دار العالم العربي.
١٢- يوحنا النقيوسـي: مصـر فـي مخطوطـة يوحنـا النقيوسي، دراسة دكتوراه، عمـر صـابر، كليـة الآداب، جامعة القاهرة.

فهرس المراجع الحديثة

١- أحمد الشبول: علاقات الأمة الإسلامية في العصر النبوي مع بلاد الشام وبيزنطة (الجزيرة العربية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم)، جامعة الملك سعود، الجزء الثاني، ١٤١٠ هـ.

٢- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٢م.

٣- بتلر، د. ألفرد ج بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة: محمد فريد أبو حديد، مكتبة مدبولي، ١٩٩٠ سلسلة "من تاريخ مصر" (١).

٤- جاك تاجر: أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٩٢ م، دكتوراه في الآداب من جامعة باريس، كراسات التاريخ المصري، ١٩٥١ م.

٥- حسن إبراهيم حسن: تاريخ عمرو بن العاص، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة.

٦- حسن الباشا: فن التصوير في مصر الإسلامية، دار النهضة العربية، ١٩٦٦ م.

٧- حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسـلام، دار الزهـراء للإعلام العربي.
٨- حسين نصار: الثورات الشعبية في مصر الإسـلامية، منشورات اقرأ، الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م.
٩- زبيدة عطا: الفلاح المصري بـين العصـر القبطـي والعصر الإسلامي، سلسلة تاريخ المصريين، (٤٨)، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩١ م.
١٠- زبيدة عطا: إقليم المنيا في العصر البيزنطي في ضوء أوراق البردي، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٢.
١١- سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسـلامية وآثارهـا الباقية، وزارة الثقافة، دار الكاتب العربـي للطباعـة والنشر.
١٢- سعيد حوى: الرسول صلى الله عليه وسلم، جـزءان معًا، مكتبة وهبة.
١٣- سيدة إسماعيل الكاشف: الأرض والفلاح في مصـر الإسلامية، مجلـة الجمعيـة المصـرية للدراسـات التاريخية، القاهرة، ١٩٧٤ م.

١٤- سيدة إسماعيل الكاشف: تـاريخ مصـر الإسـلامية، موسوعة تاريخ مصر عبر العصور (بالاشتراك مـع آخرين)، سلسلة تـاريخ المصـريين (٦٣)، الهيئـة المصرية العامة للكتاب.
١٥- فيكتور سحاب: إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، المركز الثقافي العربي.
١٦- عبد الخالق سيد أبو رابيه: عمرو بن العاص بين يدي التاريخ، الزهراء للإعلام العربي.
١٧- عبد الله خورشيد البري: القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، الهيئة العامة للكتـاب، ١٩٩٢ م.
١٨- محمد كامل حسين: أدب مصر الإسلامية في عصـر الولاة، دار الفكر العربي.
١٩- محمد عفيفي: الأقباط في مصر في العصر العثماني، تاريخ المصريين، (٥٤)، الهيئة العامة للكتاب.
٢٠- محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ م، مطبعة دار الكتاب المصرية، ١٩٥٣ م.

٢١- مصطفى العبـادي: الأرض والفـلاح فـي مصـر الرومانية، مجلـة الجمعيـة المصـرية للدراسـات التاريخية، القاهرة، ١٩٧٤ م.
٢٢- مصطفى العبادي: موقع نصتان في ضـوء الوثـائق البردية، جامعة الملك سعود، الجزيرة العربيـة فـي عصر الرسول صـلى الله عليـه وسـلم والخلفـاء الراشدين، الجزء الثاني، ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م.

مراجع الجزء الثاني (رحلة الانصهار)

١- تـاريخ البطاركـة وبـابوات الكرسـي المرقصـي السكندري، ساويرس بن المقفع، قام بنشره يس عبـد المسيح وأولد برمتي، مطبوعات جمعية الآثار القبطية – قسم النصوص والوثائق، القاهرة ١٩٤٣.

٢- ولاة مصر: محمد بـن يوسـف الكنـدي، تحقيـق: د. حسين نصار، دار الصادر – بيروت.

٣- مروج الذهب ومعادن الجوهر فـي التـاريخ: أبـي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي الشـافعي المتوفى سنة ٣٤٦ هـ، المطبعة البهيـة المصـرية ١٣٤٦ هـ.

٤- بدائع الزهور في وقـائع الـدهور: تـأليف محمـد ابن أحمد بن إياس الحنفي، حققها وكتب لها المقدمة: محمد مصطفى، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ م.

٥- المقفى ا لكبير: أحمد بن علي المقريزي.

٦- تاريخ اليعقوبي: تأليف أحمد بن أبي يعقوب بـن جعفـر ابن وهب، الكاتب المعروف بـابن واضـح الإخبـاري

المتوفى سنة ٢٩٢ هـ، من نشريات المكتبة المرتضـوية في النجف، مطبعة العزي، النجف، ١٣٥٨ هـ.
٧- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (٨١٣ – ٨٧٤ هـ)، دار الكتب، القاهرة، ١٩٢٩ م.
٨- المواعظ والاعتبـار فـي ذكـر الخطـط والآثـار: المقريزي، مكتبة مدبولي، القاهرة.
٩- تاريخ خليفة بن خياط العصـفري (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م) رواية تقي بن مخلد، حققه: سـهيل زكـار، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القـومي، دمشق، ١٩٦٨.
١٠- خير الدين الزركلي: الأعلام، قاموس تراجم لأشـهر الرجـال والنسـاء مـن العـرب والمسـتعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيـروت، ١٩٧٩ / ١٩٨٠.
١١- هرموبوليس ماجنا: (الأشمونين) في العصر الروماني بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصـادية حتـى سنة ٢٨٤ م، إعداد: آمال محمـد الروبـي، رسـالة

ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، قسم التـاريخ ١٩٧١ م.
١٢- الثورات الشعبية في مصر الإسلامية: حسين نصـار، اقرأ للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦.
١٣- عصر المأمون: بقلم الدكتور أحمـد فريـد رفـاعي المفتش بوزارة الداخلية، المجلد الثالث، الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧ م.
١٤- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: لأبي الفرج بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي المتوفى سـنة ٥٩٧ هـ / دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطـا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٩٩٢ م.
١٥- الفهرست: لابن النديم، مطبعة الاستقامة، القاهرة.
١٦- البشموري (رواية): سلوى بكر، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٨ م.
١٧- الجامع لمفردات الأدوية والأغذيـة: ضـياء الـدين عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقي، المعـروف بـابن

البيطار، المجلد الأول، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد.
١٨- القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة: عبد الله خورشيد البري، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢ م.
١٩- تاريخ مصر: ليوحنا النقيوس، رؤية قبطية للفتح الإسلامي، د. عمر صابر عبد الجليل، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٠ م.
٢٠- فتوح البلدان: تصنيف الإمام؛ أبي العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، حققه وشرحه وعلق على حواشيه: عبد الله أنيس الطباع، عمر أنيس الطباع، منشورات مؤسسة المعارف، بيروت – لبنان.
٢١- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: للمقدس المعروف بالبشاري، الطبعة الثالثة، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل سنة ١٩٠٦ م، مكتبة مدبولي، القاهرة.

٢٢- تاريخ القضاء في الإسلام: ابن عرنـوس، المطبعـة المصرية الأهلية الحديثـة بالقـاهرة، ١٣٥٢ هـ ـ / ١٩٣٤ م.
٢٣- القضاة الذين ولوا قضاء مصر: الكندي، طبع بمدينـة رومية العظمى ١٩٠٨ م.
٢٤- أنوار على الأجرام في الكشف عن أسرار الأهـرام: الشريف أبي جعفر محمد بن عبد العزيـز الحسـيني الإدريسي (تُوفي سنة ٦٤٩ هـ ـ / ١٢٥١ م) حققـه وقدم له الريش هارمان، نصوص ودراسات سلسـلة يصدرها المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، بيروت، ١٩٩١ م.
٢٥- رحلة ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، للإمام أبي عبد الله محمد بن عبـد الله، المعروف بـابن بطوطـة، المطبعـة الخيريـة لصاحبها عمـر حسـين الخشـاب – صـفر سـنة ١٣٢٣ هـ.
٢٦- تاريخ الإسلام والمسلمين في أزهى عصور الخلافـة العباسية:مجدي فتحي السيد، سلسلة صحيح التوثيـق

(٦)، دار الصحافة للتراث بطنطا – الطبعة الأولى ١٩٩٩ م.
٢٧- سواحل مصر – بحوث في الجيومورفولوجيا، د. محمد صبري محسوب سليم، دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٩٤.
٢٨- الأرض والفلاح في مصر على مر العصور، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ١٩٧٤ م.
٢٩- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، آدم ميتز، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريده، المجلد الأول، دار الكتاب العربي – بيروت لبنان ١٩٦٧ م، ط الرابعة.
٣٠- العصر العباسي الأول أو القرن الذهبي في تاريخ الخلفاء العباسيين – التاريخ السياسي – الجزء الأول: د. عبد المنعم ماجد، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٣ م.
٣١- أوراق البردي العربية لدار الكتب المصرية: جمعها وعلق عليها ووصفها بالإنجليزية أدولف جروهمان، أستاذ اللغات السامية وتاريخ الثقافات الشرقية بجامعة

براغ التشيكوسلوفاكية، اشترك مع المؤلف في نقل الكتاب إلى العربية د. حسن إبراهيم حسن، راجع الترجمة عبد الحميد حسن، مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة، ١٩٤٣ م.

٣٢- الأرض والفلاح في مصر الرومانية: مصطفى العبادي.

٣٣- الأرض والفلاح في مصر الإسلامية: د. سيدة إسماعيل الكاشف.

٣٤- أدب مصر الإسلامية، عصر الولاة: محمد كامل حسين.

٣٥- فتوح مصر وأخبارها: ابن عبد الحكم، صفحات من تاريخ مصر (١٠)، الناشر: مكتبة مدبولي، ١٩٩١ م، ط الأولى.

٣٦- أهل الذمة في الإسلام: د. أ. س ترتون، ترجمة وتعليق: د. حسن حبشي / تاريخ المصريين (٧٠) الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط الثانية.

٣٧- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة: تأليف علي باشا مبارك،

الطبعة الثانية عن طبعة بولاق سـنة ١٣٠٥ هـ ـ / الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤ م.

٣٨- أطلس تاريخ الإسلام: د. حسين مـؤنس، الزهـراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧ م.

٣٩- مصر في فجر الإسلام من الفتح العربي إلـى قيـام الدولة الطولونية: سيدة إسماعيل الكاشف، دار الفكـر العربي، القاهرة، ١٩٧٤ م.

٤٠- الكامل في التاريخ: تأليف الشيخ العلامة عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بـن عبـد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير، المجلد السادس، دار صادر – بيروت ١٤٠٢ هـ ـ - ١٩٨٢ م.

٤١- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: للمـؤرخ الفقيـه الأديب أبي الفلاح عبد الحي بـن العمـاد الحنبلـي المتوفى سنة ١٠٩٨ / دار الكتب العلمية، بيـروت – لبنان.

٤٢- أثار البلاد وأخبار العباد، تصنيف الإمام العالم زكريا محمد بن محمود القزويني، دار صـادر، بيـروت، ١٩٦٩ م.
٤٣- الليث بن سعد: د. عبد الحليم محمود شيخ الأزهـر، سلسلة الأعلام (١٣)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧ م.
٤٤- الملابس في العصرين القبطي والإسلامي: تأليف ثناء عبد الرحمن بلال، مدرس تاريخ الملابـس بالمعهـد العالي للفنون المسرحية، الناشر: دار النهضة العربية ٨٢ – ١٩٨٣ م.
٤٥- تاريخ التربية القبطية: سـليمان نسـيم، دار الثقافـة العربية، القاهرة، ١٩٦٣ م.
٤٦- معالم القربة في أحكام الحسبة: محمد بن محمـد بـن أحمد القرشي (٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م / ٧٢٩ هـ - ١٣٢٩ م)، تحقيق د. محمد محمود شعبان، وصـديق أحمد عيسى المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦ م.

٤٧- الجزية والإسلام: تأليف دانييل دينيث، ترجمه وقدم له د. فوزي فهيم جاد الله – راجعه د. إحسان عبـاس، منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٦٠ م.
٤٨- الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات: د. أيمن فؤاد السيد، الجزء الأول، الدار المصـرية اللبنانيـة، ١٩٩٧ م، ط الأولى.
٤٩- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، حققه وعلق على حواشيه: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي مصـر، ومكتبة المثنى ببغداد، مطبعة لجنة التأليف والترجمـة والنشر – القاهرة، ١٩٥٥ م.
٥٠- الألقاب الإسلامية في التـاريخ والوثـائق والآثـار: د. حسن الباشا، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧ م.
٥١- صبح الأعشى في صناعة الإنشا: لأبي العباس أحمـد ابن علي القلقتشندي (٨٢١ هـ - ١٤١٨ م)، الجزء الثالث، وزارة الثقافة والإرشاد القـومي، المؤسسـة المصرية العامة للتأليف والترجمة، سلسلة تراثنا.

٥٢- الولاة والقضاة: لأبي عمر محمد بن يوسف المصري الكندي، د. حسن أحمد محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٧٧ م.
٥٣- تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الأمم والملوك: للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، راجعه وصححه وطبعه نخبة من العلماء الأجلاء، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الجزء السابع، بيروت – لبنان.
٥٤- كتاب الفتوح: للعلامة أبي محمد أحمد بن عمر الكوفي المتوفى نحو سنة ٣١٤ هـ / ٩٦٢ م، المجلد الثامن، دار الندوة الجديدة، بيروت – لبنان.
٥٥- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق – لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي الحسيني، المعروف بالشريف الإدريسي، عالم الكتب – الجزء الأول.
٥٦- تاريخ وجداول بطاركة الإسكندرية القبط، وجدول عام جامع بين أقوال المتقدمين، تاريخ الأمة القبطية، الحلقة الرابعة، كامل صالح نخلة، لجنة التاريخ القبطي، ١٩٤٣ م.

٥٧- تاريخ أبرشية دمياط: الجزء الأول (محافظة دمياط)، تقديم نيافة الحبر الجليل الأنبا: بيشوي، تأليف القمص بيشوى عبد المسيح وكيل مطرانية دمياط.
٥٨- شذور العقود في ذكـر النقـود: أحمـد بـن علـي المقريزي، دراسة وتحقيق د. محمـد عبـد السـتار عثمان، مطبعة الأمانة، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.
٥٩- عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة وكيف هيئـة المدن وإحاطة البحار بها وتشقق أنهارهـا ومعرفـة جبالها وجميع مـا وراء خـط الاسـتواء والطـول والعرض بالمسطرة والحساب والعدد والبحـث فـي جميع ما ذكر، تصـنيف سـهراب، اعتنـى بنسـخه وتصحيحه هاترفون ثربك، طبع فـي مدينـة فيينـا بمطبعة أدولف هولزهوزن ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٩ م.
٦٠- تقويم النيل: أمـين سـامي، دار الكتـب، القـاهرة، ١٩٣٦م.
٦١- تقويم البلدان: لأبي الفدا.
٦٢- الألقاب والحرف والوظائف فـي ضـوء البرديـات العربية، دراسات أثرية حضارية – رسالة مقدمة لنيل

درجة الدكتوراة في الآثار الإسلامية من قسم الآثـار الإسـلامية – جامعـة القـاهرة كليـة الآثـار، د. سعيد مغاوري محمد – إشراف: حسـن الباشـا، وعبد العزيز عبد الدايم / المجلد الأول ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

٦٣- حياة الحيوان الكبرى: كمال الدين الدميري، الجـزء الأول، مطبعة الاستقامة، القـاهرة، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٩ م.

٦٤- الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقـاهرة، لابـن ظهيرة، تحقيق: مصطفى السقا – كامـل المهنـدس، ج. م. ع – وزارة الثقافة – مركز تحقيـق التـراث، مطبوعات دار الكتب، ١٩٦٩ م.

٦٥- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: تـأليف الوزير الفقيه أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي المتوفى سـنة ٤٨٧ هـ، الجـزء الأول، عارضه بمخطوطات القاهرة وحققه وضبطه مصطفى السقا، ط الأولى، مطبعة لجنـة التـأليف والترجمـة والنشر، ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م.

٦٦- مصر الإسـلامية درع العروبـة وربـاط الإسـلام: د. إبراهيم أحمد العدوي، هيئـة الآثـار المصـرية، القاهرة، ١٩٩٢ م.

٦٧- المؤرخ المصري، دراسات وبحوث تاريخية محكمة، جامعة القاهرة كليـة الآداب، (٤)، يوليـو ١٩٨٩ / يصدرها قسم التاريخ، شرق الدلتا منذ الفتح العربـي حتى نهاية العصر الفاطمي، د. بدر عبـد الـرحمن محمد.

٦٨- المؤرخ المصري، دراسات وبحـوث فـي التـاريخ والحضارة، جامعة القاهرة كلية الآداب، يصدرها قسم التاريخ، العدد الخامس عشر، يوليو ١٩٩٥، صـناعة الورق والوراقة في بلاد الشام في العصر الفـاطمي بقلم د. محمد زيود.

٦٩- المؤرخ المصري، يصدرها قسم التاريخ بكلية الآداب – جامعة القاهرة، العدد الثـاني والعشـرون، يوليـو ١٩٩٩، السكة الإسلامية فـي مصـر (٢١ – ١٥٤ هـ)، د. منى حسن محمود.

٧٠- نخبة الفكر في تدبير نيل مصر: تأليف الأمير الجليل سعادة علي مبارك باشا ناظر الأشـغال العموميـة، ط الأولى، مطبعة وادي النيل العربيـة والإفرنجيـة بالقاهرة المحروسة بباب الشعرية ١٢٩٧ هـ.
٧١- مسلمون وأقباط: جاك تاجر.
٧٢- مقدمة في العمارة القبطية الرفاعية: / حجاجي إبراهيم محمد، مكتبـة نهضـة الشـرق، جامعـة القـاهرة، ١٩٨٤ م.
٧٣- القاموس الجغرافـي للـبلاد المصـرية مـن عهـد المصريين إلى سنة ١٩٤٥، وضعه وحققه وعلق عليه محمد رمزي، تقديم دكتور عبد العظـيم رمضـان، مركز وثائق وتـاريخ مصـر المعاصـرة، الهيئـة المصرية العامـة للكتـاب، القسـم الأول – الـبلاد المندرسة.
٧٤- قوانين الدواوين: لأسعد بن مماتي الـوزير الأيـوبي المتوفى ٦٠٦ هـ - ١٢٠٩ م، الجمعيـة الزراعيـة الملكية، جمعه وحققه عزيز سوريال عطية، مطبعـة مصر ١٩٤٣ م.

٧٥- معجم البلدان: للشيخ الغمام شهاب الدين أبي عبـد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، الجـزء الأول، دار صادر – بيروت.
٧٦- أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وعجائـب البلـدان والغامر بالماء والعمران، المسـعودي، دار الأنـدلس للطباعة والنشر، ١٩٦٦ م.
٧٧- أوراق البردي العربية بدار الكتب المصـرية: حقـق النصوص د. عبد العزيز الدالي.
٧٨- تاريخ التراث العربي: فؤاد سـزكين، الجـزء الأول الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨ م.
٧٩- فضائل مصر وأخبارهـا وخواصـها: ابـن زولاق، تحقيق د. علي محمد عمر، الهيئة المصـرية العامـة للكتاب – التراث / مكتبة الأسرة ١٩٩٩ م.
٨٠- عيون الأثر في فنون المغازي والشـمائل والسـير: أبو الفتح محمد بن محمود بن سيد الناس اليعمـري، (ت ٧٣٤)، نشرته مكتبة القدس في جزأين، القاهرة، ١٣٥٦ هـ.

٨١- مختصر تاريخ الدول: ابن العبـري جريجوريـوس المالطي، الجزء الثاني، بيروت، ١٩٥٨ م.
٨٢- معجم القبائل العربية: عمر رضا كحالـة، دمشـق، ١٩٤٩ م.
٨٣- نهاية الأدب في معرفة قبائـل العـرب، القلقشـندي، القاهرة، ١٩٥٥ م.
٨٤- إمتاع الأسماع: المقريزي، لجنة التـأليف والترجمـة والنشر، ١٩٤٥ م.
٨٥- الكافي في تاريخ مصر القـديم والحـديث: لمؤلفـه ميخائيل شاروبيم بك رئيس النيابة العمومية بمحكمـة المنصورة.
٨٦- دراسات عن المقريزي.
٨٧- الدير المحرق، تاريخه ووصفه وكل مشـتملاته: الأنبـا جريجوريوس أسقف عام الدراسـات العليـا اللاهوتيـة والثقافة القبطية والبحث العلمي.
٨٨- فهرس الوقائع والحوادث في سـير أعـلام النـبلاء: شمس الدين الذهبي.